

دكتور عبد الله محمود شحانه



أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم

تنسيق أخوكم **فريد** ١
جزى الله خيراً من قام بتصويره



المكتبة المصرية المتنامية للكتاب

١٩٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده ، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه وخليته ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإنه لم يظفر كتاب من الكتب سماويا كان أو أرضيا في أية أمة من الأمم قديمها وحديثها ، مثل ما ظفر به القرآن على أيدي المسلمين ، ومن شارك في علوم المسلمين ، ولعل هذا يفسر لنا جانباً من الرعاية الإلهية لهذا الكتاب الذي تكفل الله بحفظه وتخليده في قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر ٩

فما كان الحفظ والتخليد بمجرد بقاء ألفاظه وكلماته مكتوبة في المصاحف ، مقروءة بالألسنة متعبدا بها في المساجد والمحاريب ، إنما الحفظ والتخلود بهذه العظمة التي شغلت الناس وملأت الدنيا وكانت مثارا لأكبر حركة فكرية اجتماعية عرفها البشر .

لقد عني المسلمون منذ فجر الإسلام بالقرآن الكريم عناية كبرى شملت جميع نواحيه ، وأحاطت ما يتصل به : ولا تكاد نعرف علما من العلوم

التي اشتغل بها المسلمون في تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم .

فالنحو والبلاغة والتجويد والقراءات والفقهاء والأصول ، كلها نشأت للحفاظ على القرآن ، وبيان أوجه بلاغته وطريقة قراءته وطرق استنباط الأحكام منه .

وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب ، وعلوم الحيوان والنبات والتاريخ والقصص والأدب وغير ذلك من علوم الإنسان ، لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به - في نظر من اشتغل به من المسلمين - مقصودا به خدمة القرآن ، أو تحقيق إيجاه أوحى به القرآن .

وتبعا لهذه الأنحاء المختلفة في نظر المسامحين إلى القرآن واشتغالهم به نرى التفاسير ذات ألوان متنوعة ، فمنها ما يغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان إعراب الكلمات وبنائها ، ومنها ما يغلب عليه نواحي البلاغة والإيجاز ، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام وهكذا .

وحدة السورة

وقد تعرض الأقدمون لبيان الأهداف والمقاصد لسور القرآن ، ومنهم النجفوري بادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ في كتابه القيم « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ، وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار .

وفي مطلع القرن العشرين ظهر تفسير المنار للإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا . وقد كان الإمام محمد عبده مصلحا ومجتهدا وإماما من أئمة التفسير والفتوى وكانت له في التفسير نظرات صائبة ومنهج قويم يعتمد على نسخة أسس (١) ، من بينها :

(١) منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ، تأليف عبد الله محمود شعالة .

الوحدة الموضوعية للسورة ، وأن فكرة السورة يجب أن تكون أساسا
في فهم آياتها ، والموضوع يجب أن يكون أساسا في فهم الآيات التي
نزلت فيه .

وتأثر بالإمام تليمذه النجيب السيد رشيد رضا ، فكان يتبع تفسير كل
سورة بملخص لأهم موضوعاتها وقضاياها .

وتأثر بتفسير المنار أساتذة التفسير في العصر الحديث مثل الأستاذ محمد
مصطفى المراغي ، والأستاذ محمود شلتوت وله تفسير للعشرة أجزاء الأولى
من القرآن حاول فيه أن يوضح أهداف السور وأغراضها .

وللمرحوم الأستاذ سيد قطب جهد بارز ونظر نافذ في الإحاطة بأفكار
كل سورة وأهدافها ، يقدم فكرة عامة عن السورة بين يدي تفسيرها ،
يستطيع القارئ من خلاله أن يرى وحدة عضوية وفكرية للسورة ، وكان
أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز يفتح عيوننا أثناء الدراسة
الجامعية على موضوع السورة وفكرتها العامة قبل تفسيرها ، ويرى
« أن هذه النقطة غفل عنها جميع المستشرقين ، فضلا عن بعض علماء
المسلمين » ، فعندما لاحظ بعضهم بنظرته السطحية عدم توافر التجانس والربط
الطبيعي بين المواد التي تناولها السور ، لم ير القرآن إلا أشتاتا من الأفكار
المتنوعة ، عولجت بطريقة غير منظمة ، بينما رأى البعض الآخر أن علة هذه
التشتيت المزعوم ترجع إلى الحاجة لتخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب .
وهناك فريق آخر لم ير في الوحدة الأدبية لكل سورة - وهو ما لا يستحيل
نقله في أية ترجمة - إلا نوعا من التعويض لهذا النقص الجوهرى في وحدة
المعنى ، وفريق آخر يضم غالبية المستشرقين ، رأى أن هذا العيب يرجع
إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن ، وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه
ورتبوها على شكل سور . ويعقب الدكتور دراز « بأن هذه التفسيرات لا تلبس
صاحلة للأخذ بها ، إذ من المتفق عليه أن السور كانت بالشكل التي نقرؤها به
اليوم ، وبتركيبها الحالي منذ حياة الرسول ..

» ولقد افصح أن هناك تحديات حقيقية واضحة ومحددة للسورة يتكون

من ديباجة وموضوع وخاتمة : ولا جدال في أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثيل على الإطلاق في أي كتاب في الأدب أو في أي مجال آخر، يمكن أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو، وإذا كانت السور القرآنية من نتائج ظروف النزول ، تكون وحدتها المنطقية والأدبية معجزة المعجزات (١) .

ويخطيء من يظن أن وحدة الموضوع للسورة تعني أن السورة موضوع مستقل أو فصل في باب ، أو بحث في كتاب .

وهناك فارق كبير بين طريقة القرآن ، وطريقة التأليف عند الناس في القرآن كتاب هداية يسلك إلى النفوس طريقها ويتخولها بالموعظة بين الحين والآخر . ولكنه جعل لكل سورة موضوعا غالبا عليها ، ومهات بارزة فيها .

يقول أستاذي المرحوم الشيخ محمد المدني في مقدمة كتابه « المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء » .

« إن في كل سورة من سور القرآن الكريم روحا يسرى في آياتها ، ويسيطر على مباحثها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها :

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بوضع الآيات التي تنزل عليه منجمة في مواضعها من السور ، وأن ذلك كان من وحي يتلقاه عليه الصلاة والسلام من جبريل ، عن الله رب العالمين ، فهل كان ذلك إلا لغني ؟ وهل يأمر الله تعالى بوضع هذه الآيات هنا ، وهذه الآيات هناك إلا لحكمة ؟

(١) دخل إلى القرآن الكريم تأليف الدكتور محمد عبد الله دراز ، نشر دار القلم الكويت . وانظر تعريف الأستاذ محمد عبد الله السمان بالكتاب تحت عنوان : المكتبة الإسلامية ، مجلة التضامن الإسلامي التي تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة ، عدد يناير الثاني سنة ١٩٩٥ هـ - يوليو ١٩٧٥ م ، وبخاصة تعريفه بالفصل الثالث من الباب الثاني بالكتاب . وأيضا تفسير سورة النساء ، محاضرات لطلبة نيسانس دارالعلوم للدكتور دراز سنة ١٩٥٥ هـ - مخطوط .

وقد حنى المفسرون بكثير من الجوانب المتصلة بدراسة القرآن الكريم .

وقلّ فيهم من عنى بهذا الجانب الذى هو دراسة الروح العام لكل سورة والغرض الذى تهدف إليه :

« ومن الواضح أن سور القرآن مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص ، وروح يسرى فى نواحيها ، لا يمكن أن تعد فصولا أو أبوابا مقسمة منسقة على نمط التأليف التى يؤلفها الناس ، ومن أراد أن يفهمها على ذلك ، أو أن يفسرها على ذلك ، فإنه يكون متكلفا مشتتا محاولا أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص ، الذى هو التنقل والمراوحة والتخول ، وبث العظة فى تضاعيف القول ، والوقوف عند العبرة لتجليتها ، والتوجه إلى مغزاها ، وانتهاز الفرصة أيضا واتت لدعم العقيدة السليمة والمبادئ القويمة .

إن هناك فرقا بين من يحاول أن يفعل ذلك ، ومن يحاول أن يجعل القارئ يلمح الروح السارى ، والبيئة المعنوية الخاصة التى تجول فيها السورة ، دون أن يخرج التزليل الحكيم عن سنته وأسلوبه الذى انفرد به ، وكان من أهم نواحي الإعجاز فيه .

« وهذه الطريقة فى الدراسة القرآنية أجدى على الناس من تتبع الآيات آية بعد آية بحسب ورودها فى السورة ، ومن تتبع جمل كل آية ، وكلمات كل آية . وأحيانا حروف كل آية أيضا ، ليلرس كل ذلك على نحو من التفصيل أو الإجمال ، أو على نحو من التطويل أو الإيجاز ، فإن ذلك لا يعطى المنظر العام ولا يساعد على تصور عظمة الصورة مجتمعة الملامح ، منضمة التقاسيم ، كاملة الوضع (١) .



إن هذه النظرة الكاملة للصورة تبرز شخصيتها وتجعل القارئ يتعرف على فكرتها العامة وتتبع موضوعاتها داخل الإطار العام المميز لها عن غيرها .

(١) محمد محمد المدنى : المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء ، ص ٥ - ٧

فقد ادعى بعض المفرضين أن القرآن تحليط غير مؤتلف أشبه بقول القائل
عسل خمر لبن : : إلخ .

ولانريد أن ندافع عن القرآن أو نلبسه بحلة ليست له . فيجاء القرآن
وبجلاله خالد خلود الدهر ، وإنما نريد أن نتعرف على القرآن كما هو ،
وأن نقدم كل سورة من سور القرآن للقارىء تهادى في صورتها الواقعية
وروثها الحقيقي ، وشتان بين صورة متكاملة متجانسة ، وبين أجزاء
متفككة مقطعة لهذه الصورة .

وكما يقول الإمام أبو حامد الغزالي : شتان بين من يقدم عبدا هدية
لإنسان ، وبين من يقطع أوصاله ليقدمها هدية ، مع أن العبد في الواقع
هو مجموع هذه الأجزاء .

يقول الغزالي : الصلاة المشتملة على الركوع والسجود وسائر الأركان
بدون حضور القلب أشبه بأجزاء العبد حين تقدم هدية . أما الصلاة المشتملة
على الحشوع وحضور القلب فهي أشبه بالعبد الكامل حين يقدم هدية فيها
الروح والحياة والجمال .

وشتان بين من يصف قصرأ شامخا ببيان نوع أحجاره ولبناته وأخشابه
وحديدته ومقايض أبوابه . وبين من ينظر إلى جملة كبيت كامل
أو كصرح عظيم :

إن هذه الدراسة تحاول أن تقدم كل سورة من سور القرآن في صورتها
للعمامة وأفكارها الرئيسية ، وتحاول أن تكتشف الروح الذي يسرى بين
آياتها وبسيط على مبادئها وتوجيهاتها .

وإذكر بالعرفان جهدا مشكورا في هذا الميدان الأستاذى الدكتور
مصطفى زينة رئيس قسم الشريعة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة . فقد فسر لنا
سورة الأنفال أثناء دراستنا بالكلية ، فكانت دراسة رائدة في هذا الميدان .
قدم لنا فيها أهداف السورة وأهم الموضوعات التي عالجتها ، وإتبع ذلك
برعاية خاصة ، وب نظرة ثقافية ، وبصورة نافذة بأهداف الشريعة ، وحظيت

بإشرافه على رسالتي للدكتوراه وخصني بنصيب وافر من العناية والتوجيه،
متعاً الله بالصحة والعافية وجراه خير الجزاء .

أما بعد ، فالكتاب الذي نشاهده الآن ليس تفسيراً حرفياً لآيات القرآن
الكريم ، ولكنه ضوء يلقي على أهدان السور ومقاصدها ، ويوضح بعض
الأحكام والآداب التي اشتملت عليها .

وآمل أن يستفيد منه عشاق القرآن والدارسون له ومن يحاولون حفظه
أو فهمه ، فإن قراءته ستيسر عليهم هذه المهمة ، فمن قرأ تعريفاً بسورة
من السور ثم حاول حفظها أو فهمها كان أكثر إحساساً بمعناها ، وأكثر
إدراكاً للروح العامة السارية بين آياتها ، فيسهل الحفظ لمن أراد الحفظ ،
وتسهل الإحاطة بالمعنى الإجمالي للآيات لمن راد القراءة أو الفهم .

لقد وعد الله بحفظ كتابه ، وتيسير قراءته وفهمه ، لمن حاول ذلك
مخلصاً قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ القمر ١٧ .

ولا أدعى أن هذه محاولة مبتكرة ، وإنما أعترف أنها استفادت
من الجهود المباركة التي بذلت في هذا الشأن قديماً وحديثاً . وما توفيقى
إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . عبد الله محمود شحاته

أدروس من سورة البقرة

سورة البقرة أطول سورة في القرآن الكريم فقد استغرقت جزءين ونصف جزء ، وعدد أجزاء القرآن جميعه ثلاثون جزءا . ولذلك كان الرجل إذا حفظ سورة البقرة عظم في أعين المسلمين . وهي أول سورة نزلت بالمدينة ، وعدد آياتها (٢٨٦) آية وعدد كلماتها (٦١٢١) كلمة .

قصة التسمية

سميت سورة البقرة بهذا الاسم لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت في بني إسرائيل على عهد موسى عليه السلام وكان للبقرة وهي الحيوان المعروف - الذي اتخذ بنو إسرائيل من نوعه لها في وقت ما يعبدونه من دون الله - شأن إلهي عجيب في هذه الحادثة ، وقعت الخيانة وقتل القتييل واختلف أهل الحى الذى بينهم الخيانة - في القاتل من هو ؟ وأخذ كل يدفع الخيانة عن نفسه ويتهم بها غيره ، وفيهم من يعلم عين الخائن ويكتم أمره .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فآذَارْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ

تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة ٧٢ .

وتراجع القوم إلى موسى عليه السلام ليحكم في هذه الخيانة التي

خفي مرتكبها .

سأل موسى ربه ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتييل بلسانها ، فيحيا ، فيخبر بقاتله ، ولما طبع عليه بنو إسرائيل من العناد في تنفيذ الأوامر فقد وقعوا كالمساخرين أو الهازئين من الأمر بلذبح البقرة في هذا المقام حتى

لقد قالوا لموسى : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ؟ .

وما كان لنبي أن يسخر أو يهزأ ، ولكنها القلوب الملتوية تنصرف
عن الحق وتماند في قبوله ، فسألوه عن البقرة :

﴿ قَالُوا آذُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ ﴾ ﴿ مَا لَوْنُهَا ﴾ ؟ ..

وأكثروا من السؤال وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وسألوا موسى
ما هذه البقرة أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان ، أم هي خلق آخر تفرد
بجزية ، واختص بإعجاز ؟ فأوضح الله سبحانه وبين أنها بقرة لا مسنة
ولا قتيبة بل هي وسط بين ذلك ، فليفعلوا ما يؤمرون .

وبين الله لهم أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقال :

﴿ إِنَّهَا بَقْرَةٌ - لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ

لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ .

وأخيرا وبعد حيرة ومشقة عثروا عليها .

كانت البقرة ملكا لشيخ كبير فقير وكان عبدا صالحا زاهدا فلم يترك
من المال سوى بقرة واحدة كان يأخذها إلى المرعى ثم يتوجه إلى بارثه بقلب
خالص ونفس ثابتة فيقول : اللهم انى استودعتكها لابنى حتى يكبر ، وما زال
الرجل يترقرق في صدره هذا الأمل القوى بنور الله حتى مات ، وبقيت البقرة
لابنه اليتيم ، واستمر اليتيم يرعى البقرة ، يحلوه شعاع من الأمل ورثه من
الصالحات الباقيات لأبيه .

ولما أمر الله نبي إسرائيل بذبح البقرة وشددوا فشدد عليهم في صفاتها واونها
وسنها ، ووجد القوم أن هذه الصفات لا تنطبق إلا على بقرة هذا اليتيم
الذى يارك الله فيها ، فاشتروها منه بمال وفير وذبحوها وضربت جثة القتل
ببعض أعضاء تلك البقرة فتمت إرادة الله وحدثت المعجزة وأحيا الله القليل
وتطلق باسم قائله . قال تعالى :

﴿ قَتَلْنَا أَسْرِيَّةً وَبَعَثْنَا فِي بِئْرِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَنُوحًا وَقَدْ أَلْمَأَزَمُواهُم مَّا كَانُوا هَادِينَ ﴿ ٧٣ ﴾

لَكُمْ تَحْتِلُونَ ﴾ البقرة ٧٣ .

ثم قست قلوب اليهود بعد أن شاهدوا هذه المعجزة فصارت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، وبدل أن يهتدوا بهذه الآية إلى طريق الإيمان فكسروا عن الحق وساروا في الضلال وقتلوا الأنبياء ، وحرفوا كلام الله ودبروا الفتن والدسائس . وقد حذرنا الله من كيدهم وأمرنا ألا نسمع إلى فتنهم ونفرقتهم وأن نأخذ الحذر منهم وأن نعد العدة لمقاومتهم واستخلاص الحقوق المنتصبة من أيديهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فيختبئ أحدكم وراء الحجر فيقول الحجر يا عبد الله هذا يهودى ورأى فاقتله » .

وفي قصة البقرة عبرة للمتشددين فإن الله أمر بني إسرائيل بأن يلجأوا بقرة فلو بادروا إلى ذبح أية بقرة لأجزأتهم ، ولكنهم تشددوا في تعرف صفاتها فكانوا كلما سألوا سؤالاً زيدوا تشديداً حتى صارت البقرة نادرة .
وفي الأثر : (لا تكونوا كبنى إسرائيل شددوا فشدد عليهم) .
وفي القرآن : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الأعراف ٩٤٤ .

الأهداف العامة لسورة البقرة

سورة البقرة من أجمع سور القرآن الكريم ، وقد اشتملت على الأهداف الآتية :

- ١ - بيان أصول العقيدة وذكر أدلة التوحيد ومبدأ خلق الإنسان .
- ٢ - بيان أصناف الخلائق أمام هداية القرآن ، وذكرت أنهم أصناف ثلاثة المؤمنون والكافرون والمنافقون .
- ٣ - تعرضت السورة لتاريخ اليهود الطويل ، وناقشتهم في عقيدتهم ، وذكرتهم بنعم الله على أسلافهم وبما أصاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين وارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، وقرأ في ذلك قوله تعالى في السورة :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا
بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ البقرة - ٤٠ .

إلى آخر آية البر في منتصف السورة تقريبا وهي :

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾
البقرة ١٧٧ .

وهذا الغرض من أغراض السورة استدعاه جوار المسلمين لليهود في المدينة .
٤ - والنصف الأخير من سورة البقرة اشتمل على التشريع الإسلامي
الذي اقتضاه تكون المسلمين جماعة متميزة عن غيرها في عبادتها ومعاملاتها
وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص في القتل العمد ، وذكرت الصيام
والوصية والاعتكاف ، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل وذكرت الأهلة
وأنها جعلت ليعتمد الثامن عليها في أوقات العبادة والزراعة وغيرها وذكرت الحج
والعمرة وذكرت القتال وسببه الذي يدعو إليه وغايته التي ينتهي إليها . وذكرت
الخمر والميسر والبتامى ، وحكم مصاهرة المشركين وذكرت حيض النساء
والتطهر منه والطلاق والعدة والخلع والرضاع ، وذكرت الأيمان وكفارة
الحنث فيها ، وذكرت الإنفاق في سبيل الله ، وذكرت البيع والربا ، وذكرت
طرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن . ويبدأ هذا السياق
من قوله تعالى بعد آية البر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾

البقرة ١٧٨ .

إلى ما قبل آخر السورة . وكان يتخلل كل ذلك - على طريقة القرآن -
ما يلهو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام وعدم الاعتداء فيها ، من قصص
يوسف وعبدة ، ولإرشاد إلى سنن الله في الكون والجماعات ، ثم تحم سورة
البقرة بيان حقيقة المؤمنين على نحو ما بدأت في بيان أوصاف المؤمنين .

ويجد في آخر السورة قوله تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا
رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا
وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ
مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة ٢٨٦ .

ومن ثم يتناسق البدء والختام وتجميع موضوعات السورة وأهدافها ،
ويؤكد آخرها أولها وتصير السورة كتلة واحدة، ينتفع المسلمون بها في تنظيم
أحوالهم في العبادات والمعاملات وهي دعامة من دعائم الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسوله واليوم الآخر قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن ١١ .

أصناف الخلق أمام دعوة الإسلام

جهر عليه الصلاة والسلام بدعوته في مكة ، ولما يش من انتشار الدعوة
بمكة هاجر إلى المدينة ؛ وهناك بنى مسجده واتخذه مقرا لنشر الدعوة ، وقد آمن
به أهل المدينة ولقبوا بالأنصار ، وأصبحت للإسلام قوة جديدة ولم يبق
بيت من بيوت المدينة إلا ودخله الإسلام ، ولما كانت سورة البقرة أول سورة
نزلت بالمدينة ، وقد استمر نزول آياتها بضع سنين ، فقد عنيت بذكر أصناف
الناس أمام دعوة الإسلام فقسمتهم إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : المؤمنون ، وقد وصفهم الله بخمس صفات هي : الإيمان
بالغيب ، وإقامة الصلاة ، وإخراج الزكاة والصدقات : والإيمان بالكتب
والرسل واليقين الكامل بالحساب والجزاء .

وهم جهده الصفات أهل لهداية الله ، وللإفلاح والرشاد :

الصف الثاني : الكافرون ، وقد وصفهم القرآن بأنهم فقدوا الاستعداد لقبول الحق بسبب فساد فطرتهم ، وإحكام الغشاوة على قلوبهم ، وانسداد مسالك الفهم والإدراك في وجدانهم ، وقد ساهم القرآن بالكافرين والفاسقين والخاسرين والضالين .

هؤلاء الكفار قد سلعت عليهم منافذ الخير وسبل الهداية ، وأعلنوا الكفر والعناد .

وهذان الصنفان كثيرا ما تحدث القرآن عنهما في مكيه ومدنيه ، فإن الدعوة الإسلامية لم تخل في مرحلة من مراحلها عن مؤمن بها ، مصدق لها ، وعن كافر بها جاحد لآياتها .

الصف الثالث : المنافقون ، ووجود هذه الطائفة نشأ بعد الهجرة إلى المدينة ودخول الأنصار في الإسلام وظهور قوة المسلمين وبخاصة بعد غزوة بدر فاضطر نفر من الكبراء أن يتظاهروا باعتراف الدين الجديد ، ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام إلى المدينة . وقد وصفهم سورة البقرة بالبنفاق والتلون وألفت عليهم الأضواء ، وذكر المنافقون في سورة التوبة بصفات متعددة ، منها التخلف عن الجهاد والتظاهر بالإيمان ، والتخلي عن تبعاته وفرائضه ، كما ذكر المنافقون في سورة باسمهم هي سورة « المنافقون » . ولا تكاد نجد سورة مدنية تخلو من ذكرهم ، ولفت الأنظار إلى أوصافهم ، وتحذير المؤمنين من كيدهم وخداعهم .

اليهود في المدينة

في ثلثي الحملة على المنافقين - الذين في قلوبهم مرض - نجد إشارة إلى ضلالتهم ، والظاهر من سياق سورة البقرة ، ومن سياق الأحاديث في السيرة أنها تعني لليهود الذين تضمنت السورة حملات شديدة عليهم ، أما خصمهم أمام الإسلام في المدينة فيمكن تلخيصها فيما يأتي :

كان لليهود مركز ممتاز في المدينة ، بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب - الأوس والخزرج - وكان اليهود يثرون الفرقة والخصام بين الأوس والخزرج ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار ، وقضى على الخلاف والنزاع بين الأوس والخزرج ، بسبب أخوة الإسلام، ووحدة المسلمين .

وقد اشتد حقد اليهود وحسدهم للنبي ، فقد حسدوه مرتين : مرة لأن الله اختاره رسولا من ولد اسماعيل ، وحسدوه لما لقيه من نجاح منير شامل في محيط المدينة .

على أنه كان هناك سبب آخر لعداوة اليهود للإسلام منذ الأيام الأولى ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني الذي كانوا يزاوون فيه القيادة العقلية والتجارة الراجحة والربا المضعف ، هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة ويندوبوا في المجتمع الإسلامي ، وهما أمران - في تقديرهم - أحلاهما مر .

لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية موقف التكذيب والإنكار ، رغم يقينهم بصدقها .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة ٨٩ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة ١٠٩ .

وقد استغرق الجزء الأول من سورة البقرة دعوة اليهود للنحول في دين الله مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والنواهيهم وتلبيسهم منذ أيام موسى عليه السلام .

ومن خلال سورة البقرة ترسم صورة واضحة لاستقبال نبي إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه - لقد كانوا أول كافر به . وكانوا يلبسون الحق بالباطل ، وكانوا يأمرون الناس بالبر - وهو الإيمان - وينسون أنفسهم ، وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حلل بعضهم بعضا من اطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبي وصحة رسالته . وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارا، وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم - كما كان النصارى يدعون هذا أيضا - وكانوا يعلنون عندهم لجبريل - عليه السلام - بما أنه هو الذي حمل الوحي إلى محمد دونهم . . . وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء . وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك في صحة الأوامر النبوية ومجئها من عند الله - كما فعلوا عند تحويل القبلة - وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين ، كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين .

ومن ثم تضمنت السورة حملة قوية على أفاعيلهم هذه، وتذكرهم بمواقفهم المماثلة - من نبيهم موسى عليه السلام - ومن شرائعهم وأنبياهم على مدار أجيالهم ، وتخطيهم في هذا كأنهم جيل واحد وطبيعة واحدة لا تغير ولا تهبل .

وتنتهي هذه الحملة بتوبيخ المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم ، وهم على هذه الجبهة المتلوية ، كما تنتهي بفصل الخطاب في دعواتهم وأنبيائهم على نبيهم ورثة إبراهيم ، وتبين أن وريثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمشون على سنته ، ويتقيدون بعقده مع ربه، وأن وريثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين به ، بعدما انحرف اليهود وبدلوا وتكلموا عن حمل أمانة العقيدة ، والخلافة في الأرض بمنهج الله ، ونهض بهذا الأمر محمد والذين معه ، وأن هذا كان استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وهما يرفعان القواعد من البيت :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ،
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا
وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ البقرة ١٢٨ و ١٢٩ -



دروس من سورة آل عمران

سورة آل عمران مدنيه كلها وهي مائة آية باتفاق . ومن سماتها البارزة وصف غزوة أحد وتسجيل أحداثها وتقديم الدروس والعبر للمسلمين من خلالها في قرابة خمسين آية (من الآية ١٢١ إلى الآية ١٦٨) وفي أعقاب غزوة أحد بيان فضل الشهادة ومترلة الشهداء عند ربهم ، وحديث عن غزوة حمرام الأسد ، ودعوة إلى الصبر والثبات . وفي ختام السورة نجد لوحة رائعة من دعاء المؤمنين واستجابة الله رب العالمين .

(١)

قصة التسمية

جاء ذكر عمران في هذه السورة مرتين في آيتين متتاليتين هما قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . خُرِيَتْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ حَمْرًا رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ آل عمران ٣٣ - ٣٥ .

وقد ذهب فريق من المفسرين إلى أن آل عمران الذي سميت السورة باسمه هو عمران أبو موسى . والراجح أنه هو عمران والد مريم وكان بين الصيرانيين فيما يقول للرواة أمد طول .

وتحسب إذا تعجنا أسماء السور في القرآن الكريم نجدنا تشير إلى أهم

وأغرب ما اشتملت عليه السورة ، فسورة البقرة سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أمر بنو إسرائيل بذبحها ، وكان ذلك سيلا لمعرفة الخاني في حادثة قتل لم يعرف مرتكبها . وسورة المائدة سميت بهذا الاسم لقصة المائدة التي طلب الحواريون إنزالها من السماء . وسورة النساء سميت بذلك لأن أهم ما عرضت له هو الأحكام التي أراد الله بها تنظيم أحوال النساء وحفظ حقوقهن وعدم الإضرار بهن وهكذا : وسورة الأنعام تعرضت للذكر الأنعام وأنواعها من الإبل والبقرة والغنم ، وسورة الأعراف تعرضت للذكر الأعراف ، وهو حاجز مرتفع بين الجنة والنار عليه رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم . وسورة الأنفال ، تعرضت للذكر الأنفال وهي الغنائم وطريقة توزيعها . وسورة التوبة ، تعرضت للذكر توبة الله على المؤمنين وعلى الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ثم إناب عليهم ليتوبوا .

وسورة يونس ، تعرضت للذكر نبي الله يونس . وإيمان قريته كلها به .

وسورة هود ، تعرضت للذكر نبي الله هود ورسالته إلى قومه في

قوله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ

إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

وتتابعت السورة تصف رسالات السماء إلى عمود قوم صالح وإلى مدين

قوم شعيب ورسالة إبراهيم ولوط وموسى إلى قومهم .

وسورة يوسف ، دارت كلها تقريبا حول قصة يوسف عليه السلام من

بدايتها إلى نهايتها .

وهكذا نجد أن الأساس العام في تسمية السورة هو أهم شيء ذكر فيها

أو أغرب شيء تحدثت عنه ، وإذا رجعنا إلى تسمية السورة الثالثة (١) من القرآن

(١) السورة الأولى هي سورة الفاتحة والسورة الثانية هي سورة البقرة .

بِسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَرَاعَيْنَا أَنَّنَا إِذَا قَرَأْنَا السُّورَةَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا غَرِيبًا أَوْ هَامًا يَتَعَلَّقُ بِمَخْصُوصِ مُوسَى وَهَارُونَ وَلَكِنْ أَبْرَزَ مَا فِيهَا وَأَخْرَبَ شَيْئُونَهَا هُوَ مَا عَنِيَتْ بِتَفْصِيلِهِ مِنْ شَأْنِ عِيسَى وَأُمِّهِ . وَهَذَا يَدْعُونَا إِلَى مُوَافَقَةِ رَأْيِ مَنْ رَأَى مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ عِمْرَانَ الَّذِي سَمِيَتْ السُّورَةُ بِآلِهِ هُوَ عِمْرَانُ أَبِي مَرْيَمَ لَا أَبُو مُوسَى وَهَارُونَ . فَالسُّورَةُ تَذَكُرُ طَبَقَاتٍ مِنْ إِصْطِفَاءِ اللَّهِ مِنْ آدَمَ وَنُوحَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ لَتَبِينَنَّ لِلْقَوْمِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّ إِصْطِفَاءَ اللَّهِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ عِيسَى وَأُمُّهُ، لَيْسَ إِلَّا كَإِصْطِفَائِهِ لِغَيْرِهِمَا مِمَّنْ إِصْطَفَى وَأَنَّ مَا ظَهَرَ رَحَى يَدِ عِيسَى مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ الَّتِي يَتَّخِذُونَهَا دَلِيلًا عَلَى أَلُوْهِيَّتِهِ أَوْ نُبُوْتِهِ أَوْ حُلُولِ اللَّهِ فِيهِ ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَثَرًا مِنْ آثَارِ التَّكْرِيمِ الَّذِي جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِيمَنْ يَصْطَفِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وَيَقْوَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ عَقِبَ هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانًا لِإِصْطِفَاءِ آلِ عِمْرَانَ :

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا . ﴾
وَأَنَّهُ يَقُولُ فِي جَانِبِ مَرْيَمَ :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ آلِ عِمْرَانَ ٤٢ .

وَهَكَذَا نَجِدُ أَنَّ إِصْطِفَاءَ آلِ عِمْرَانَ ذَكَرَ أَوَّلًا بِجَمَلٍ ضَمَّنَ مِنْ إِصْطِفَائِهِ اللَّهُ، ثُمَّ بَيْنَ إِصْطِفَاءِ مَرْيَمَ أُمِّ عِيسَى ، وَمِنْ هَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ عِمْرَانَ الَّذِي سَمِيَتْ السُّورَةُ بِآلِهِ هُوَ أَبُو مَرْيَمَ لَا أَبُو مُوسَى وَهَارُونَ .

(٢)

مقاصد سورة آل عمران

سورة آل عمران مدنية وليست من أوائل منازل بالمدينة ، ولكنها نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها ، نقلت فيها عليهم أحوال من النصر والفرجة في غزوات متعددة ، واخطروا على صورة واضحة بأهل الكتاب من

يهود ونصارى ، وجرى بينهم كثير من الحجاج والنقاشى فيما يحصل بالدعوة
المحمدية وفروعها .

وقد ذكر فيها غزوات بدر وأحد وحمراء الأسد وبدر الأخيرة . وكانت
هذه فى شعبان من السنة الرابعة . وقد نزلت سورة آل عمران بعد سورة
الأنفال التى تكفلت بالكلام على بدر ونزلت بعدها سورة الأحزاب التى
حصلت فى آخر السنة الخامسة .

العناية بأمرين عظيمين :

ونحن إذ نقرأ السورة نجد أنها عنيت بأمرين عظيمين :
أحدهما تقرير الحق فى قضية العالم الكبرى وهى مسألة الألوهية وإنزال
الكتب وما يتعلق بها من أمر الوحي والرسالة ، وبيان وحدة الدين عند الله .
والثانى تقرير العلة التى من أجلها ينصرف الناس فى كل زمان ومكان عن
التوجه إلى معرفة الحق والعمل على إدراكه والتمسك به (١) .

الأمر الأول : قضية الألوهية وتقرير الحق فيها :

ولقد بدأت السورة بتقرير الأمر الأول فذكرت وحدانية الله ، وأنه وحده هو
الحى الذى لا يدركه الفناء ، القيوم الذى له الهيمنة والتدبير والقيام على شئون
الخلق بالإيجاد والتربية الجسمية والعقلية والإعزاز والإذلال . وقررت فى
سبيل ذلك علمه المحيط وقلوبه النافذة القاهرة :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ
وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ آل عمران ٢ - ٤ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ

(١) الظهور رقم ٤ ، فيما يأتى .

الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿

آل عمران ٥ و ٦ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران ٢٦ و ٢٧ .

تقرر السورة هذا في كثير من أمثال هذه الآيات ثم تقرر اصطفاة الله لبعض خلقه :

﴿ رَسَلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ .

يعرفون مهمتهم التي كلفهم الله إياها وهي دعوة الخلق إلى الحق وأنهم أحق وأحكم من أن يقولوا للناس اتخذونا آلهة من دون الله :

﴿ مَا كَانَ لِيَشِيرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ آل عمران ٧٩ .

وقد أخذ الله العهد على الرسل أن يصدق بعضهم بعضاً في الحق ودعوة الناس إليه ، وأن يصدق السابق منهم اللاحق . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَلِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَافْتَبِهْتُمْ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ آل عمران ٨١ .

هنا هو العهد الذي حفظه عيسى عليه السلام وتوفى عليه ، وسبب به

ربه يوم القيامة ، وسيبرأ المسيح عليه السلام ممن هجده أو اتخذه إلهًا .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ
لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ المائدة ١١٦ و ١١٧ .

(٣)

وحدة الدين عند الله

أبرزت سورة آل عمران وحدة الدين عند الله وكررت هذه الحقيقة على
لسان رسله جميعا :

﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ . . ﴾ آل عمران ٣ .
﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران ٨٤ .
وتقرر أن هذا هو الدين الذي جاء من عند الله وأن :

﴿ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران ٨٥ .

ثم تنجس السورة إلى الدين غلبت عليهم شقوتهم فحاربوا الله في دينه
وأعرضوا عن رسله وأخذوا يناوئون الحق على وضوحه فتذكر كثيرا من أساليب
ضلالهم وألوان شبههم التي كانوا يعززون بها مراكزهم ويحاولون بها قنط
المؤمنين عن دينهم حسدا وبغيا لا طلبا للحق ولا التماسا للهدى .

المسرفون في شأن عيسى

وقد خصت السورة جماعة المسرفين في شأن عيسى الزاعمين له من ألوهية أو بنوة أو حلول فذكرت السورة أن عيسى خلق بقدره الله ليكون معجزة للبشرية ودليلا على تفرد الله بالألوهية فقد خلق الله آدم بدون أب ولا أم ثم خلق حواء من أب دون أم ثم خلق عيسى من أم دون أب . قال تعالى :

﴿ إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران ٥٩ .

فظهر الخوارق والمعجزات أمر من سنة الله في خلقه فقد خلق الله يحيى لذكريا على كبر من أبيه ويأس من أمه وبشرت الملائكة زكريا بيحيى وتعجب زكريا من هذه البشارة مع حالته فرده الله إلى مشيئته

﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ آل عمران ٤٠ .

وهكذا كان شأن عيسى وجد من غير أب بمشيئة الله ، وبشرت الملائكة به أمه بأمر الله ، وعجبت مريم لهذه البشارة .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ .

فردها الله إلى مشيئته :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران ٤٧ .

ثم تعرض السورة بعد هذا إلى أن الخوارق التي ظهرت على يد عيسى لم تكن إلا من سنة الله في تأييد رسله بالمعجزات الدالة على أنهم عباد الله علمهم الله الكتاب والحكمة وإن الله أرسله إلى نبي إسرائيل بآيات من ربه : وعلى لسان عيسى يقول القرآن الكريم :

﴿ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَعْمَىٰ وَالْأَبْرَصَ وَأُنحِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ

وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلٍ لَكُمْ
 بِبَعْضِ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ آل عمران ٤٩-٥١ .

بيان أسباب انصراف الناس عن الحق

المقصد الثاني من مقاصد سورة آل عمران : بيان أسباب انصراف
 الناس عن الحق وشرح أسباب العلة التي تستحوذ على عقول الناس وتستولي
 على قلوبهم فتصرفهم عن الاستماع للحق والالتفات إليه .

وقد بينت السورة أن هذه العلة هي غرور الناس بما لهم من أموال
 وأولاد وجاه وسلطان ، فقد كانوا يتصورون أن في إيمانهم بصاحب
 الدعوة الحسيدة زلزلة لما لهم من جاه وسلطان ، وأنهم في غنى عن هذه
 الدعوة بما لهم من الأموال والأولاد ، ويظنون أن ذلك كان لهم عن
 استحقاق ذاتي وأنه دائم لا يزول ، ولا يؤثر فيه إيمان ولا كفر ، وكثيراً
 ما حدثنا القرآن من مثل هذا الوهم الفاسد الذي خلد كثيراً من الناس
 فأضلهم وأعمى أبصارهم ، قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ
 أَبَدًا ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا
 مُنْقَلَبًا ﴾ الكهف ٣٥ ، ٣٦ .

وقال سبحانه ،

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ
 الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْمُضْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ
 لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ

الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ، قَالَ إِنَّمَا
أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ وَنَ
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ
الْمُجْرِمُونَ ﴿ القصص ٧٦ - ٧٨ .

وعلى هذا الأساس الذي أرشدنا الله إليه في كثير من آيات كتابه أخذت
سورة آل عمران تضرب على هذه العلة التي يتوارثها الجبارون ، وترشد
إلى أن حب المال والغرور بمتاع الحياة هما علة العطل وهما الخائل بين
الناس وبين الحياة الطيبة والإيمان الصادق . وفي ذلك تقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ آل عمران ١٠ .

وجدير بالمسرفين في كل زمان ومكان أن يلتفتوا إلى أن الأموال التي
يتفقونها في ذاتهم وشهواتهم ويسط سلطانهم على الناس بغير حق ،
لا بد أن تفسد عليهم في نهاية الأمر أخلاقهم وعقولهم وتهدم ما بنوا من
حضارات وما شيدوا من قصور .

وبينا تعرض السورة أثر الافتتان وسوء عاقبة الغرور بالأموال
والأولاد ، تراها تقرر الحق في شأن حب الناس للأموال ومظاهر هذه
الحياة ، وتقول إنه شيء قد فطروا عليه ، ولكنه ليس هو المقصد
الأسنى من هذه الحياة ، وإنما هو متاع وزينة - وهو في الوقت نفسه
وسيلة للحصول على المتاع الخالد في الحياة الخالدة . إذا أحسن استعماله ،
قال تعالى :

﴿ لِيُنذِرَ لِّلنَّاسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَابْنَيْنَ وَالْقَنَاطِيرِ
الْمُنْطَرَةِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالحَرْثِ
كَذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ جِنْدُ حَسَنِ الْعَاقِبِينَ . قُلْ أُولَئِكَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ
مِّنْ خَيْرٍ يَدْعُونَ ﴾ ﴿ القصص ٢٦ - ٢٨ .

مِنَ دَلِيكُمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿
آل عمران ١٤ ، ١٥ .

ثم تصف هؤلاء الذين اتقوا والذين لهم ذلك الجزاء بأنهم هم الذين
أدركوا الحق وأنفقوا ما آتاهم الله من مال ابتغاء مرضاة الله ، وصبروا
على ما أتاهم من بلايا وعن ورجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار
قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ ﴾ آل عمران ١٦ ، ١٧ .

(٥)

عظمة القرآن في تربية المؤمنين

تمثل سورة آل عمران قطاعاً حياً من حياة الجماعة المسلمة في المدينة
من بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة ، إلى ما بعد غزوة أحد
في السنة الثالثة وما أحاط بهذه الحياة من ملابس شتى في خلال هذه
الفترة الزمنية ، وفعل القرآن إلى جانب الأحداث في هذه الحياة وتفاعلها
معها في شتى الجوانب .

والتصوص من القوة والحيوية بحيث نستحضر صورة هذه الفترة
وصورة الحياة التي عاشتها الجماعة المسلمة وصورة الاشتباكات والملابسات
التي أحاطت بهذه الحياة .

ويقتزل القرآن ليواجه الكيد والدمن ويبطل القرية والشبهة ويثبت القلوب
والإقدام ، ويوجه الأرواح والأفكار ويعقب على الحادث ويرزق فيه

البيرة ، ويبقى التصور ويزيل عنه الأوهام ، ويحذر الجماعة المسلمة من
الغرر الغادر والكيد الماكر ويقود خطاها بين الأشواك والمصائد والأحاييل ؛
قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكن الصلور .

وإذا أعدنا قراءة سورة آل عمران وقصة بلر وأحد فيها ، أدر كنا أن
هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة في أي مكان وفي أي زمان ، وهو دستور
هذه الأمة في أي جيل ومن أي قبيل ، وهو حادى الطريق وهادى السبيل
على توالى القرون . : ذلك أنه خطاب الله الأخير لهذا الإنسان في جميع
الصلور .

في هذه الفترة التي نزلت فيها السورة كانت الجماعة المسلمة في المدينة
قد استقرت بعض الاستقرار في موطنها الجديد في مدينة الرسول - صلى الله عليه
وسلم - وكانت غزوة بلر الكبرى قد وقعت وكتب الله فيها النصر للمسلمين
على قريش ، وكان هذا النصر بظروفه التي تم فيها والملايسات التي أحاطت
به تيلو فيه رائعة المعجزة الحارقة . ومن ثم اضطر رجل كعبد الله بن أبي بن سلول
من عظام الخزرج أن يتزل عن كبرياته وكراهته لهذا الدين ولنبية الكريم ،
وأن يكبت حقه وحسبه للرسول الكريم ، وأن ينضم متافقا للجماعة المسلمة
وهو يقول ، « هنا أمر قد توجه » ، أي ظهرت له وجهة هو ماض فيها
لا يردده عنها زاد .

بذلك وجدت بيرة النفاق في المدينة أونت وأفرخت . وقد وجد هؤلاء
المنافقون حلقاء طيبين لهم في اليهود اللذين كانوا يجدون في أنفسهم من الحقد
على الإسلام والمسلمين مثل ما يجد المنافقون بل أشد .

ولذلك نزل القرآن الكريم بوضع حقيقة الألوهية وبين الحق في الرسالة
ثم يوضح العلة التي أعمت الناس عن رؤية الحق وهي علة الغرور بالمال والولد
والاستغلات . سورة آل عمران أكثر من نصفها في توضيح هذين المقصدين .
ثم توجهت السورة إلى جماعة اللومنين اللذين جمعهم الحق ، وتكونوا

على أساس الرحمة بالخلق لتحذيرهم من دساتر المنافقين وحيل المبطلين
وخداع اليهود والمشركين وتذكيرهم أن يظلوا إخوة متحسين بحبل الله متحدين
برباط الأخوة والمودة متضامنين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تلوم
لهم وحدتهم وتستقر دولتهم ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ آل عمران ١٠٠
وقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ آل عمران ١٠٢، ١٠٣.

القرآن كتاب الوجود والخلود

هذا القرآن هو كتاب الدعوة الإسلامية ، وهو روحها وباعثها ، وهو قوامها
وكيانها وهو حارسها وراعيا وهو بيانها وترجمانها وهو دستورها ومنهجها ،
وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة — كما يستمد منه الدعاة —
وسائل العمل ومناهج الحركة وزاد الطريق . . .

ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثل في حسنا
ونستحضر في تصورنا أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية ، ذات وجود
حقيقي ووجهت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمة ، ووجهت به حياة
إنسانية حقيقية في هذه الأرض وأديرت به معركة ضخمة في داخل النفس
البشرية وفي رقعة من الأرض كذلك ، معركة تموج بالتطورات
والانفعالات والاستجابة .



وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن ، طالما نحن نتلوه
أو نسمعه كأله مجرد تراويل تعبدية مهومة ، لا علاقة لها بواقعات الحياة
البشرية اليومية التي تواجه الإنسان والتي تواجه الأمة الإسلامية ، بينما هذه

الآيات نزلت لتواجه نفوسا ووقائع وأحداثا حية : ذات وجود واقعي حي ،
ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيها واقعيا حيا نشأ عنه
وجود ذو خصائص في حياة (الإنسان) بصمة عامة ، وفي حياة الأمة الإسلامية
بوجه خاص .

ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة
أمة معينة في فترة من فترات التاريخ محددة ، وخاض بهذه الأمة معركة
كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها ، ولكنه — مع هذا — يعارض
ويواجه ، ويملك أن يواجه الحياة الحاضرة ، وكأنما هو يتنزل للمحظة لمواجهة
الجماعة المسلمة في شئوننا الحارية ، وفي صراعها الراهن مع الأعداء من
حولها ، وفي معركتها كذلك في داخل الناس وفي عالم الضمير بنفس الحيوية
ونفس الواقعية التي كانت له هنالك يومذاك .

وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلا : هذا نجم قديم
(رجعي) يحسن أن نستبدل به نجم جديد (تقدمي) : أو أن هذا (الإنسان)
مخلوق قديم (رجعي) يحسن أن يستبدل به كائن آخر (تقدمي) كعمارة هذه
الأرض .

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك ، فأولى أن يكون هذا
هو الشأن في القرآن نخطاب الله الأخير للإنسان .

لقد حاش القرآن في ضمير الجماعة الإسلامية وأخذ بيدها خطوة خطوة
وسار معها وهي تتعثر وتنفض ، وتعيد وتستقيم وتضعف وتقاوم ، وتبالم
وتجمل وترقى في الدرج الصاعد في بطاء ومشقة وفي صبر وجهادة : تتجلى
فيها كل خصائص الإنسان وكل ضعف الإنسان وكل طاقات الإنسان :

لقد واكب القرآن النصر للمسلمين في بدر ، والهزيمة في أحد ، فكان
القرآن أسلحة في التربية للسلوكية أهلهم أن النصر من عند الله وأن سلاح

النصر هو الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والثقة بالله والاعتماد عليه ،
والعمل الدائب المخلص ، وفي أعقاب الهزيمة في أحد كان القرآن بأسو
الجراح ويمسح الآلام ويوضح أن الأيام دول وأن الحرب سجل يوم لك
ويوم عليك .

وكانت للقرآن دعوات متكررة في سورة آل عمران تحت على الصبر
والمصابرة والرباط والمرابطة وتبين شرف الشهادة وأجر المجاهدين وثواب
الصابرين ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ
لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ،
يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

آل عمران ١٦٩ - ١٧١

دروس من غزوة أحد

لقد عنيت سورة آل عمران بمقصدتين عظيمين استغرقتا نصفها الأول ،
هما الصديق في الإيمان ، وعدم الاغترار بزخارف الحياة . وفي النصف
الثاني من هذه السورة نجد دروسا عملية عن أسرار النصر في بدر والهزيمة
في أحد .

قلنت السورة نظر المسلمين إلى واقعة بدر وكيف انتصروا فيها بالإيمان
والصبر والتقوى مع قتلهم وضعفهم في المال والعدة ومع كثرة أعدائهم ووفرة
ما لهم وقوة عددهم ، فيقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ إِذْ
قَاتَلْتُمُوهُمْ كُنْتُمْ أَعْيُنًا عَالِيَةً لِكُلِّ فِرْقٍ غَلْبُوا فَفِرْقًا مَكْنُوسَةً ﴾

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
آلِ فِرْعَانَ مِثْلَ نَارٍ مُبِينَةٍ ﴾

اهداف كل سورة - ٣٣

آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ؟ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿ آل عمران ١٢٣ - ١٢٦ .

وتلقت السورة نظر المسلمين إلى موقعة أحد وفيها اعتمد المسلمون على قوتهم وكثرتهم ، وخطف أبصارهم شيء من زخارف الدنيا ، وفيها انهزموا بسبب مخالفة الرماة أوامر القيادة الحكيمة ، وفيها أرجف الأعداء بموت الرسول ، فتزلزلت أعصاب كثير من المؤمنين وفيها أفصح المنافقون عن نياتهم ، وفي ذلك كله تقول سورة آل عمران :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ .

والمعنى إذ تقتلونهم وتبطلون حسمهم بإذن الله :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَدَقَكُمُ عَنْهُمْ لَيْبَتِكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾
آل عمران ١٥٢ .

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ؟ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَبْصُرَ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَٰلِكَ نُؤَيِّدُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِن يُّرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنهَا وَمَن يُّرِيدُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ، وَكَذَٰلِكَ مَن نَّبِيٌّ قَاتِلٌ مَّعَهُ

رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا
 وَمَا أَسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا
 رَبَّنَا اغْنِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ آل عمران ١٤٤ - ١٤٨ .

ثم تنبه السورة إلى أن الشأن في أرباب الحق أن يتلهم من نصراء الباطل
 كثير من الأذى بالقول والعمل ، وأن واجب المؤمنين أن يتلقوا كل ذلك
 بالصبر والاحتمال . قال تعالى :

﴿ لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا
 فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ آل عمران ١٨٦ .

بعد هنا كله تختم السورة بأمرين عظيمين :
 أحدهما : رسم الطريق الذي يصل به الإنسان إلى معرفة الحق
 والإيمان به فيقول سبحانه :

﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ
 لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
 وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
 سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

والثاني : هذه النصيحة الغالية التي ما تمسكت بها أمة إلا تركت وسمت
 وهزت وما تخلت عنها أمة إلا أصيبت بالضعف والانحلال والظهور
 والانحطاط والذل والهوان : وتمثل هذه النصيحة في الآية الأخيرة من سورة
 آل عمران :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران ٢٠٠

(٨)

سنن الله ماضية وقوانينه عامة

انتصر المسلمون في غزوة بدر في العام الثاني من الهجرة نصرآ كاملا
بأهرا بأيسر الجهد والبذل ، فقد خرج ذلك العدد القليل من المسلمين غير
مزودين بعدة ولا عتاد - إلا اليسير - فلاقوا ذلك الجحافل الضخم من
قريش في عدتهم وعتادهم . ثم لم تلبث المعركة أن انجلت عن ذلك النصر
المؤزر الباهر .

وكان هذا النصر في الواقعة الأولى التي يلتقي فيها جند الله بجند الشرك
قلرا من قلم الله تدرك اليوم طرفا من حكمته ، ولعله كان لتثبيت الدعوة
الناشئة وتمكينها بل لإثبات وجودها الفعلي على محك المعركة لتأخذ بعد
ذلك طريقها :

فأما المسلمون فلعلهم قد وقع في نفوسهم - من هذا النصر - أنه الشأن
الطبيعي الذي لأشأن غيره ، وأنه لابد ملازمهم على أى حال في كل مراحل
الطريق ، أليسوا بالمسلمين ؟ أليس أعداؤهم بالكافرين ؟ وإن فهو النصر
لأعماله حينما التقى المسلمون بالكافرين :

غير أن سنة الله في النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة
والسلاجة ، فهذه السنة مقتضياتها في تكوين النفوس وتكوين الصفوف ،
وإعداد العدة واتباع المنهج والتزام الطاعة والنظام ، واليقظة لخوارج النفس
وتحركات الميدان . وهذا ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة في (غزوة أحد)
على النحو الذي تعرضه سورة آل عمران عرضا حيا مؤثرا عميقا ، وتعرض
أسبابه من محركات بعض المسلمين ، وتوجهه في ظله العظات البهامة للنفس
والصنف على السواء .

وحين نراجع غزوة أحد نجد أن تعليم المسلمين هنا الدرس قد كلفهم أهوالاً وجراحات وشهداء من أحر الشهداء - على رأسهم حمزة رضي الله عنه وأرضاه - وكلفهم ما هو أشق من ذلك كله على نفوسهم ، كلفهم أن يروا رسولهم الحبيب تشج جبهته وتكسر سنه ويسقط في الحفرة . ويغوص حلق المغفر في وجنته - صلى الله عليه وسلم - الأمر الذي لا يقوم بوزنه شيء في نفوس المسلمين . لا ويسبق استعراض (غزوة أحد) وأحداثها في السورة قطاع كبير تستغرقه كله توجهات متشعبة لتصفية التصور الإسلامي من كل شائبة ، ولتقرير حقيقة التوحيد جليلة ناصعة والرد على الشبهات التي يلقيها أهل الكتاب - سواء منها ما هو ناشئ من انحراف في معتقداتهم ، وما يتعمدون القاءه في انصف المسلم من شبهات ماكرة تلخلة الصف من وراء خلخلة العقيدة .

وتذكر عدة روايات أن الآيات من ١ - ٨٣ نزلت في الحوار مع وفد نصارى نجران من اليمن الذي قدم المدينة في السنة التاسعة للهجرة ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هي زمن نزول هذه الآيات فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت في الفترة الأولى من الهجرة حيث كانت الجماعة المسلمة بعد نشأة وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد في كيانها وسلوكها . وسواء صححت رواية أن الآيات نزلت في وفد نصارى نجران أم لم تصح فإنه واضح من الموضوع الذي تعالجه أنها تواجه شبهات النصارى وخاصة ما يتعلق منها بعيسى عليه السلام ، وتدور حول عقيدة التوحيد الخالص كما جاء بها الإسلام وتصحيح لهم ما أصاب عقائدكم من انحراف وغلط وتشويه وتدعوهم إلى الحق الواحد الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن يصدقها .

ومن مراجعة نصوص السورة يتبين المسلم أن هذا القرآن هو كتاب الحياة صحح أوضاعها للمسلمين وصحح العقيدة وناقش عقائد الآخرين وحذر المسلمين من كيد الأعداء ودهائسهم وهذا القرآن مأدبة الله معروض للمسلمين مفتوح للقارئ هو دليل الحيارى ورحمة الضالين وهداية المسترشدين وهو

النور المبين والركن الركين والصراط المستقيم من تركه من جبار قصمه
الله ومن ابتغى الهوى في غيره أضله الله لم تسمعه الجن حتى قالت :
(إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَكِنْ
نُفْسِرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا) الجن ٢٥١

(٩)

منهج القرآن في بناء العقيدة والدفاع عنها

القارئ لسورة آل عمران يتضح أمامه أن أعداء الأمة الإسلامية
كانوا يحاربونها في عدة ميادين منها الميدان المعركة ومنها ميدان الفكرة
والإيمان ، وأنهم حاولوا تشكيك المسلمين في عقيدتهم وتوهين إيمانهم
لأنهم كانوا يدركون - كما يدركون اليوم تماما - أن هذه الأمة لا تؤتى
إلا من هذا المدخل ولا تنهز إلا إذا وهنت عقيدتها ولا تهزم إلا إذا هزمت
روحها ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهي ممسكة بعروة الإيمان مرتكئة إلى
ركنه سائرة على نهجه حاملة لرايته ممثلة لحزبه منتسبة إليه معتزة بهذا
النسب وحده .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها
الإيمانية ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ويخدعها عن حقيقة أعدائها
وحقيقة أهدافهم البعيدة .

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة
هذه العقيدة ، وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلّبوا على الأرض
والعصبيات والاقتصاد والحامات والطاقة ، فإنهم يحاولون أولا أن يغلّبوا
على الحقيقة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبالغون بما يريدون
شيئا ، والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدها وملتزمة بمنهجها مدركة لكيد أعدائها،
ومن ثم ينزل هؤلاء الأعداء وهماؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة
عن حقيقة المعركة ، ليهزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار

واستغلال ، وهم آمنون من عزيمة العقيدة في الصدور وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها والتوهين من عراها استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة ولكن لنفسى الغاية القديمة :

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ ﴾ آل عمران ٦٩

فهذه هى الغاية الثابتة الدفينة .

لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولا . . . كان يأخذ الجماعة المسلمة بالثبوت على الحق الذى هى عليه ، وينفى الشبهات والشكوك التى يلقىها أهل الكتاب ، ويجلو الحقيقة الكبيرة التى يتضمنها هذا الدين ، ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها فى هذه الأرض ودورها ودور العقيدة التى تحملها فى تاريخ البشرية .

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكافرين ، ويكشف لها نواياهم المستترة ووسائلهم القدرة ، وأهدافهم الخطرة ، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين . وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها فى هذا الوجود فيبين لها هزال أعدائها وهوانهم على الله ، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء . كما يبين لها أن الله معها ، وهو مالك الملك المعز للمذل وحده بلا شريك . وأنه سيأخذ الكفار - ويقصد بهم هنا اليهود - بالعذاب والنكال كما أخذ المشركين فى بدر منذ عهد قريب .

وكانت هذه التوجيهات تتمثل فى أمثال هذه النصوص من سورة

آل عمران :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
ذُو انتِقَامٍ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾

آل عمران ٤ ، ٥

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران ٨٥ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ
مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران ٢٦ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيْبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
يُرْجِعْكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴾ آل عمران ١٠٠ ، ١٠١

(١٠)

أعداء يكيدون للإسلام

القارىء لسورة آل عمران والمتبع لأهدافها يتبين من خلالها عدة أمور
أولها : ضخامة الجهد الذى كان يبذله أهل الكتاب فى المدينة وغيرها
وعنى الكيد وتنوع أساليبه واستخدام جميع الوسائل لزراعة العقيدة وخالخلة
الصف المسلم من ورائها .

وثانيها : ضخامة الأثار التى كان هذا الجهد يتركها فى النفوس وفى حياة
الجماعة المسلمة ، مما اقتضى هذا البيان الأطويل المفصل المنوع المقاطع
والأساليب .

وثالثها : هو ما نلمحه اليوم من وراء القرون الطويلة ، من أن هؤلاء
الأعداء هم الذين يلاحقون هذه الدعوة وأصحابها فى الأرض كلها ، وهم
الذين تواجههم هذه العقيدة وأهلها ه **﴿ قُلْ ﴾**

ومن ثم اقتضت إرادة الله الحكيم الخبير أن يقيم هذا المشعل الهادى
الضخم البعيد الطارىح ليراه الأجيال المسلمة قويا واضحا عميق التركيز
على كشف الأعداء التقليديين لهذه الأمة وعلنا الدين .

ثلاثة خطوط عريضة

ولا يتم التعريف بسورة آل عمران حتى فلم بثلاثة خطوط عريضة فيها
تدبير تقطعها في السورة كلها ، وتتجمع وتتركز في مجموعها ، حتى ترسم
هذه الخطوط العريضة بوضوح وتوكيد .

أول هذه الخطوط : بيان معنى الدين ومعنى الإسلام ، فليس الدين
هو كل اعتقاد في الله . إنما هو صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه
سبحانه ، صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع : توحيد الألوهية التي يتوجه
إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية . وتوحيد
القوامة على البشر وعلى الكون كله : فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى ،
ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى . ومن ثم يكون الدين والناقي من هذا
المصدر وحده في كل شأن من شؤون الحياة ، والتحاكم إلى كتاب الله
المنزل من هذا المصدر واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب ، وهو
في صميمه كتاب واحد ، وهو في صميمه دين واحد . . . الإسلام . .
بهذا المعنى الواقعي في ضمائر الناس وواقعهم العملي على السواء ، والذي
يلتقي عليه كل المؤمنين اتباع الرسل . . كل في زمانه . . متى كان معنى
إسلامه هو الاعتقاد بوحدة الألوهية والقوامة ، والطاعة والاتباع في منج
الحياة كله بلا استثناء ويتكفى سياق السورة على هذا الخط ويوضحه
في أكثر من ثلاثين موضعا من السورة بشكل ملحوظ . . نضرب له بعض
الأمثلة بالآيات الآتية :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَلُو الْعِلْمِ قَائِمًا

بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران ١٨

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ آل عمران ١٩ .

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ . . ﴾

آل عمران ٣١ .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

آل عمران ٣٢

﴿ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ آل عمران ٨٣ .

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران ٨٥ .
ونصوص أخرى كثيرة تؤكد وحدانية الله وأن الإسلام هو الدين
الحق عند الله وأن دعوة الرسل واحدة ، وهدايتهم واحدة ، هي الدعوة
إلى توحيد الله وتدعيم الأخلاق ، والحث على الفضائل ، والتحذير من
الذنائب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران ١١٠ .

أما الخط الثاني الذي يركز عليه سياق السورة فهو تصوير حال
المسلمين مع ربهم واستسلامهم له وتلقينهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة
والاتباع الدقيق ، ونضرب له بعض الأمثلة من آيات سورة آل عمران :

يقول الله تعالى :

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا -
وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ - رَبَّنَا لَا تَزُغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا
وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ، رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ
لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران ٧ - ٩

ويقول سبحانه في بيان صدق المؤمنين وثقتهم بربهم وتوكلهم عليه
حين سمعوا عن كثرة أعدائهم بعد غزوة حمرات الأسد ، فلم يزداهم ذلك
إلا ثقة وبقينا وإيماننا واعتمادنا على الله بعد الأخذ بالعدة والأسباب :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَزَادَهُمْ
إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ آل عمران ١٧٣

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَزَادَهُمْ
إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ آل عمران ١٧٣

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ، رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران ١٩١ - ١٩٤

والخط الثالث العريض في سياق السورة هو التحذير من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولى الكفار الذين لا يحكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه في الحياة ، وهذه نماذج من هذا الخط العريض .

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ - إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ آل عمران ٢٨ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ آل عمران ١٤٩ - ١٥٠ .

﴿ لَا يَغْرَبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ المهاد ﴾ آل عمران ١٩٦ - ١٩٧

وهذه الخطوط الثلاثة متناسقة فيما بينها متكاملة في تقرير التصور الإسلامي وتوضيح حقيقة التوحيد ومقتضاه في حياة البشر وفي شعورهم بالله ، وأثر ذلك في موقفهم من أهواء الله الذي لا موقف لهم سواه .

بالاتزاماته نحوها وجعل نفقة الرجل على أولاده ورعايته لهم نوعاً من الكفاح
والجهاد السلمى يثاب المؤمن على فعله ويعاتب على تركه .

اليتامى :

أمرت السورة بعد ذلك برعاية اليتامى والمحافظة على أموالهم وإكرام اليتيم
لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه . وحذرت السورة من إتلاف أموال
اليتامى أو تبديدها ، وحثت على القيام بحقوقهم واختبارهم فى المعاملات
قبيل سن البلوغ حتى يكون اليتيم متمرنًا على أنواع المعاملات والبيع والشراء
عندما يستلم أمواله .

وقد توعدت السورة آكل مال اليتيم بالنار والسعير ، والعذاب الشديد ،
وقد مهدت لهذه الأحكام فى آياتها الأولى فطابت تقوى الله وصلة الرحم ،
وأشعرت أنهم جميعاً خلقوا من نفس واحدة ، أى أن اليتيم وإن كان من
غير أمركم فهو رحمكم وأخوكم فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم ،
واعلموا أن الله الذى خلقكم من نفس واحدة وربط بينكم بهذه الرحم
الإنسانية العامة رقيب عليكم يحصى أعمالكم ، ويحيط بما فى نفوسكم
ويعلم ما تضررون من خير أو شر فيحاسبكم عليه . وبعد هذا التمهيد
الذى من شأنه أن يملأ القلوب رحمة ، يأمرهم الله بحفظ أموال اليتامى
حتى يتسلموها كاملة غير منقوصة ويحذرهم من الاحتيال على أكلها عن
طريق المبادلة أو عن طريق المخالطة قال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

النساء ٢

أى لا تخطأوا مال اليتيم بمالكم ليكون ذلك وسيلة تستولون بها على مال اليتيم
تحت ستار الإصلاح بالبيع أو الشراء باسم أنه منفعة لليتيم أو بالخطط
والشركة باسم أنه أفضل لليتيم .

وقد تخرج أتباع المسلمين من مخالطة اليتيم فأباح الله مخالطة اليتامى

ما دام القصد حسنا والنية صادقة في نفع اليتيم، والله سبحانه مطلع على السرائر ومحاسب عليها .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ النساء ٦

المال والميراث

عنيت سورة النساء وغيرها بشأن المال ، وقد أمرت السورة بالمحافظة على المال وتثميته ، ونهت عن الإسراف والتبذير وأمرت بالتوسط في النفقة والاعتدال فيها ، ذلك لأن المال عصب الحياة ولأن كل ما تتوقف عليه الحياة في أصلها وكمالها وسعادتها وعزها من علم وصحة وقوة واتساع عمران ، لا سبيل للحصول عليه إلا بالمال . وقد نظر القرآن إلى الأموال هذه النظرة الواقعية فحذر من تركها في أيدي السفهاء الذين لا يحافظون عليها ولا يحسنون التصرف فيها كما أمر بتحصيلها من طرق فيها الخير للناس ، فيها النشاط والحركة ، وفيها عمارة الكون ، أمر بتحصيلها عن طريق التجارة وعن طريق الصناعة والزراعة ، وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله ، كما وصفها نفسها بأنها زينة الحياة الدنيا ومتاعها وبلغ من عناية القرآن بالأموال أنه طلب السعي في تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادة المفروضة .

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ

اللَّهِ ﴾ الجمعة ١٠٠

وتحدثت سورة النساء عن الموارد ونصيب كل وارث فأمرت أن يبدأ أولا بتنفيذ وصية الميت وتسديد ديونه ثم وضعت المبادئ الأساسية للميراث ونستخلص منها ما يأتي :

أولا - ان مبنى التوريث في الإسلام أمران : نسبي وهو القرابة ،

وسببي وهو الزوجية .

ثانيا - أنه متى اجتمع في المستحقين ذكور وأناث أخذ الذكر ضعف

الأنثى .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن بعض خصوم الإسلام قد اتخذوا التفاوت بين نصيب الذكر والأنثى مطعنا على الإسلام وقالوا إن هذا من فروع دهم الإسلام حق المرأة ، وهي إنسان كالرجل ، وفاتهم أن الذكر متعدد مطالبه وتكثر تبعاته في الحياة فهو ينفق على نفسه ، وعلى زوجته ، وعلى أبنائه . ومن أصول الشريعة أنه يدفع المهر لمن يريد أن يتزوجها ، أما الأنثى فإنها لاتدفع مهرا ويلزم زوجها بنفقها في مآكلها ومشربها ومسكنها وخدمها وذلك فوق تبعاته العائلية التي لا يلحق الأنثى مثلها . وبينما نرى بعض التشريعات الوضعية تقضى بحرمان الأنثى بتاتا أو حصر الميراث في أكبر الأبناء وحده كما كان الحال في بعض البلاد الأوروبية إلى وقت قريب ، نجد تشريعا آخر يقضى بمساواتها بالذكر .

وتقارن ذلك بالإسلام فنجد أن منهجه في التوريث وسطا لا إفراط فيه ولا تفريط فهو لم يحرم الأنثى من الميراث بل أعطاها نصيبا مناسبا لظروفها في الحياة وأعطى أخاها نصيبا مناسبا لتبعاته في الحياة وهذا هو شأن الإسلام في أحكامه وشرائعه ، فهو يعتمد على الحكمة والعدل لأنه تشريع الحكيم العليم .

تعدد الزوجات

تحدثت سورة النساء عن تعدد الزوجات فأباحته بشرط العدل بينهن ، فإذا خاف الإنسان من عدم العدل فعليه الاقتصار على زوجة واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى صفاء الحياة ويسرها وتحقيق الهدف من الزواج وهو المودة والرحمة .

ويرى الإمام محمد عبده أن تعدد الزوجات أمر مضيق فيه كل التضيق فكان الله سبحانه قد نهي عن التعدد .

قال تعالى :

﴿ وَإِنْ حِطَّتُمْ لِأَلْتَقِصُوا فِي الْبَيْتِ مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ

النِّسَاءُ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿ النساء ٣ ﴾

أى إن خفتم ألا تعدلوا فى نكاح اليتيمات اللواتى تحت وصابتكم ، كأن
يكون الدافع لكم على الزواج بين هو الطمع فى مالهن ، لا الحب والرغبة فى
معاشرتهن ، أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة أو كأن تهموهن
حقوقهن فى مهر أمثالهن . . إن خفتم ألا تعدلوا فى اليتيمات فاطلبوا الزواج
فى سواهن من النساء .

وبمناسبة الحديث عن الزواج امتد السياق إلى بيان حدود المباح من
الزوجات فإذا هو (مثنى وثلاث ورباع) ولكن بشرط العدل بينهن ،
العدل فى المعاملة وفى الحقوق الظاهرة ، أما العدل فى الشعور الباطن فلا
قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ، ما اتقى إظهاره فى المعاملة ، وتأثيره
على الحقوق المتعادلة ، فإن وجد فى نفسه ضعفا عن ذلك العدل ، وخاف
ألا يقدر على تحقيقه ، فالحلل واحدة فقط وما سواها محظور .

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ .

والنص الشرطى يحتم هذا المعنى هنا ويعلله بأن ذلك التحديد بواحدة فى
هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور

﴿ ذَلِكَ آذَنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾

أى لا تجوروا وتظلموا .

والظلم حرام فالوسيلة إليه حرام ، واجتناب الظلم واجب وما لا يتم
الواجب إلا به فهو واجب .

فإذا كان العدل يتم بترك التعدد ، فالاعتصام على الزوجة الواحدة واجب ،

وفى ختام الآية وصية جديدة بالاعتصام على الزوجة الواحدة لأنه أسمى

إلى العدل والاستقرار ، والبعد عن الظلم وكثرة العيال ،



شبهة تفضح ، وحجة اتضح

تكلم الأوروبيون بكثير من الكلام المعسول ، فمثلا (كانتى) يقول :
« إن شرف الإنسان أسمى من أن يمتن أو أن يجعل أداة متعة » .

وفي الواقع هم الذين جعلوا الأخدان أداة متعة فقط ومنعوه من حقوق
الزوجية في النفقة أو الميراث أو لصاق الولد ، بينما الإسلام يحرم اتخاذ
الأخدان والحليلات يقول تعالى :

﴿ مُخَصَّنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ النساء ٢٥

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الدَّوَّاقِينَ وَلَا الدَّوَّاقَاتِ فَإِذَا تَزَوَّجْتُمْ فَلَا

تُطَلِّقُوا » .

ونشأ عن كثرة الأخدان وانتشارهن في أوروبا انتشار الأمراض السرية
الفظيعة ، وقلة النسل لأن النسل إما أن ينجق أو تجهض الحامل أو يمنع الحمل ،
وهل عقل الأوروبيون عن المصير السيء الذى ينتظرهم إذا استمر الحال ،
فالكبير يموت والنساء يقتل تنبهوا لذلك ، فصدرت قوانين تقول
مثلا : أبناء الزواج الحر إذا اعترف بهم أبوهم ألقنهم به فيأخذ الأولاد كل
حقوق الأبناء ، فهم تفادوا اسم الزوجة فقط ، والأبناء منها يتمتعون بكل
الحقوق .

وقد ذكر لنا أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، أنه شاهد
أثر الحروب في ألمانيا ورأى النساء يطالبن هناك بتعدد الزوجات لتجد المرأة
التي مات زوجها في الحرب من يكفلها وينفق عليها وعلى ماينجب منها .
وذكر لنا أن جمعية تألفت في ألمانيا تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في
الزواج والطلاق .

ومع ذلك فالإسلام لم يحرض على تعدد الزوجات بل قال :

﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا فَوَاحِدَةٌ . . . ذَلِكَ أَذَى الْأَتَّعُولُوا ﴾

وإذا استلهمنا روح النص ومراميه وجدنا أن التعدد رخصة ، وهي رخصة ضرورية لحياة الجماعة في حالات كثيرة ، وهي صمام أمن في هذه الحالات ، ووقاية ليس في وسع البشرية الاستغناء عنها . ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها سواء في حالة اختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث عقب الحروب والأوبئة التي تجعل عدد الإناث في الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور أو في حالات مرض الزوجة أو عقمها ، ورغبة الزوج في الإبقاء عليها أو حاجتها هي إليه ، أو في الحالات التي توجد في الرجل طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة ، أو لا تجد كفايتها في زوجة واحدة . . وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها . وكل حل فيها غير تعدد الزوجات يفضي إلى عواقب أوتخم خلقيا واجتماعيا ، ضرورة تواجه ضرورة . ومع هذا فهي مقبلة في الإسلام ، باستطاعة العدل والبعد عن الظلم والجور ، وهو أقصى ما يمكن من الاحتياط .

التضامن الاجتماعي

حثت سورة النساء على صدق العقيدة والإخلاص لله في العبادة ، كما حثت على الإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين والإحسان إلى الجار ورحمة الفقير والمحتاج ومساعدة الخدم والضعفاء ، [وحذرت من البخل والكبر والرياء ، ونهت عن الكفر والجحود ومعصية الله والرسول . وذلك في جملة آيات تبدأ بقوله تعالى :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَبِالنِّسْبِ الْقُرْبَى ، وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ النساء ٣٦ .

وهذه الآية وما بعدها دعوة عملية إلى التضامن الاجتماعي ، ومحفلة من البخل والشح وبيان أن المال مال الله وأن الغنى مستخلف عن الله في إدارته

وتشميره وانفاقه في نواحي الخير والبر ، وقد فرض الله حقوقا للفقراء من مال الأغنياء فأوجب الزكاة والصدقة وحث على الإنفاق في سبيل الله . وجعل طرق البر متعددة ، منها صدقة الفطر في عيد الفطر ، والأضحية في عيد الأضحى ، والهدى في موسم الحج . وجعل الله موردا لا ينتقطع لصلة الفقراء ألا وهو الكفارات التي أوجبها مثل كفارة الظهار وكفارة اليمين وكفارة صوم رمضان . وفي كثير من الأحيان تكون هذه الكفارات إطعام المساكين أو كسوتهم . كما أوجب الله الوفاء بالنذر ولم يجعل الزكاة تطوعا بل جعلها فريضة لازمة يثاب فاعلها ويعاقب جاحدها . ونلاحظ أن الزكاة تتفاوت في نسبتها فتبدأ من ٢٥٪ وهي زكاة الماك وتصل إلى ٢٠٪ وهي زكاة الركاك والمعادن والبتروك . وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل كما في زكاة المال . وزكاة التجارة ، وكلما كان عمل القدره الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر كما في زكاة الزراعة وزكاة الركاك .

المحرمات من النساء

اتفردت سورة النساء بكثير من أحكام المجتمع ، ولا سيما أحكام الأسرة والزوجية كما اتفردت ببيان مفصل للمحرمات من النساء ، وبدأت ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ،
إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ النساء ٢٢

ولا شك أن نوارد رجل وابنه على امرأة واحدة ، أمر محقوت تنهه الفطر السليمة ، ونهجه الأنواق السليمة .

ثم جاءت بقية السورة بقية المحرمات فحرمت زواج الإنسان بأمه وبابنته وبأخته من الرضاة ومن النسب ، وحرمت زواج الرجل من بنات الأخ وبنات الأخت والأم من الرضاة ، وحرمت أم الزوجة التي دخل بها زوجها ، كما حرمت زواج الإنسان من زوجة ابنه وحرمت الجمع بين الأختين .

الحكمة في هذا التحريم

إن الزواج وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب النرية وتكوين الأسرة ، فإذا أبيح تزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم والبنت ، إصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية ، فالأم مثلا لها حق الطاعة والاحترام فلو اتخذها الإنسان زوجة لكان له عليها حق القوامة وحق الطاعة والخضوع . هذا إلى ما دوغنى عن البيان من نفور الإنسان من هذا اللون من المتاع ، فهي بهيمية أى بهيمية أن يتمتع الرجل بأمه ، ومثل هذا يقال في درجات القرابة الأخرى . فالحالة لها ما للأم ، والعمة لها ما للأب ، والأخت وبناتها وبنات الأخ ، وابنة الإنسان التي هي قطعة منه ، كل هؤلاء تستقيح الأذواق نكاحهن وافتراشهن ، ولا يمكن أن يتصور في هذا الوضع لو أبيح إلا المفارقات والصعاب ، وضعف النسل وسوء المنقلب :

ومثل هذا يقال أيضا في نكاح من حرمن من جهة الرضاع ، فإن المرضع أم في الكرامة ولها حق الأم في وجوب الرعاية ، وليس من شأن الإنسان أن يلتمس منها ما يلتمسه الرجل بالزوجية .

وقد حرمت السورة الجمع بين الأختين ، والجمع بين الأم وبناتها حتى لا تقطع الأرحام ، فإن المرأة تغار من ضررها : وتفعل الكثير في سبيل إبعادها عن زوجها . واو أبيح الجمع بين الأقارب لتشككت المرأة في أختها وفي أمها . ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب وتعرضت بأمك الأمر إلى خطر شديد . قال تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُكُمْ ، وَأَخْوَاتُكُمْ ، وَعَمَّاتُكُمْ ، وَخَالَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُ الْأَخِ ، وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخْوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَّائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، إِنْ كَانَ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ،

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿

النساء ٢٣

مصادر التشريع في الإسلام (١)

أمرت سورة النساء بالعدل في الحكم وأداء الأمانات إلى أهلها .
وبينت أن الأمانة والعدالة من أسباب الرقي والتقدم والسعادة في الدنيا
والآخرة .

وهذه المناسبة ذكرت السورة مصادر التشريع التي يجب أن يرجع إليها
المسلمون في تصرفاتهم وأحكامهم وهي :

(أولاً) القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله .

(ثانياً) سنة الرسول قولية كانت أم فعلية ، والعمل بها هو طاعة الرسول .

(ثالثاً) رأى أهل الحل والعقد في الأمة من العلماء وأرباب النظر في المصالح

العلمية كالجيش ، والزراعة ، والصناعة ، والتعليم ، في كل

دائرة معرفته واختصاصه ، والعمل به هو إطاعة أولى الأمر .

وهذه المصادر في الرجوع إليها مرتبة على هذا النحو ، فلا نرجع
إلى السنة إلا بعد عدم العثور على الحكم في القرآن ، فنرجع إلى السنة
حينئذ : إما لمعرفة الحكم الذي لم يرد في القرآن : أو لبيان المراد بما ورد
في القرآن ، ولأنه عجي . إلى رأى أولى الأمر إلا بعد عدم العثور على الحكم
في السنة ، وعندئذ نرجع إليهم ليجتهدوا رأيهم ، وهذا الاجتهاد هو عندهم
« الشورى » التي عاينها أمر المسلمين ومتى حاز الاتفاق وجب العمل به
ولا يصح الخروج عنه مادامت وجوه النظر التي أدت إليه قائمة ، وهو
أساس فكرة الإجماع في الشريعة الإسلامية ، وقد انتفع به المسلمون كثيراً ،

(١) مقتبس من تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت ، ط ٣ ، ص ٢٠٧ .

واتسع به نطاق الفقه الإسلامى ، وبخاصة فيما ليس منصوصا عليه فى كتاب الله وسنة الرسول ، وهو يشمل إعطاء حكم لحادثة مثل حادثة سابقة للاشتراك بينهما فى المعنى الموجب لذلك الحكم ، وهذا هو المعروف فى لسان الفقهاء والأصوليين باسم « القياس » وقد بحثوه بحثا مستفيضا ، بينوا فيه أركانه ، وشرائطه ، وعلمته : وما ينقضه ، وما لا ينقضه وما يجرى فيه ، وما لا يجرى فيه ، وقد تكفلت به كتب الأصول فليرجع إليها من شاء :

الاجتهاد من مصادر التشريع وبابه مفتوح أبدا :

ويشمل أيضا النظر فى تعرف حكم الحادثة عن طريق القواعد العامة وروح التشريع التى عرفت من جزئيات الكتاب ، وتصرفات الرسول ، وأخذت فى نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التى يرجع إليها فى تعرف الحكم للحوادث الجديدة ، وهذا النوع هو المعروف بالاجتهاد عن طريق الرأى وتقدير المصالح : وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا فى أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله ، ومنحهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح ، فى دائرة مارسه من الأصول التشريعية ، فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات ، ولم يقبده ، فى كل شئ بمنصوص قد لا يتفق مع ما يجد من شئون الحياة ، كما لم يلزم أهل أى عصر بالاجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا . وهنا نذكر بالأسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التى ترى وقف الاجتهاد وإغلاق بابه ، وتؤكد أن نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن أن تكون عرضة للزوال بكلمة قوم هالم - أو هال من ينتمون إليهم من أرباب الحكم والسلطان - أن يكون فى الأمة من يرفع لواء الحرية فى الرأى والتفكير ، فالشريعة الإسلامية شريعة عامة خالدة صالحة لكل عصر ولكل إقليم . وما على أهل العلم إلا أن يجتهدوا فى تحصيل الرسائل التى يكونون بها أهلا للاجتهاد فى معرفة حكم الله الذى وكل معرفته - رأفة منه ورحمة - إلى عباده المؤمنين :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ النساء ٨٣ .

واقراً في هذا الموضوع كله قوله تعالى من السورة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء ٥٨ - ٥٩

القتال وأسباب النصر

عنيت سورة النساء بتنظيم شئون المسلمين الداخلية وحفظ كياناتهم الخارجى وقد حثت السورة على القتال ودعت إليه حيث يقول .

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾
النساء ٧٤

وبينت السورة أهداف القتال في الإسلام ، وهذه الأهداف تنحصر في رد العدوان وإشاعة الأمن والاستقرار ، وحماية الدعوة ، والقضاء على الفتن التي يثيرها أرباب المطامع والأهواء ، ومن ذلك نعلم أن الإسلام حينما شرع القتال نأى به عن جوانح الطمع والاستئثار ، وإذلال الضعفاء ، واتخذ طريقاً إلى السلام العام بتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة . ويصل المسلمون بالقتال إلى الغاية السامية التي أمر بها الله ، لفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أن للنصر أسباباً ووسائل هي :

(١) تقوية الروح المعنوية للأمة فقد نزل القرآن روحاً وحياة ومنهجاً

ورسالة وتحول العرب بالقرآن إلى أمة عزيزة متمسكة بالحق ثابتة عليه
متحملة صنوف الأذى وألوان الاضطهاد فلما أذن الله لها بالجهاد كانت لها
راية النصر في أكثر معاركها ، لأن لها من يقينها وإيمانها ما يكفل لها النصر
والغلبة .

(٢) إعداد القوة المادية وتنظيمها ، قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ الأنفال ٦٠

ويشمل ذلك فنون الحرب وأساليبها ومعرفة أحدث أدواتها وكيفية
استعمالها .

(٣) الشكر على النعماء ثقة بأن النصر من عند الله ، فلا ينبغي أن تأخذ
المحارب نشوة النصر فيخرج عن اتزانه بل عليه أن يزداد تواضعا وخشوعا
لعظمة الله ، ويزيد في طاعة الله ونصره ، لقوله سبحانه :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ محمد ٧ .

(٤) الصبر على البأساء ثقة والتزاما بأن مع اليوم غدا وبأن الأيام دول
يوم لك ويوم عليك وأن الشجاعة صبر ساعة وليس الصبر هنا صبر الدليل
المستكين بل صبر المطمئن إلى قضاء الله وقدره والمؤمن بحكمته والمستعد ليوم
آخر ينتصف فيه من عدوه . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَفْلِحُونَ ﴾ آل عمران ٢٠٠ .

(٥) ومن أسباب النصر ثقة المؤمن بأن الأجل محدود وأن الرزق محدود
فالشجاعة لا تنقص العمر ، والجبن لا يزيد . ومن أسباب النصر طاعة الله
والتزام أوامره واجتناب نواهيه ، قال تعالى :

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ آل عمران ١٢٦

(٦) ومن أسباب النصر أخذ الحذر والحيطه والابتعاد عن اتخاذ بطانة
مقربة من المنافقين والملحمين والخنوة ، قال تعالى :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَافِقِينَ غَمَّاتٍ وَاللَّهُ أَرْكَمَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ
أَنْ تَهْلِكُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴾ النساء
آية ٨٨ .

(٧) تذكر فضل الجهاد وثواب البذل والتضحية ، وعقوبة التناقل
والفرار من الجهاد ، وتذكر ما أعد الله للمجاهدين والمكافحين في سبيل
الحق من عز الدنيا وشرف الآخرة ، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً ،
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ
وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ النساء ١٠٠ .

دروس من سورة المائدة

١ - تاريخ النزول

نزلت سورة المائدة بعد سورة الفتح ، وكان نزول سورة الفتح بعد صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة ، فيكون نزول سورة المائدة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك .

وتلاحظ أن سورة المائدة من أواخر ما نزل من السور بالمدينة ، فقد روى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن المائدة من آخر ما أنزل الله فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه .

والتأمل يرى أن السورة قد امتد نزول آياتها خلال السنوات الأربع الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقد ابتداء نزولها في السنة السابعة للهجرة ، وفيها آية نزلت في حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثمانين يوماً وهي قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ المائدة ٣

وفي كتب التفسير أن سورة المائدة نهارية كلها أي نزلت جميع آياتها نهاراً (١) . مدنية كلها إلا قوله تعالى :

(١) اهتم العلماء بأسباب نزول الآيات وتاريخ نزولها وبيان منازلها منها نهاراً وماتراً ليلاً ومنازل شعاعاً وما نزل صهفاً وما نزل بمكة وما نزل بالمدينة وما نزل بأماكن أخرى غير مكة =

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية .

فإنها نزلت بعرفة .

وعدد آيات سورة المائدة (١٢٠) آية . وعدد كلماتها (٢٨٠٤) كلمة .

٢ - قصة التسمية

سميت سورة المائدة بهذا الاسم ، لأنها السورة الوحيدة التي تحدثت عن مائدة طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يسألها ربه . وذلك في قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُونَا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة ١١٢ ، ١١٣ .

والحواريون هم خالصاء عيسى عليه السلام الذين صفت قلوبهم من الكفر والذناب وبأدروا إلى الإيمان بعيسى وتلقوا عنه التعاليم ثم انتشروا في القرى لبها بين الناس .

المائدة

تكلم العلماء عن المسألة التي سألتها الحواريون عيسى ، هل نزلت أم لا ؟ وجمهور المفسرين على أنها نزلت بالفعل . وقد تعددت الروايات بعد ذلك عن أوصافها وما احتوت عليه من ألوان الطعام والشراب . وحسبك

= والمدينة . وهي مائة بالغة تكاد أن تجعل لكل آية سجلا خاصا وذلك من حفظ الله لكتابه ، وعن الكتب التي عنت بذلك ، كتاب أسباب النزول للواحدى ، وكتاب أسباب النزول للسيوطى . ومن كتب علوم القرآن : كتاب البرهان في علوم القرآن ليدر الدين الزركشى . والاتفاق في علوم القرآن لللال الدين السيوطى .

أن ترجع إلى أي تفسير من كتب التفسير المتداولة لتقرأ في أوصافها وأوصاف ما وضع عليه الشيء الكثير ، مما يجعلك ترجح أن كثيرا مما ورد في أوصاف هذه المائدة من افتراء المقتربين أو أساطير الإسرائيليين .

والفاظ القرآن الصريحة تفيد أن عيسى طلب من ربه أن ينزل مائدة من السماء تكون كافية لقومه جميعا وتكون عيدا وسعادة لأول قومه وآخرهم ، والمائدة طعام ورزق ، وكل طعام ورزق إنما هو من عند الله ، وقد وعد الله أن ينزلها عليهم . ولم يذكر القرآن إن كانت بمفهومها الضيق كما طلبها الحواريون ، أو بمفهومها المطلق كما قد يريد الله ويفهمه عيسى ويلهجه الحواريون فيكون حينئذ وعدا بنعمة من الله عليهم طعاما ورزقا يشمل أولهم وآخرهم وترجمة للمفهوم الضيق الذي أرادوه للمائدة بمفهوم أوسع قد يشمل الطعام وسواه من الرزق ليكون ذلك ابتلاء وفتنة لأتباع المسيح بوجه عام .

والله أعلم بما كان مما سكنت عنه القرآن ، وليس لنا من مصدر آخر نستفتيه واثقين في مثل هذه الشئون. إنما هو رأى نبديه بجوار آراء السلف عليهم رضوان الله .

٣ - ظواهر تنفرد بها سورة المائدة

تنفرد سورة المائدة بمجملتها من الظواهر لا نكاد نجد شيئا منها في غيرها من السور ، حتى في أطول سور القرآن وهي البقرة ، ذلك أنها لم تتحدث عن الشرك ولا عن المشركين على النحو الذي ألف في القرآن من حاجتهم وتسفيه أحلامهم وتحقير شركائهم وأنها لم تعرض في قليل ولا في كثير إلى ما عهد في أكثر السور المدنية التي نزلت قبلها من الحث على القتال والتحريض عليه ورسم خطط النصر والظفر بأعداء الله المشركين كما نراه في سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة لأن المسلمين في ذلك الوقت لم يكونوا بحاجة إلى شيء من هسل الحديث لقد اندحر الشرك وصار المشركون في قهر وذلة وبأس .

ولكن إذا كان المشركون قد انقضى عهدهم والمسلمون قد علا شأنهم
كان المسلمون في حاجة إلى إكمال التشريع المنظم لشئونهم على وجه يضمن لهم
دوام السعادة ويحفظ لهم السيادة ، ولهم بعد ذلك صلوات خاصة بطوائف
من أهل الكتاب يعيشون في ذمتهم وعهدهم ويخالطونهم في حياتهم ومعاملاتهم
ومن هنا نبتين أن المسلمين في ذلك الوقت كانوا في حاجة إلى ما يعينهم
في الجانبين : جانب أنفسهم وجانب علاقتهم بأهل الكتاب وبذلك دار كل
ما تضمنته سورة المائدة على أمرين بارزين : تشريع المسلمين في خاصة
أنفسهم وفي معاملة من يخالطون ، وإرشادات لطرق الحاجة والمناقشة وبيان
الحق في المزاем التي كان يثيرها أهل الكتاب مما يتصل بالعقائد والأحكام
وفي سياق هذه الحاجة تعرض السورة لكثير من مواقف الماضين من أسلاف
أهل الكتاب مع أنبيائهم تسليمة للنبي صلى الله عليه وسلم من جهة وتنديدا بهم
عن طريق أسلافهم من جهة أخرى .

٤ - تشريع القرآن

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم لينشئ به أمة وليقيم به
دولة ولينظم به مجتمعا ، وليربي به ضماير وأخلاقا وعقولا ويربط ذلك
كله برباط قوى يجمع متفرقه ويؤلف أجزاءه ويشدها كلها إلى منزل هذا
القرآن ، وإلى خالق الناس الذي أنزل لهم هذا القرآن .
ومن ثم نجد في كثير من سور القرآن تشريعا إلى جانب موعظة ، وقصة
إلى جانب فريضة ، ونجد التشريع الذي ينظم العلاقات الاجتماعية والدولية ،
إلى جانب التشريع الذي يحل ويحرم ألوانا من الطعام أو ألوانا من السلوك والأعمال .
وهذه السورة - سورة المائدة - مثل لتلك السور التي تلتق فيها التربية
الوجدانية بالتربية الاجتماعية بتشريع الحلال والحرام في الطعام والزواج ،
بتشريع المعاملات الدولية فيما بين المسلمين وغير المسلمين ، بتعليم بعض الشرائع
العهدية ببيان الحدود والعقوبات في بعض الجرائم الاجتماعية بالمثل والموعظة
والقصة ، بتصحيح العقيدة وتنقيتها من الأسطورة والخرافة في تناسق واتساق .

هـ - الوفاء بالعقود

تبدأ سورة المائدة بتداء إلهي للمؤمنين أن يوفوا بالعقود فتقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

والعقود جمع عقد وهو ما يلتزمه المرء لنفسه أو لغيره وأساسه قد يكون شيئاً فطرياً تدعوا إليه الطبيعة وقد يكون شيئاً تكليفياً تدعو إليه العقيدة وقد يكون شيئاً عرفياً يدعو إليه الالتزام والتعاهد والعقد العرفي ، أى المتعارف عليه من عامة الناس ، يكون بين الفرد والفرد كما في البيع والزواج والشركة والوكالة والكفالة إلى آخر ما تعارفه الناس ويتعارفونه من وجوه الاتفاقات ، والكلمة عامة في الآية فاتها تأمر بالوفاء بالعقود ، فتشمل العقود كلها على اختلاف أنواعها وأشكالها ، وتدخّل في العقود المعاملات والمعاهدات بظواهرها واللفظ ، كما تدخّل لإقامة الحدود وتحريم المحرمات بوصفها داخلة في عقد الإسلام بين الله ورسوله والذين آمنوا بالله ورسوله .

وعلى وجه العموم فإننا نجد سياق السورة كانه يدور حول العقود والمواثيق في شتى صورها حتى حوار الله والمسيح يوم القيامة الوارد في نهاية السورة فجدّه سؤالا عما عهد به إليه وعمّا إذا كان قد خالف عنه كما زعم الزاعمون بعده.

٦- الظروف التي نزلت فيها السورة (١)

نزلت سورة المائدة بعد أن قلمت أظفار المشركين وانزوى الشرك في مخابته المظلمة وصار المسلمون في قوة ومنعة كانوا بها أصحاب السلطان والصلوة في مكة وفي بيت الله الحرام ، يحجون آمنين مطمئنين ، وقد نكست أعلام الشرك وانطوت صفحة الإلحاد والضلال ، وقد أتم الله نعمته على المسالمين بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا .

(١) للسيد رشيد رضا في تفسير المنار طريقة حكيمة في اتباع تفسيره المطول بملخصه للسورة ، وأنصح بمراجعة هذه الخلاصة قبل قراءة تفسير المنار . وانظر خلاصة سورة المائدة ج ٧ ص ٢٧٦ ، فقد استعملت بها في كتابة هذا الموضوع . وانظر أيضا تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت ص ٢٧٥ ط ٣ .

وسورة المائدة وإن ابتدأ نزولها في السنة السابعة إلا أن نزولها قد استمر إلى السنة العاشرة بدليل أن فيها آية من آخر ما نزل من القرآن وحي قوله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . ﴾

روى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر رضی الله عنه فقال : إن في كتابكم آية تقرؤونها لو علينا انزلت - معشر اليهود - لا نخذنا اليوم الذي أنزلت فيه عبدا ، قال عمر : وآية آية؟ قال :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة ٣ .

فقال عمر : إني والله لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه والساعة التي نزلت فيها ، نزلت على رسول الله عشية عرفة في يوم الجمعة والحمد لله الذي جعله لنا عبدا .

وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة المائدة في حجة الوداع وقال :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ آخِرُ مَا نَزَلَ فَأَجِلُوا حَلَالِهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا) .

٧ - أفكار السورة وأحكامها

انفردت سورة المائدة بعدة مسائل في أصول الدين وفروعه وبتفصيل عدة أحكام أجملت في غيرها إجمالا ومن هذه الأحكام ما يأتي :

١ - بيان إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم بالقرآن وإتمام نعمته عليهم بالإسلام .

٢ - النهي عن سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء من شأنها أن تسوء للمؤمنين إذا أهديت لهم بما فيها من زيادة التكليف .

٣ - بيان أن هذا الدين الكامل مبنى على العلم اليقيني في الاعتقاد ،
والهداية في الأخلاق والأعمال ، وأن التقليد باطل لا يقبله الله تعالى .

٤ - بيان أن أصول الدين الإلهي على السنة الرسل كلهم هي الإيمان
بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فمن أدامها كما أمرت الرسل من أية ملة
- من ملل الرسل كاليهود والنصارى والصابئين - فلهم أجرهم عند ربهم
ولا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون .

٥ - وحدة الدين واختلاف شرائع الأنبياء ومناهجهم فيه .

٦ - هيمنة القرآن على الكتب الإلهية .

٧ - بيان عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وأمره بالتبليغ العام وكونه
لا يكلف من حيث كونه رسولا إلا التبليغ ، وأن من حجج رسالته أنه بين
لأهل الكتاب كثيرا مما كانوا يخفون من كتبهم وهو قسمان : قسم ضاع منهم
قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم . وقسم كانوا يكتُمونه اتباعا لأهوائهم مع
وجوده في الكتاب كحكم رجم الزاني ، ولولا أن محمدا الأمين مرسل من
عند الله لما علم شيئا من هذا ولا ذاك .

٨ - عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من أذى الناس ، وهذا من
دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، فكم حاولوا قتله فأعيامهم وأعجزهم .

٩ - بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفرادا وجماعات ،
وأنه لا يضرهم من ضل من الناس إذا هم استقاموا على صراط الهداية .

١٠ - تأكيد وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما بينه الله تعالى
من لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم .
وتعليقه ذلك بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

١١ - نفي الحرج من دين الإسلام .

١٢ - تحريم الغلو في الدين والتشدد فيه ولو بتحريم الطيبات وترك التمتع بها .

١٣ - قاعدة إباحة المحرم للمضطر ومنه أخذ الفقهاء قولهم : الضرورات

تبيح المحظورات .

١٤ - قاعدة التفاوت بين الخبيث والطيب وكونهما لا يستويان في الحكم كما أنهما لا يستويان في أنفسهما وفيما يترتب عليهما .

١٥ = تحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم لأنه يجب على المؤمنون أن يلتزموا بالحق والعدل .

١٦ - وجوب الشهادة بالقسط والحكم بالعدل والمساواة فيهما بين غير المسلمين كالمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء وتأكيد وجوب العدل في سائر الأحكام والأعمال .

١٧ - الحياة شركة ذات أطراف لا يجوز أن يجور فيها طرف على طرف .

١٨ - التعاون على البر والتقوى له وسائله وسببه حسب الزمان والمكان

ومنه تأليف الجمعيات الخيرية والعلمية وتحريم التعاون على الإثم والعدوان .

١٩ - بيان أن الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس أى يقوم

عندها أمر دينهم ودنياهم فعندها يتم الحج والعمرة وعندها يتم الإحرام

والأمان والسلام ولها يتوجه المسلمون في الصلاة . فهي رمز للوحدة والأخوة

والإيمان .

٢٠ - النهى عن موالاتة المؤمنين للكافرين .

٢١ - تفصيل أحكام الوضوء والغسل والتيمم مع بيان أن الله تعالى

يريد أن يطهر الناس ويزكّيهم بما شرع لهم من أحكام الطهارة وغيرها .

٢٢ - تفصيل أحكام الطعام ، وبيان حرامه وحلاله : وما حرم منه

لكونه نجساً في ذاته كالميتة وما في معناها والتحذير وما حرم لسبب ديني

كاللبنى يذبح للأصنام .

٢٣ - تحريم الخمر وهو كل مسكر وتحريم الميسر وهو القمار :

٢٤ - بيان محظورات الأحرام في الحج .

٢٥ - تفصيل أحكام الصيد للمحرمين وغيرهم في أوائل السورة

وأواخرها .

٢٦ - حدود المحاربين الذين يفسدون في الأرض ويخرجون على أئمة

العدل ووجد السرقة وما يتعلق بالحد كسقوطه بالتوبة الصادقة .

٢٧ - أحكام الإيمان وكفارتها .

٢٨ - تأكيد أمر الوصية قبل الموت وأحكام الشهادة على الوصية .

٢٩ - الأمر بالتمقوى في عدة آيات من السورة .

٣٠ - بيان تقويض أمر الجزاء في الآخرة إلى الله تعالى وحده .

٨ - النداءات الإلهية للمؤمنين

اشتملت سورة المائدة على ستة عشر نداء وجهت للمؤمنين خاصة ، يعتبر كل نداء منها قانونا ينظم ناحية الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم وفيما يختص بعلاقتهم بأهل الكتاب .

فالنداء الأول يطلب الوفاء بالعقود :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ . المائدة ١ .

والنداء الثاني يطلب المحافظة على شعائر الله وعدم احلالها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ المائدة ٢ .

والنداء الثالث يطلب الطهارة حين إرادة الصلاة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . . ﴾ المائدة ٦ .

والنداء الرابع : يطلب القوامية لله والشهادة بالعدل ويحذر من الظلم . والنداء الخامس : يطلب تذكّر نعمة الله على المؤمنين بكف ألبس الأعداء عنهم . والنداء السادس : يدعو إلى تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله . والنداء السابع : يحذر من اتخاذ الأعداء أولياء من دون المؤمنين . والنداء الثامن : يلفت نظر المؤمنين إلى أن المسارعة في موالات الأعداء ردة

عن الدين . والنداء التاسع : يدعو إلى شدة الخلد من موالة الأعداء :
والنداء العاشر : يذكر تحريم الطيبات التي أحلها الله . والنداء الحادي عشر :
يحرم الخمر والميسر . والنداء الثاني عشر والثالث عشر : يتعلقان بتحريم
قتل الصيد في حالة الإحرام . والنداء الرابع عشر : يتعلق بالنهي عن سؤال
ما ترك الله بيان حكمه توسعة على عباده :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ

تَسْؤُكُمْ ﴾ المائدة ١٠١

والنداء الخامس عشر : يتعلق بتحديد المسئولية التي يحملها المؤمنون في
الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والنداء السادس
عشر : يتعلق بكيفية الشهادة على الوصية في حالة السفر .

وجملة هذه النداءات تربية عملية للمؤمنين وبيان للطريق السوي التي
يجب اتباعها في الشعائر والعبادات والمعاملات والمعاهدات . والنداء للمؤمنين
بصفة الايمان تذكير لهم بأن عليهم أن يعملوا بمقتضى هذا الايمان وقوامه
التصديق الباطني بوجود الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه .

الأمر بالتقوى :

حث القرآن على تقوى الله وطاعته وذبل كثيرا من أحكامه ببيان شأن
التقوى ، وأهميتها ، وفي النداء السادس من سورة المائدة حث على
تقوى الله والتماس الأسباب المساعدة على هذه التقوى فيقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا

فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة ٣٥ .

وتقوى الله هي تقدير العظمة الالهية وامتلاء النفس بما امتلاء يلفع
للمؤمن إلى المسارعة وشدة الحرص على تحقيق أوامر الله وتشيرواته .
والتقوى تدفع المؤمن إلى انعام النظر وقوة التفكير في ملكوت السموات

والأرض لمعرفة أسرار الله في كونه ، وسنته في خلقه ، ثم الاتجاه إلى هذه الأسرار والعمل على إظهار رحمة الله فيها بعباده والوقوف على السنن التي ربط بها بين الأسباب والمسببات بين السعادة وأسبابها والشقاء وأسبابه ، بين العلم وأسبابه والغنى وأسبابه والعزلة وأسبابها . . . وهكذا .
وبذلك ترى أن التقوى هي ذلك المعنى القلبي الذي تقضى به الإرادات الإنسانية في ملكوت العظمة الإلهية ، وهي الباعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وهي المحققة للإحسان في طاعة الله ورسوله ، فهي المبدأ ، وهي المنتهى ، وهي الأولى ؛ وهي الآخرة .

٩ - أهل الكتاب

أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم على حين فرة من الرسل بعد أن درست معالم الحق والفضيلة وبعد أن ضيع أهل الكذب بعض تعاليمه وأنفقوا بعضه ونقضوا ميثاقهم مع ربهم .

وقد واجهتهم سورة المائدة بأخطائهم فوصفتهم بالتعصب المقيت والغلو في الدين واتباعهم أهواء من ضل قلبهم من الوثنيين وغيرهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه . وقد بين الله لهم حقيقة الأمر وهي أنهم بشر ممن خلق الله لامزية لهم على سائر البشر في أنفسهم وذواتهم إنما يمتاز بعضهم عن بعض بالعلوم الصحيحة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة لا بالنسب والانتماء إلى الأنبياء والصالحين وصدق القائل :

كن ابن من شئت وأكتسب أدبا يضئك محموده عن النسب
أن الفتى من يقول ها أنسنا ليس الفتى من يقول كان أبي

وقد وجه الله الخطاب لأهل الكتاب عامة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ليكشف لهم عن كثير مما كانوا يحفون به من كتاب الله الذي استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه ويعفون عن كثير مما أثقلهم به الله من تكاليف وحرره عنهم من طبيبات عقابا لهم على مخالفتهم وانحرافاتهم

فالفُرصة إذن سانحة ليتداركوا مافات، ولينجوا بما كتب عليهم في الدنيا والآخرة
عقاباً لهم على الخلاف والأخلاف :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
المائدة ١٥ ، ١٦

وتوالى نداء القرآن لأهل الكتاب ليقطع حججهم ومعذرتهم أن يقولوا :
إن فترة كبيرة مرت عليهم لم يأتهم فيها بشر يقرهم إلى الله أو نذير يخوفهم
الانحراف فيها هو ذا بشر ونذير :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة ١٩ .

وقد وصفت سورة المائدة التوراة والإنجيل أحسن وصف وذكر من أخبار التوراة قصة ابني آدم بالحق ومن أحكامها عقوبات القتل واتلاف الأعضاء والجروح ومن أخبار الإنجيل والمسيح ما هو حجة على الفريقين وبينت أن الكتابين أنزلا نورا وهدى للناس وأنهم لو كانوا أقلاموهما لكانوا في أحسن حال ولسارعوا إلى الإيمان بما أنزله الله على خاتم رسوله مصدقاً لأصلهما ولكنهم اتخذوا الإسلام هزواً ولعباً في جمالته وفي عبادته ووالوا عليه المناصبين له من أعدائه فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم .

١٠ - اليهود

ناقشت سورة المائدة اليهود خاصة فذكرتهم بنعم الله عليهم وبميثاق الله مع نبيه بني إسرائيل التابعين عنهم ، فما الذي كان من بني إسرائيل ؟

لقد تقضوا ميثاقهم مع الله . . تتلوا أنبياءهم بغير حق ، ويتوا الصلب
والقتل لعيسى بن مريم ، وحرّفوا كلمات التوراة عن معانيها وعن مواضع
الاستشهاد بها ، واشتروا بهذا التحريف ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة
الدنيا ، ونسوا بعض شرائع التوراة وأهملوها ، وخانوا محمدا - رسول
الله - أحد الرسل الذين أخذ عليهم الميثاق أن ينصروهم فباءوا بالطرد من
رحمة الله وقست قلوبهم ببعدهم عن هذه الرحمة .

وأن من صفات اليهود الغاية عليهم الحياة والمكر ، وقول الأثم والمباينة
في سماع الكذب وأكل السحت ، والسعي بالفساد في الأرض ، في ايقاد نار
الفتن والحرب ، وقد قتلوا رسل الله إنهم وتمردوا على موسى إذ أمرهم
بدخول الأرض المقدسة وقتال الجبارين فعاقبهم الله بالتيه في الأرض ، وأنهم
كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين فعاقبهم الله على ذلك كله باللعن على السنة
لرسل ، وبالغضب والمسخ ، وهذه الصفات التي غلبت عليهم في زمن البعثة وقبل
زمن البعثة تثبتها تواريخهم وتواريخ غيرهم ، ومن المعلوم أنها لم تكن عامة
فيها ولا شاملة لجميع أفرادهم ولذلك قال سبحانه :

﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْمَلُونَ ﴾ المائدة ٦٦ .

١١ - النصارى

مما جاء في النصارى خاصة أنهم نسوا - كاليهود - حظاً مما ذكروا به
وأنتهم قالوا أن الله هو المسيح بن مريم وقالوا أن الله ثالث ثلاثة وقد رد الله
عليهم هذه العقيدة بالأدلة العقلية وبراءة المسيح منها ومن منتحلها يوم القيامة
وبين لهم حقيقة المسيح وأنه عبد الله ورسوله وروح منه . ولقد أخذ الله الميثاق
عليهم أن يلتزموا بتعاليم رسولهم ولكنهم نسوا جانباً من تعاليمه وأهملوا
جانب التوحيد وهو أساس العقيدة وعند هذا الإنحراف كان الخلاف بين
طوائف النصارى التي لا تكاد تعد . إذ أن هناك فرقا كثيرة صغيرة داخل
كل فرقة من الفرق المعلومة الكبيرة : الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت
والمارون اليوم ومن قبل كان البعوثيون والملكانيون والنساطرة .

وقد اشتدت العداوة بين هذه الفرق . وشهدت المسيحية آثارها منذ القرن الأول للميلاد ، وكانت على أشدها بين الملاكانية واليعاقية والنساطرة ، وهي اليوم على أشدها بين الفرق القائمة . فلا يكاد الإنسان يتصور العداوة الذي بين الكاثوليك والبروتستانت أو بينهم وبين الأرثوذكس أو بين الموارنة والبروتستانت أو سواهم قال تعالى :

﴿ وَرَبِّ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ المائدة ١٤ .

وقد بينت سورة المائدة أن اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين وأن النصارى أقرب الناس مودة إليهم :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ المائدة ٨٢ .

القرآن من عند الله

جملة الآيات الواردة في أهل الكتاب تشهد لنفسها أنها من عند الله تعالى لا من عند محمد بن عبد الله العربي الأُمِّي الذي لم يقرأ شيئاً من الكتب على أن تلك الآيات ليست موافقة لها ولهم موافقة الناقل للمنقول عنه وإنما هي فوق ذلك تحكيم لهم وعليهم وفيهم وفي كتبهم حكم المهيمن السميع العليم .

١٢ - عدالة أحكام السورة الخاصة بأهل الكتاب

لو كان هذا القرآن من وضع البشر نشرع معاملة أهل الكتاب الموصوفين بما ذكر - لاسيما الذين ناصبوا الإسلام العداوة عند ظهوره - بأشد الأحكام وأقساها .

ولكنه تنزيل من حكيم حميد أمر في هذه السورة بمعاملتهم بالعدل

والحكم بينهم بالقسط وحكم بكل مؤاكلتهم وتزوج نسائهم وقبول
شهادتهم والعتق والصفح عنهم . وهذه الأحكام التي شرعت هذه المعاملة
الفضلى لهم نزلت بعد إظهار اليهود للمسلمين منتهى العداوة والغدر . ولكن
السورة تضمنت تأليف قلوبهم واكتساب مودتهم .

وقد ختم الله سورة المائدة بذكر الجزاء فى الآخرة وسؤال الرسل
عن جواب أمهم لهم : ثم براءة المسيح ممن جعله إلها وتفويضه الأمر كله
لله الحق فهو سبحانه المتفرد بالعلم والقلمة والألوهية .

﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴾ المائدة ١٢٠

دروس من سورة الأنعام

١ - كيف أنزلت؟

سورة الأنعام سورة مكية وهي أول سورة مكية في ترتيب المصحف فسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة كلها سور مدنية أما سورة الأنعام فهي أول سورة مكية توضع في السبع الطوال من سور القرآن الكريم .
وقد جاءت عدة روايات تذكر فضل سورة الأنعام وتبين أنها نزلت جملة واحدة مشيعة بالملائكة .

قال الإمام الرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب » :

« إن هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة والثاني أنها شيعها ألفا من الملائكة والسبب في ذلك أنها مشتملة على لائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين »
ويقول القرطبي :

قال العلماء : هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بني المتكلمون أصول الدين . »

وهذه آيات سورة الأنعام (١٦٥) آية وعدد كلماتها (٣٠٥٣) كلمة :



٢ - لم سميت بسورة الأنعام

سميت هذه السورة بسورة الأنعام ، والأنعام ذوات الخلف والظلف : وهي الإبل والبقر والغنم بجميع أنواعها ، لأنها هي السورة التي عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد في غيرها من السور ، فقد ورد ذكر الأنعام في مواضع كثيرة من القرآن عرضاً ، أما سورة الأنعام : فقد جاءت بحديث طويل عن الأنعام ، استغرق خمس عشرة آية ، من أول الآية ١٣٦ إلى آخر الآية ١٥٠ . وقد تناول الحديث عن الأنعام في هذه الآيات من السورة جوانب متعددة ، تتصل بعقائد المشركين فبينت السورة ما في عقائدهم من الخلل والفساد ، إذ كانوا يحرمون بعض الأنعام على أنفسهم ، ويجعلون قسماً من الأنعام لألهتهم وأصنامهم : وقسماً لله ، ثم يجورون على التقسم الذي جعلوه لله فيأخذون منه لأصنامهم .

٣ - تاريخ نزول السورة

نزلت سورة الأنعام في السنة الرابعة من البعثة المحمدية ، أي عقب أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يصدع بالدعوة ويعلنها للناس بعد أن أسربها ثلاث سنين .

وتميزت الفترة التي نزلت فيها سورة الأنعام بقسوة المشركين وعنفهم في مقاومة الدعوة الإسلامية وإنكارها ، فقد بدأت الدعوة سرا ثم جهر النبي بدعوته في مكة ، ونزلت سورة الأنعام بعد الجهر بالدعوة بسنة واحدة ، فاستعرضت الأدلة على توحيد الله وقدرته ثم ساقته أدلة المشركين وشبههم فأبطلتها ونقضتها .

وقد أخذ المشركون بالنجاح الذي صارت عليه دعوة الإسلام حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء وأن تتحدى في صوت عال ونداء جهور ، بعد أن كان المؤمنون بها يلجأون إلى الشجارات والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم ، ورأى المشركون أن محمداً ماض في إعلان دعوته وتلاوة ما أنزل عليه من الكتاب ، وفيه إندار لهم وتقنيد لمعتقداتهم وتسفيه لآرائهم ،

وإنكار آياتهم ، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية ، فكان منهم من يستمع للقرآن متأثرا بقوته أو متذوقا لبلاغته ، ومنهم من يبعد عنه خوفا منه ، يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرة واضحة متحدية ، ووقف هؤلاء الأعداء مشوهين مضطربين ، يشعرون في أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم ، ويترقبون يوما قريبا لانتصارها وانزاهمهم ، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة ، وبإدعائهم كذب الرسول ، وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل ، وأن الله لو شاء لإبلاغ عباده شيئا لأنزل إليهم الملائكة ، وأنكر كفار مكة البعث والدار الآخرة ، واستأنوا في الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم ، ونسوا أن محمدا عاش فيهم عمرا طويلا لم يقل فيهم يوما قولة كاذبة ، ولم يخن فيهم يوما أمانة أو تمن عليها ، وأنهم لذلك كانوا يقبونه بالصادق الأمين ، ولكنهم فكروا فقط في أن الدعوة الجديدة يجب أن تموت في مهدها ، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب .

ووجهت الدعوة الإسلامية بهذا النضال وتحملت جميع مقتضياته وأثقاله ، وكانت سورة الأنعام مثلا لتحقيق هذه الدعوة الإسلامية في هذه الفترة ، فقد جمعت كل العقائد الصحيحة ، وعينت بالاحتجاج لأصول الدين ، وتفنيده شبه الملحدين ، وإبطال العقائد الفاسدة ، وتركيز مبادئ الأخلاق الفاضلة .

٤ - مميزات المكي والمدني

وضع العلماء ضوابط تميز السور المكية من المدنية ، واستنبطوا خصائص الأسلوب والموضوعات التي تناولتها كل مجموعة منهما .

فمن خصائص السور المكية ما يأتي :

١ - الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرسالة وإثبات

البعث والجزاء وذكر القيامة وهولها والنار وعذابها والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية .

٢ - وضع الأسس العامة للفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع ، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء . وأكل أموال اليتامى ظلماً ، وواد البنات ، وما كانوا عليه من سوء العادات .

٣ - ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً للكافرين حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم ، وتسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يصبر على أذاهم ويطمئن على الانتصار عليهم .

٤ - قصر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، بما يصح الآذان ويشتد قرعه على المسامع ، وينبه القلوب ويحرك الأفتدة .

ومن خصائص السور المدنية ما يأتي :

١ - بيان العبادات والمعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والمواثيق ، وفضيلة الجهاد ، والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية في السلم والحرب وقواعد الحكم ومسائل التشريع .

٢ - مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنّبهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .

٣ - الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسياتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين .

٤ - طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها .

٥ - خصائص السور المكية واضحة في سورة الأنعام

« سورة الأنعام مثل كامل للخصائص المكية ، إنها حشد من الصور الفنية العجيبة واللمسات الوجدانية الموحية ، والمنطق الطبيعي الحي » . وهي

كلها من أولها إلى آخرها تنبض بإيقاع واحد ، وسر قرق بماء واحد
وتنبض بينبوع زانح متدق (١) .
« إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة ،
بكل مقوماتها وبكل مكوناتها ، وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية وتطوف بها
في الوجود كله ، وراء بنايغ الحقيقة وموحياتها المستقرة والظاهرة في هذا
الوجود الكبير . . . إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السموات
والأرض ، تلحظ الظلمات فيها والنور ، وترقب الشمس والنجوم ،
وتسرح في الجنات المعروشة وغير المعروشة ، والحياة الباطلة والجارية ،
وتقف على مصارع الأمم الخالية ، وآثارها البائدة والباقية ، ثم تسبح مع
ظلمات البحر والبر وأسرار الغيب والنفس ، والحي يخرج من الميت
والميت يخرج من الحي ومع الحبة المستكنة في ظلام الأرض ، والنطفة
المستكنة في ظلام الرحم . ثم تموج بلجن والإنس ، والطير والوحش ،
والأولين والآخرين والأحياء والأموات ، والحفظة من الملائكة على النفس
بالليل والنهار . . .

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس ، وأقطار الحس ، وأقطار
اللمس وأقطار الخيال . . . ثم إنها اللامسات المبدعة المحيية ، التي تنفض
المشاهد بعدها والمعاني أحياء تمرح في النفس والخيال . وإذا كل مكرور
مألوف من المشاهد والمشاعر جديد نابض كأنما تلتقاه النفس أول مرة ، ولم
يطلع عليه من قبل ضمير إنسان . إلا أنها القدرة المبدعة تبدى في صورة
من صورها الكثيرة فما يقدر على بث الحياة هكذا في الصور والمشاعر والمعاني
إلا الله الذي بث في الوجود الحياه (٢) .

٦ - الأغراض الرئيسية لسورة الأنعام

إن الأغراض الرئيسية التي استهدفتها هذه السورة الكريمة هي تركيز
العقائد الأساسية الثلاث التي كان المشركون يومئذ يتنازعون فيها ، وهاء
العقائد الأساسية وهي :

(١) في ظلال القرآن ٧ - ٢٢ و ٢٤ . (٢) في ظلال القرآن ٧ - ٢٣ .

(أولاً) توحيد الله . ويتصل بهذا إقامة الدليل على وحدة الألوهية ، بلغت النظر إلى آثار الربوبية ، وإلى صفات الله الخالق المتصرف ، كما يتصل بها لإبطال عقيدة الشرك ، وشبهات المشركين ، وتقرير أن العبادة والتوجه والتحرير والتحليل ، إنما ترجع إلى الله .

(ثانياً) الإيمان برسوله الذي أرسل ، وكتابه الذي أنزل ، وبيان وظيفة هذا الرسول ورد الشبهات التي تثار حول الوحي والرسالة .

(ثالثاً) الأيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب وعقاب وجزاء . وسوف نتناول كل غرض من هذه الأغراض بالتوضيح :

(أ) وحدة الألوهية

لقد بدأت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين وعلى لسان كل رسول تلك الحقيقة التي تؤمن بها الفطر السليمة وبدل عليها العالم بأرضه وسماؤه . وما فيه من مخلوقات ناطقة وصامتة ظاهرة وخفية ؛ وما فيه من تحولات وتقلبات ونور وظلمات ؛ وهذه الحقيقة هي أن الإله الذي له (الحمد) المطلق والتتزية الذي لا يحد هو الله ، لأنه هو الذي « خلق » وهو الذي « جعل » ؛ فالخلق إنشاء وإبداع ، والجعل تصريف وتقليب ؛ والعالم أجمع في دائرتيهما ؛ فلا ينفك شيء منه عن كلا هذين المظهرين : « خلق » و « جعل » ومقتضى ذلك أن المخلوق المجهول ، لا يمكن أن يتسامى إلى مرتبة الخالق الجاعل فيعبد كما يعبد ؛ ويقصد كما يقصد ؛ ذلك هو مطلع السورة (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) . وكل ما جاء في هذه السورة إنما هو بيان وتفصيل ؛ أو تمثيل وتطبيق على هذه الحقيقة أحياناً بصفة مباشرة ، وأحياناً بوسائط تقرب أو تبعد .

وهذا هو المعنى الذي يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد

الألوهية استدلالاتاً بوحدة الربوبية ، وذلك في القرآن كثير فأول فاتحة الكتاب :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وأول الكهف :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ .

وأول فاطر :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ .

ولو ذهبنا نتبع هذا المعنى لأوغلنا في التتبع ، ورأينا الكثير من الآيات فإن هذا هو أصل الأديان كلها وهو الحقيقة الأولى كما تجلي ذلك في سورة الأنعام . وقد ساقنا السورة عدداً من الأدلة على توحيد الله ، فهي تلفت النظر إلى مظاهر الملك التام ، والسلطان القاهر في الخلق والتصرف الكامل ، والعلم المحيط فتقول :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ الأنعام ١٢ .

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الأنعام ١٣ .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ ﴾
الأنعام ٥٩

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾

الأنعام ٦٠

وهي تلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، لأن هذا النظر لا بد أن يثمر الإيمان بالله .

بل تلفت نظر الإنسان إلى نفسه ، ليفتكر في داخله كيف خلق ؟ وكيف يفكر وكيف يعيش وكيف يموت ؟

وبهذا تكون الحجة عامة لكل ذي عقل سليم وفطرة صافية وإخلاص

في تطلب الحقيقة من دلائلها الموثقة في آفاق السموات والأرض ولذلك
يقول جل شأنه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت ٥١

(ب) قضية الوحي والرسالة

كما تحدثت سورة الأنعام عن الألوهية والربوبية ، ولفتت الناس
إلى مظاهرها في الخلق والتصرف والتدبير المحكم ، تحدثت عن حقيقة
ثانية تنبئ على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى : ذلك أن من شأن الإله
الرب أن يهدي عباده ويرشدهم إلى ما تصلح عليه أمورهم وتقوم عليه
سعادتهم في دنياهم وأخرامهم .

ومن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم
الكتب لهداية الناس من الضلالة إلى الهدى وإخراجهم من الظلمات إلى
النور .

وقد عنيت سورة الأنعام بهذه الحقيقة ، فتحدثت في كثير من آياتها
عن الوحي والرسالة من جوانب شتى ، بعضها يتصل بإثبات الوحي
وبيان حكمته والرد على منكريه ، وبعضها يرجع إلى بيان ماهو من
وظيفة الرسول وما ليس من وظيفته ، وبعضها يتصل بموقف الناس
أمام الرسالات الألهية ، وبعضها يتعلق بالآداب التي رسمها الله للرسول
وما ينبغي أن يكون عليه سلوكه مع مخالفته وموافقته : قال تعالى :

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ الأنعام ١٩ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

الأنعام ١١٤ .

تكذيب المرسلين :

عرضت السورة لموقف المكذبين من الرسالة وبينت أن التكذيب سنة قديمة . فعلى الرسول أن يصبر وبصابر حتى لا يضيق صدره بتكذيبهم آياه ؛ ولا ييأس من هدايتهم . وبينت السورة حسن عاقبة المرسلين ؛ وسوء عاقبة المكذبين قال تعالى :

﴿ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأنعام ٣٣ ، ٣٤ .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأنعام ١٠ .

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

أثبت القرآن الوحي والرسالة ؛ ثم أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالدليل القاطع والحجة البالغة . فقد نشأ هذا النبي يتيما فقيرا أميا في بيئة مشرقة جاهلة ؛ فمن أين له هذا الكتاب المحكم الذي اشتمل على مبادئ الإصلاح العالمى كلها ؟ والذي لم يستطع العلم فى أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التى جاء بها .

إن القرآن قد تحدى العرب ببلاغته وقوة بيانه فمجزوا عن الإنيان بمثله أو بعشر سور منه ؛ أو بسورة واحدة . وقد تحدى القرآن الزمان كله بجلوده وصحته ؛ وأنه لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . .

﴿ وَمَا قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِيَوْمِ يَوْمِئِذٍ ﴾

الأنعام ٩١

(ج) قضية البعث والجزاء

نزلت سورة الأنعام في السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة وأن يعلن عن العقيدة الإلهية ويقرر حقيقة البعث والجزاء علنا أمام المشركين .

وقد سلكت سورة الأنعام طرقاً شتى في الاستدلال على قضية البعث فقد استدلت عليه بخلق السموات والأرض في مقدمتها العنوانية :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام ١ .

فمن خلق السموات والأرض بقدرته فهو قادر على إحياء الموتي وإعادة خلق الإنسان فخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وكررت هذه الحقيقة وأكدت في آياتها بصور شتى فذكرت أن البعث حق وأن الله بيده الخلق والأمر والبدء والإعادة والحساب والجزاء قال تعالى :

﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الأنعام ١٢ .

وقال سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

الأنعام ١٦٤ .

وقد لَوّن القرآن في قضية البعث والجزاء واستدل عليها بعدد من الأدلة منها أن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه كما يقضيان بأن ينال المحسن إحسانه والمسيء إساءته حتى يظهر المسيء من دنس النفس ويكون أهلاً لرحمة الله الكاملة وهذان شأنان هامين إذ كثيراً ما يرحل الناس عن الدنيا دون أن يسهل طريق النقاء لمن دس نفسه ودون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه وإذن فلا بد من دار أخرى يلقي الإنسان فيها الجزاء أمام حاكم عادل عليم خبير بكل ما قدم الإنسان :

وقد تعرض أحد القضاة الفرنسيين لتاريخ القضاء في فرنسا وأصدر كتاباً ذكر فيه عديداً من الحالات حكم فيها بالإعدام أو الإدانة على متهمين ثم برأتهم الأيام والحقائق وأحصى عديداً من الحالات برأ القضاء فيها متهمين ثم أثبت الأيام وحقائق الأحداث أنهم مدانون .

ثم عقب القاضى بقوله : أنه لا بد من جزاء وحساب أمام قاض آخر لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه حادثة في دار أخرى ليعوض الناس عن أخطاء القضاء في الدنيا وليكون حكمه فيصلاً ومنصفاً للمظلومين ورادعاً للمجرمين وفي القرآن الكريم آيات عدة تؤكد هذا المعنى ، قال تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾
الأنعام ٧٠ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الجاثية ٢١ .
﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَاللَّادِرُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام ٣٢ .

وقد لحن القرآن ونوع في أدلته على إثبات البعث وعرض مشاهد القيامة واضحة للعيان . وعرضت سورة الأنعام لشأن البعث باعتبارها أمراً كاننا ليس موضع إنكار ولا محلا لريب وصورته فيه مواقف المشركين وما سيكونون عليه في ذلك اليوم كأنهم حاضرون معروضون أمام الناس يتأملهم الإنسان ويرى فعلهم وقولهم : قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ الأنعام ٢٢ - ٢٤ .

وقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا قُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَتَرَكْتُمْ مَآخِزَنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾
الأنعام ٩٤ .

إلى غير ذلك مما تضمنته السورة من الوصف العيني لمظاهر البعث الذي يأخذ القلب وينير الوجدان .

٧ - قصة إبراهيم الخليل

حفلت سورة الأنعام بذكر طرف من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وإبراهيم أبو الأنبياء والرسول الذي دافع عن التوحيد وتحلى عباد الأصنام وأخذ يتأمل بفكره في ملكوت السموات والأرض ليرشد قومه عن طريق الحوار إلى فساد إعتقادهم ودليل خطئهم في تأليه الأوكب والقمر والشمس وغيرها . جن عليه الليل وستره الظلام فرأى كوكباً مما يعبدون وهو بين جماعة منهم يتحدثون ويسمرون فجاءهم في زعمهم وحكى قولهم فقال هذا ربي فلما أفل هذا الكوكب وغاب هذا النجم تحت الأفق تفقده فلم يجده وبحث عنه فلم يره فقال لأحب الآلهة المتغيرة من حال إلى حال .

ولما رأى القمر بازغا وهو أسطع نورا من ذلك الكوكب وأكبر منه حجماً وأكثر نفعا قال :

﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ .

استلراجا لهم واستهوا لقلوبهم ، فلما أفل هذا أيضاً واحتجب ، واختفى نوره واستتر قال :

﴿ آئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ الأنعام ٧٧ .

بين لهم أن الله مصدر الهداية : وما نوح التوفيق عند الشك والخيرة . ثم رأى إبراهيم الشمس بازغة يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الدنيا جمالا وملاّت الأرض حياة وبهاء ، وأرجاء الكون نورا وضياء ، فقال : هذا ربّي ، هذا أكبر من كل الكواكب ، وأكثر نفعا وأجل شأنا ، فلما أفلت كغيرها ، وغابت عن عبادها ، رماهم بالشرك وقال :

﴿ إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

فهذه الكواكب التي تنقل من مكان إلى مكان وتتحول من حال إلى حال لا بد لها من خالق يدبرها ويحركها وإله ينظمها ويسيرها ، فهي لا تستحق عبادة ولا تعظيما .

وبعد أن أعلن إبراهيم انصرافه عن آلهتهم ، وبراءته من معبوداتهم أفاض الحديث عن إخلاصه لله بعبادته وخضوعه فقال :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام ٧٩ .

ولقد كان إبراهيم جريئا في إعلان إيمانه ، وإخلاصه لربه ، ومجادلة قومه وإفهامهم أن غير الله لا ينفع ولا يضر . وإن الله وحده هو النافع الضار ، والمعطي المانع ، وهو على كل شيء قدير . وقد ناقش إبراهيم أباه ، وأوضح له طريق الهدى ، وأخلص الدعاء لأبيه أن يلهمه الله طريق الهداية والرشاد ، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه . وهكذا كان إبراهيم عمليا في دعوته ، عمليا في هجرته وعزلته .

وقد ظهرت قدرة إبراهيم وإخلاصه وتضحيته ، حين حطم الأصنام ، ولام قومه على عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، وظهرت بطوالة إبراهيم حين امتحنه الله بنديع ولده اسماعيل ، فامتثل إبراهيم لأمر ربه وخاطب ابنه قائلا :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ

يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾

الصافات ١٠٢ .

وصدق الأب في طاعة ربه ، وصدق الابن في الوفاء والامثال ، وعزم الأب على ذبح ابنه وأخلص النية ، فلما رأى الله منه صدق النية فدى إسماعيل بكبش عظيم وأصبحت الأضحية سنة في كل عام ، يذبحها الغني والمقتدر ويوزع من لحمها على الفقراء وعلى الأصدقاء ، ذكرى للتضحية والفداء . واقتداء بإبراهيم الخليل ، وكم لإبراهيم من مواقف جليلة عظيمة في مصر ، وفي فلسطين ، وفي جوار بيت الله الحرام ، وفي بناء الكعبة وهو يخلص الدعاء لله في كل عمل . وقد مدحه القرآن ووصفه بأحسن الصفات إذ يقول جل جلاله .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَاَمًّا بِكٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

النحل ١٢٠ .

٨ - الوصايا العشر

افتتح الربيع الأخير من سورة الأنعام بالدعوة إلى عشر وصايا هي النهي عن الإشراف بالله ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين والنهي عن قتل الأولاد مخافة الحاجة ، والنهي عن مقاربة الفاحشة في السر أو العلن ، والنهي عن قتل النفس التي حرم الله قتلها . ثم أمرت الآيات بالإحسان إلى اليتيم وإتمام الكيل والميزان ، كما أمرت بالعدل في كل شيء وأمرت بالوفاء بالعهد والاستقامة على الصراط القويم .

الوصية الأولى : من هذه الوصايا العشر التي وردت بسورة الأنعام هي

قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنلِ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾

الأنعام ١٥١ ، وهي الأساس الذي يصلح عليه أمر الناس ، فإن المجتمع الذي يقوم على إيثار الله على كل ما سواه هو المجتمع الفاضل المثالي السعيد .

أما المجتمع الذي يشرك بالله أحلاماً أو يشرك بالله شيئاً ، فإنه مجتمع منحله ،
تسيره المادة الصماء التي لا روح فيها ولا صلاح ولا قرار معها .

والوصية الثانية :

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الأنعام ١٥١ .

فالوالدان سبب في حياة الولد فوجب أن يشكرهما ويحسن إليهما ،
خصوصاً في حالة الكبر والشيخوخة .

والوصية الثالثة .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ الأنعام ١٥٢

أن قتل الإنسان لابنه اعتلال في الطبع أو خلل في العقل ، فإن الولد
بضعة من الوالد ، والشأن حتى في الحيوان أن يضحى الوالد من أجل
أولاده ويحميهم ويتحمل الصعاب في سبيلهم وفي الحديث الصحيح يقول
النبي صلى الله عليه وسلم : « أن من أكبر الكبائر أن تقتل ولدك خشية
أن يأكل معك » . إذ أن الله يبسط الرزق لمن يشاء « وما من دابة في
الأرض إلا وعلى الله رزقها » .

الوصية الرابعة

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ الأنعام ١٥١

والفواحش هي كل فعل تنكره العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ،
والمجتمع الذي يؤمن بأن هناك (فواحش) يجب أن تجتنب و (محاسن)
يجب أن تلتبس هو المجتمع السليم الجادير بالنمو والارتقاء .

الوصية الخامسة

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام ١٥١ .

فالإنسان بنيان الله ، ومن هضم بنيان الله ملعون ، وبذلك يقرر الإسلام

عصمة الدم الإنساني إلا بالحق ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة بغير حق كآذنه اعتدى على الإنسانية كلها . وهو المبدأ الذي يعتبر أن الجريمة اعتداء على المجتمع كله .

والوصية السادسة

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الأنعام ١٥٢ .
فاليتيم عارض يعرض في كل مجتمع ، ومن شأن المجتمعات الناضجة أن ترعى اليتامى وأن تحافظ على صلاحهم في أنفسهم وفي أموالهم . وعلى الوصي أن يعامل اليتيم كما لو كان ابنا من أبنائه فيحسن توجيهه وتأديبه ورعايته وكفالاته حتى ينشأ اليتيم مواطنا صالحا وعضوا نافعا .

والوصية السابعة .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ الأنعام ١٥٢ .
فالأوفون عادل في بيعه وشراؤه يضبط الكيل ويعطي الحق ويأخذ الحق والوصية الثامنة :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ الأنعام ١٥٢ .
والعدل هو أساس الحكم السليم ، العدل في القول ، والعدل في الحكم ، والعدل في الشهادة ، والعدل في كل فعل وعمل .
والوصية التاسعة :

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ الأنعام ١٥٢ .
والوفاء خلة حميدة ، وصفة طيبة من الصفات التي يتحقق بها الخير والصلاح وتستقر عليها أمور الناس .

والوصية العاشرة :

﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الأنعام ١٥٣ .

وهذه الوصية الأخيرة هي الجامعة لكل ما جاءت به دعوة الحق فهي
تدعو إلى السير على طريق الله وشرعة الله وأوامر الله والابتعاد عن طرق
الشیطان ، فطريق الله سبيل النجاح في الدنيا والآخرة ، وفي سورة الفاتحة :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .



دروس من سورة الأعراف

سورة الأعراف هي السورة السابعة في الترتيب المصحفي وهي إحدى السور التي بدئت ببعض حروف التهجى (المص) ولم يتقدم عليها من هذا النوع سوى ثلاث سور سبقتها في تاريخ النزول وهي ن ، ق ، ص .
ويبلغ عدد السور التي بدئت بحروف التهجى تسعا وعشرين سورة ، وكلها سور مكية ما عدا البقرة وآل عمران . وعدد آيات سورة الأعراف (٢٠٦) آيات ، عدد كلماتها (٣٣١٥) كلمة .

١ - معنى فواتح السور

ليس لهذه الفواتح في اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم بيان للمراد منها ، بيد أنه قد أثرت عن السلف آراء متعددة في معاني هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين .

أحدهما : إنها جميعا مما استأثر الله به ولا يعلم معناه أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

ولانيها : أن لها معنى ، وقد ذهبوا في معناها مذاهب شتى :

١ - فمنهم من قال إنها أسماء للسور التي بدئت بها أو أن كلامها علامة على انتهاء سورة والشروع في أخرى .

٢ - ومنهم من قال إنها رموز لبعض أسماء الله تعالى وصفاته .

٣ - ومنهم من قال إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم ، وسياسة

النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها للاستماع إليه واستمالة العقول بشيء غريب على السمع للانتباه والإصغاء للقرآن .

وأشهر آراء علماء البلاغة والبيان أن هذه الحروف ذكرت للتحدى وبيان إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وفي هذا دلالة على أنه ليس من صنع بشر بل تنزيل من حكيم حميد .

ويرى ابن جرير الطبري أن أفضل الآراء في معنى فواتح السور هو اشتغالها على جميع الوجوه التي ذكرها العلماء في معانيها . فهي أسماء للسورة ، وهي رموز ، وهي حروف للتنبيه والتحدى . . الخ .

وسورة الأعراف هي السورة المكية الثانية في ترتيب المصحف ، وهي تنسم بتلك السمات العامة التي أسلفنا الإشارة إليها في الحديث عن سورة الأنعام .

ثم تتميز بظايرها الخاص بعد ذلك من ناحية الموضوعات التي تعالجها والسياق الذي تسير فيه .

وموضوع السورة الرئيسي هو الإنذار . . إنذار من يتولون غير الله ومن يكذبون بآيات الله ومن يستكبرون عن طاعة الله ، ومن ينسون الله ومن لا يشكرون نعمته . إنذارهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة ، ذلك فوق الخزي والهوان والنسيان .

تبدأ السورة بالإنذار ، ثم تسلك بهذا المعنى سبلا شتى وتتصرف فيه تصرفات كثيرة وترسم له صورا متعددة وتلمس به المشاعر لمسات مختلفة . فتارة يأخذ السياق شكل القصة : قصة آدم مع إبليس ، ثم قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أقوامهم لتنتهي كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون عن أمر الله ، وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة أو مشهد الاحتضار تنكشف فيه مصائر المكذبين ، المتكبرين ، ومصائر الطائعين لله رب العالمين .

ويتخلل القصص والمشاهد ما يتسق مع الجو العام من توجيه الأنظار والقلوب ومن الدعوة إلى التوبة والإنابة قبل أن يحل العقاب ويتحقق الإنذار ومن الإشارة إلى عواقب المكذبين من الأمم الخالية التي حق عليها النذير ، ويرد كل ذلك في تناسق مطلق بين السياق والقصة أو السياق والمشهد ، أو السياق والتوجيهات ، فتبدو القصص والمشاهد والتوجيهات كلها أجزاء من هذا السياق العام ملونة بلونه ، مظلمة بجوه محققة للغرض الذي يتجه إليه موضوع السورة الرئيسي من البدء للختم .

٢ — مقاصد السورة ومزاياها

مهدت سورة الأعراف لمقاصدها بيان عظمة الكتاب ، وجلال هدايته وقوة حجته في توضيح الدعوة وإنذار المخالفين بها .

ثم تناولت أهداف الدعوة في مكة ، وهي تقرير رسالة الإسلام وبيان أصول هذه الدعوة : توحيد الله في العبادة والتشريع ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحي والرسالة بوجه عام ، وتقرير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بوجه خاص ، وتلك هي أصول الدعوة الدينية التي كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية .

وقد سلكت السورة في طريقة عرض هذه الحقائق أسلوبين بارزين أحدهما أسلوب التذكير بالنعم والآخرة أسلوب التخويف من العذاب والنقم . أما أسلوب التذكير بالنعم فنراه واضحا في لفتها أنظار الناس إلى ما يلمسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم في الأرض ونعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما في هذا الكون من خيرات سخرها الله له .

أما أسلوب الإنذار والتخويف فهو ظاهر في جو السورة ، وفي قصص الأنبياء فيها وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وقد ساق لنا السورة ما دار بين الأنبياء وأقوامهم ، وسجلت السورة جزاء المكذبين بأمر الله الخارجين على دعوة رسوله وهدايتهم ، وهي ظاهرة تكررت

الإشارة إليها في سور القرآن المكي تحذيرا لأهل مكة أن يصيبهم ما أصاب
الأمم من قبلهم .

٣- عرض إجمالي لأجزاء السورة

سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم وهي أطول
سورة في المكي ، وهي أول سورة عرضت لتفصيل في قصص الأنبياء مع
أهمهم ، وقد نزلت بين جملتين من السور المكية : يكثُر في الجملة التي
نزلت قبلها السور القصيرة ، التي تعرف بسور « الفصل » (١) . ويكثُر في
الجملة التي نزلت بعدها السور المتوسطة التي تعرف بسور « المثين » (٢) .
وتطالعنا سورة الأعراف بالحديث عن عظمة القرآن . وتأمرنا باتباعه
وتحذرننا من مخالفته . وتحثنا على العمل الذي تثقل به موازيننا يوم القيامة (٣)
في بداية تعد براعة استهلال أو عنوان لما تشتمل عليه السورة . وهي
سمة غالبية في سورة القرآن حيث نجد الآيات الأولى منها عنوانا معبرا عن
أهدافها وسماتها .

وفي أول سورة الأعراف يقول سبحانه :

﴿ اَلَمْص . كِتَابٌ اُنزِلَ اِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ
بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ • اَتَّبِعُوا مَا اُنزِلَ اِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا
مِنْ دُونِهِ اَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف ١ - ٣ .

ثم ساق لنا السورة بأسلوب منطقي بليغ قصة آدم مع إبليس : وكيف
أن إبليس قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرمة . فلما أكل
منها هو وزوجه .

(١) تسمى سور المفصل لكثرة الفصل بينها بالبسلة مثل الضحى وألم فشرح . . .

(٢) هي السور التي يكون عددها قرابة مائة آية .

(٣) تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور أحمد السيد الكومي والدكتور محمد سيد

ططاطي ، ص ٦ وما بعدها .

﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾

الأعراف ٢٢ .

ثم وجهت إلى بنى آدم نداء في أواخر هذا الربع منهم فيه عن الإستجابة
لوسوسة الشيطان . قال تعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ
يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . . . ﴾

الأعراف ٢٧ .

وفي الربع الثاني منها نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ،
وتخبرنا بأن الله - تعالى - قد أباح لنا أن نتمتع بالطيبات التي أحلها لنا ،
وتبشرنا بحسن العاقبة متى اتبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا ، ثم تسوق
لنا في بضع آيات عاقبة المكذبين لرسول الله ، وكيف أن كل أمة من أمم
الكفر عندما تقف بين يدي الله للحساب تلعن أختها .

قال تعالى :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا
قَالَتْ أَخْرَاهُمِ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَاهُؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .
قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ
لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾

الأعراف ٣٨ ، ٣٩ .

ثم تبين السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ... ﴾ الأعراف ٤٢ .

وفي أواخر هذا الربع وفي أوائل الربع الثالث منها نراها تسوق لنا تلك
المحاورات التي تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وتحكى لنا ما يحصل
بينهم من تداوات ومجادلات ، تنتهى بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة
على سبيل التذلل والتوسل :

﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ .

فيجيبهم أصحاب الجنة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ • الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا

وَعَرَّضَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .. ﴾ الأعراف ٥٠ ، ٥١ .

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانبا من مظاهر نعم الله على خلقه ،
وتلحونا إلى شكره عليها لكي يزيدنا من فضله .

وفي الربع الرابع منها وفي أواخر الثالث تحدثنا عن قصة نوح مع قومه ،
ثم عن قصة هود مع قومه ، ثم عن قصة صالح مع قومه ، ثم عن قصة لوط
مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه . ولقد ساقنا خلال حديثها
عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم من العبر والعظات ما يهدى القلوب ، ويشفي
الصدور ويحمل العتلاء على الاستجابة لهدى الأنبياء والمرسلين .

لما في الربع الخامس منها فقد بينت لنا سنن الله في خلقه ، ومن مظاهر
هذه السنن أنه - سبحانه - لا يعاقب قوما إلا بعد الابتلاء والاختبار ، وأن
الناس لو آمنوا واتقوا لفتح - سبحانه - عليهم بركات من السماء والأرض
وأن الذين يأمنون مكر خالقهم هم القوم الخاسرون .

قال تعالى :

﴿ تَذَكَّرْ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ • وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا
أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ الأعراف ١٠١ ، ١٠٢ .

ثم عقبنا على ذلك ببيان أن الله تعالى قد ساق قصص السابقين
للعظة والاعتبار :

ثم أسهبنا في الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - فقصة
علينا في زهاء سبعين آية - استغرقت الربع السادس والسابع والثامن -
مادار بينه وبين فرعون من محاولات ومناقشات ، وما حصل بينه وبين
السحرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ الأعراف ١٢١، ١٢٢

ثم حكمت لنا ما لقيه موسى من قومه بني إسرائيل من تكذيب وجهالات ،
مما يدل على أصلاتهم في التمرد والعصيان ، وعراقتهم في الكفر والطغيان .
وفي الرابع التاسع منها حدثتنا عن العهد الذي أخذته الله على البشر بأن
يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم حدثتنا على التفكير والتدبير في ملكوت
السموات والأرض ، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لا يعلمه سوى علام
الغيوب ، وأن الرسل الكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله ، ثم هم بعد
ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

أما في الرابع العاشر والأخير فقد اهتمت السورة الكريمة بإقامة
الأدلة على وحدانية الله ، وأنكرت على المشركين شركهم ، ودعت
الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم :

﴿ تَتَّخِذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف ١٩٩

وأمرتهم بأن يكفروا من التضرع والدعاء :

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ

بِالْقُدُورِ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ . إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ الأعراف ٢٠٥، ٢٠٦

٤ - قصة آدم

ذكرت قصة آدم في سورة البقرة ثم أكملت سورة الأعراف حلقات هذه القصة . وذكرت أن الله خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له إظهاراً لفضله وتنويهاً بما يكون له من شأن بعد أن سألوا عن الحكمة في خلقه وقد ركبت فيه الشهوة والغضب وبهما يفسد في الأرض ويسفك الدماء .

وذكرت السورة موقف إبليس وإبائه السجود والامتنان لأمر الله ، كما ذكرت قصة تأثر آدم بوسوسة الشيطان ، وإغرائه إياه بالأكل من الشجرة وكيف كانت عاقبة آدم في الهبوط من الراحة والاطمئنان إلى الكد والتعب وإلى مكافحة عوامل الشر التي بنيت الحياة عليها وعلى ما يقابلها من عوامل الخير ، ومطالبة الإنسان بأن يقف مع جانب العقل والرسالة الإلهية اللذين يشدان أزره في التغلب على عوامل الشر .

لقد كان آدم في نعيم الجنة يتمتع بما فيها من كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ويمتثل بين أشجارها ويتفياً ظللها ويتفكه بثمارها ويرتوي من حذب مياهها ، وشاركته زوجته هذه المتعة ولكن الشيطان أغراهما بالأكل من الشجرة وأقسم لهما بأنه من الناصحين ، فلما أطاعا الشيطان وأكلا من الشجرة سلب الله عنهما نعمته وحرمهما جنته :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ الأعراف ٢٢ .

وقد ندم آدم وحواء أشد الندم وتابا إلى الله توبة نصوحاً فتاب الله عليهما وأمرهما أن يهبطا إلى الأرض ليكسبا ويعملا فتعمر الأرض وتنتشر الحياة في جنباتها . وقد حذر الله آدم وذريته من الشيطان وإغرائه ، وبين سبحانه أن على المؤمن أن ياجأ إلى ربه وأن يستعين بهداه ولا يخلد إلى الهوى والأيأس من رحمة الله فقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه حتى يقرب إليه التائبون ويلاجأ إليه المؤمنون . فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

والمؤمن يتسامى بغرائزه وينتصر على شهواته وينهى نفسه عن الهوى ويحملها على طريق الفلاح والاستقامة . قال تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ الشمس ٧ - ١٠ .

٥ - نعمة الثياب والزينة

تحدثت سورة الأعراف عن نعم الله تعالى على نبي آدم ، ومن هذه النعم نعمة الملبس الذي يستر الناس به عورتهم ويحملون به أنفسهم هيأ الله لهم مادته من القطن والصوف والحرير وما إليها وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وطرق صناعتها بالغزل والنسيج والخياطة ولقمت أنظارهم إلى أن تقوى الله في الانتفاع بتلك النعمة ، واستخدامها في طاعة الله وشكره . وبذلك تستر الثياب العورة ، وتكون مصدر نعمة لانقمة . قال تعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ ، وَرِيثًا وَكِبَاسًا التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأعراف ٣٦ .

وفي هذا تنبيه إلى أن الحضارة الحقة ليست في كشف المقاتن ولا في إظهار العورات وإنما الحضارة الحقة في السير على سنة الله وهدى رسله وتعاليم أنبيائه .

توسط الإسلام في شأن الزينة

من الآيات المشهورة قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ الأعراف ٣١ .

ومن هذه الآية تلمح سماحة الإسلام ويسره فهو يأمر بالنظافة ويدعو

إلى التجميل والتزين ويحث على التمتع بالطيبات . وفي الحديث الشريف يقول النبي
صلى الله عليه وسلم :

(إِنَّ اللَّهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، طَيِّبٌ
يُحِبُّ الطَّيِّبِينَ) .

وقد جاء الإسلام ديناً وسطاً فقد نهى عن التبذير والإسراف وحذر
من الشح والبخل وأمر بالقصد والاعتدال قال تعالى :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)
الأعراف ٣٢ .

فهو سبحانه خلق الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وفضله على كثير من
المخلوقات وسخر له الكون بما فيه من سماء مرفوعة وأرض مبسوطة وجبال
راسية وبحار جارية وليل مظلم ونهار مضى وأمره أن يستمتع بالطيبات وأن
يبتعد عن المحرمات فهناك حدود بينها الله فالحلال بين والحرام بين وظاهر،
وبينهما أمور مشتبهات فيها شبهة وإثم فمن ابتعد عن الشبهات فقد سلم عرضه
ودينه ومن وقع في الشبهات كانت طريقاً إلى الحرام، كراع يرعى حول الحمى
يوشك أن يقع فيه . وصدق الله العظيم :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ

يُنْفِرُ الْحَقُّ) الأعراف ٣٣ .



دروس من سورة الأنفال

أهداف السورة

من الأسباب المباشرة لتزول سورة الأنفال معالجة شئون حدثت بين المسلمين في غزوة بدر ، منها كراهمتهم للخروج إلى بدر حين دعاهم الرسول إلى الخروج وكراهمتهم للقتال حين وصلوا إلى بدر وتحمم عليهم أن يقاتلوا .

ومنها اختلافهم بعد تمام النصر في قسمة الغنائم .

ومنها اختلاف الرأي في معاملة الأسرى أيقبلون منهم الفداء أم يقتلونهم ؟ وفي جو هذه الشئون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون في خاصة أنفسهم من جهة امثال الأمر والإخلاص والحيلة والحذر من الأعداء ، وتذكر نعم الله عليهم ، والآداب التي يجب مراعاتها أثناء القتال ، وفيما يتصل به ، من إعداد العدة ، والحفاظة على اليهود ، وعلاقة بعضهم ببعض ؛ حتى يكونوا أهلا لما وعدهم الله من النصر والتأييد وحتى يفوزوا بدرجات المغفرة والرضا عند الله .

ولا يفهم من ذلك أن كراهة القتال كانت طابعا عاما بل كانت رغبة فريق قليل ونقر محدود كان يفضل الغنيمة والحصول على التجارة عن القتال ، لكن بقية الجيش كان على استعداد للتضحية والفداء وكان القرآن يوحد الهدف ويرشد الجميع إلى أن القتال أفضل لأن فيه انتصافا للمؤمنين وإعلاء لكلمة الله ودمرا للطغيان ومحطما لطواغيت الكفر وردعا للمشركين ، وقد استشار النبي المسلمين قبل بدء المعركة هل يقدم على القتال ؟ أم يعود إلى المدينة ؟

فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله :
امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى
إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول : اذهب أنت وربك
فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « أشيروا على أيها الناس » فقام سعد
ابن معاذ زعيم الأنصار وقال : يا رسول الله آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن
ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثقتنا على السمع والطاعة ،
فامض لما أردت فنحن معك فو الذي بعثك بالحق نبياً لو استعرضت بنا
هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن
تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا
ما تقر به عينك . وعندئذ أشرق وجه الرسول بالمسرة ، وقال لأصحابه
سيروا وابشروا فإن الله وعدني إحدى الحسنين العير أو النفير وقد
فرت العير فلم يبق إلا النفير فسار المسلمون وكلهم أمل في النصر وتأييد الله.

صور من معركة بدر

نزلت سورة الأنفال في غزوة بدر، وهي الموقعة الفاصلة في تاريخ
الإسلام والمسلمين ، بل في تاريخ البشرية كلها إلى يوم الدين . الموقعة التي
قتل المسلمون أن تكون غايتها غنيمة أموال المشركين ، وقلرب المسلمين
أن تكون فيصلا بين الحق والباطل ، وأن تكون مفرق الطريق في تاريخ
الإسلام ، ومن ثم تكون مفرق الطريق في خط سير التاريخ الإنساني العام ،
والتي ظهرت فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير ،
وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه في أول الأمر .

نزلت سورة الأنفال في غزوة بدر فتضمنت الكثير من دستور السلم
والحرب ، ودستور الغنائم والأسرى . ودستور المعاهدات والمواثيق ، وتضمنت
بعد ذلك الكثير من دستور النصر والهزيمة بتضمنها لأسباب النصر والهزيمة
ولواجبات المجاهدين في الأعداد والإستعداد ، ثم ترك الأمر بعد ذلك لله

وما النصر إلا من عند الله . ثم إنها تضمنت بعد ذلك مشاهد من الموقعة ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفي ثناياها وبعدها . مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها ؛ كأن القارئ يراها . وإلى جوار المعركة استطراد السياق أحيانا إلى صور من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحياة أصحابه في مكة ، حين كانوا قليلا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس . وصور من حياة المشركين قبل هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من بين ظهرائهم ومن بعدها . وأمثلة من مصائر الكافرين من قبل - كدأب آل فرعون والذين من قبلهم - والدأب معناه الصفة والشأن أى أن شأن الكافرين واحد في تكذيب الرسل ، واستحقاق العقاب ، وبذلك تقرر السورة سنة الله التي لا تتخلف في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين .

الغنائم

لقد افتتح الله السورة بالحديث عن الأنفال ، وهي الغنائم التي يغنمها المسلمون في جهادهم لإعلاء كلمة الله . وقد ثلر بين أهل بدر جدال حول تقسيمها بعد النصر في المعركة فردم الله إلى كلمته وحكمه فيها ، ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله واستجاش فيهم وجدان التقوى والإيمان ، ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا هم لأنفسهم من الغنيمة وما أراد الله لهم من النصر ، وكيف سارت المعركة وهم قلة لا عدد لهم ولا عدة وأعداؤهم كثرة في الرجال والعتاد ، وكيف ثبتهم الله بمدد من الملائكة ، وبالمنطق يستقون منه ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ في الرمال وبالنعاس يفتشهم ؛ فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان ويلقى الرعب في قلوب أعدائهم وينزل بهم شديد العقاب . قال تعالى :

﴿ إِذْ يُفَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَّةً مِّنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ . الأنفال ١١ .

الحرب والسلام

تضمنت سورة الأنفال دراسة كاشفة و تصويرا ملموسا للمواقف الناجحة والحروب المفادفة ؛ كما رسمت السورة - مع سور أخرى في القرآن الكريم - أسباب النصر في الميدان ، ومن هذه الأسباب ما يأتي :

١ - إخلاص النية والرغبة في الشهادة وإيثار الآخرة على الدنيا وتحمل تبعات الحرب وآلام القتال .

٢ - الثبات في اللقاء وتذكر الله في العسر واليسر وعدم الفرار من الميدان . وبذل النفس والنفيس في سبيل الله :

٣ - إعداد العدة وتجهيز أدوات القتال والتدريب عليها مع وحدة الصف وتماسك القوى وترابط المقاتلين .

٤ - التوكل على الله والالتجاء إليه بعد الأخذ في الأسباب وطاعة القائد وتنفيذ الأوامر والمحافظة على النظام وأخذ الحذر .

٥ - البعد عن النزاع والاختلاف في حال القتال وما يتعلق به فإن النزاع والخلاف من أكبر الأسباب في إذهاب القوة وتمكين الأعداء :

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

أى لا تختلفوا فإن الخلاف يؤدي إلى الضعف والهزيمة وضياع

القوة والنبوة .

٦ - عدم تصديق الإشاعات والأراجيف ومصاولة اليأس والقنوط والقضاء على أساليب العدو وعلى الحرب النفسية التي يشنها رغبة منه في تضييق الهمة واليأس من النصر .



ومن ثم يأمر الله أمير المؤمنين في سورة الأنفال أن يثبتوا في كل قتال مهما خيبل إليهم في أول الأمر ، من قوة أعدائهم فإن الله هو الذي يقتل وهو

الذى يرمى وهو الذى يدبر ، وما هم إلا أسباب ظاهرة لتنفيذ إرادة الله ،
ويستخر القرآن من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون ، فيطلبون
أن تدور الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم فيقول :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ .

ويحذر المسلمين أن يتشبهوا بالكفار والمنافقين الذين يسمعون بأذانهم
ولكنهم لا يسمعون بقلوبهم لأنهم لا يستجيبون ولا يهتدون .

ثم تدعو السورة المسلمين إلى الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحبههم ،
ولو خيل إليهم أن فيه القتل والموت ، وتذكرهم كيف كانوا قليلا
مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس فأعزهم الله ونصرهم ، وأنهم إذا
اتقوا الله جعل لهم فرقا من النصر الكامل ذلك فوق تكفير السيئات وغفران
الذنوب وما ينتظرهم من فضل الله الذى تتضاءل دونه المغانم والأموال .

وكما وضعت سورة الأنفال صفحة فى كتاب الإسلام عن الجهاد ،
فإنها قابلتها بصفحة أخرى عن السلم لمن ينجح إليه ويختار الهدنة . ويتضح لنا
من السورة أن السلم هو القاعدة فى الإسلام ، أما الحرب فطارئة للرفع
الباطل وإقرار الحق ومن ثم يدعو الإسلام إلى السلم دهوته إلى الجهاد ،
ويحافظ على العهد ما وفى به المعاهدون ويؤمن المخالفين للإسلام فى العقيدة
من كل اعتداء غادر ويحصر الحروب فى أضيق نطاق تقضى به ضرورة
تأمين السلم والحق والعدل ، ويعتد الناقضين للعهد من عالم الحيوان لآمن
عالم الإنسان .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴾ . الأنفال ٦١

والتعبير عن الميل إلى السلم بلحنوع تعبير لطيف يلقى ظل الدعة الرقيق

فهي حركة جناح يميل إلى السلم ويرى ريشه في وداعة واطمئنان فإذا الجح
من حوله طمأنينة وسلام .
وهناك حالة استثنائية واحدة هي حالة جزيرة العرب التي سيجيء
في سورة براءة نبذ عهود المشركين فيها جميعا وتخليصها من الشرك كافة
لتكون موطننا خالصا للإسلام .

صفات المؤمنين

تعرضت سورة الأنفال لبيان صفات المؤمنين كما ورد تحديد هذه
الصفات في أول سورة البقرة وأول سورة المؤمنون ، وفي سورة الفرقان ،
وفي كثير من السور .

وإذا استوعبنا هذه الآيات وجدناها تدور حول تحديد المؤمن - الذي
يريده الله - بمن يجمع بين سلامة العقيدة وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ،
وبمن يكون في ذلك كاه مثالا صادقا وصورة صحيحة لأوامر الله وإرشاداته .

وقد وصف الله المؤمنين في سورة الأنفال بخمس صفات هي : وجل
القلوب عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته ، والتوكل على الله
وحده ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزق الله . ثم بين أنهم بهذه الصفات
يكونون أهل الإيمان حقا وأن لهم عند الله درجات عالية في الجنة .

فالمؤمن حقا يراقب مولاه ، ويرجو رحمته ، ويخشى عقابه ، ويخشع
عند تذكير آياته ، وهو في خشوعه وخضوعه وعبادته مخلص القلب
ثابت اليقين .

ومن صفة المؤمن زيادة إيمانه ورسوخ عقيدته عند تلاوة القرآن وتدبر
آياته ، ومعرفة أحكامه وأمراره ، كما أن إقامته للصلاة وأداءه للزكاة ،
وعمله بمقتضى هذا الإيمان سلوكا وتطبيقا ، مما يزين الإيمان في القلب ويزيده
ثقة ويقينا .

فالصلاة في حقيقتها مناجاة ومناداة وخشوع وخضوع وقراءة ودعاء

ومن ثمرتها طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر وتهذيب الغرائز وتقوم السلوك وتربية الضمير . والزكاة فيها تكافل المجتمع وترابط الأغنياء والفقراء .

وفي سورة الأنفال حث على الإنفاق من كل ما رزق الله وهو يشمل - كما فصل الفقهاء - زكاة الأموال وزكاة الزروع والثمار وزكاة الماشية وزكاة الركاز وكل ما يستخرج من باطن الأرض ، وزكاة التجارة . ولا تكاد تجد آية عرضت للصلاة إلا وتذكر الإنفاق في سبيل الله . كما أنا لا تكاد تجد آية تعرضت لأوصاف المؤمنين وتهملهما أو تهمل أحدهما .

فقد جعل الله إقامة الصلاة مثالا لبذل النفس في سبيله وجعل الإنفاق مثالا لبذل المال في سبيله .

وبذلك يتسم الإيمان بطابع تهذيب النفس وطهارة القلب ، كما يتسم بأنه دافع عملي إلى السلوك النافع والعمل الصالح الذي يؤدي إلى إصلاح المجتمع وتماسك الأمة وتقوية روابط المودة والرحمة والألفة بين الناس .

نداءات إلهية للمؤمنين

أخذت سورة الأنفال تنادي المؤمنين ست مرات بوصف الإيمان في النداء الأول تأمرهم بالثبات في الميدان والشجاعة في القتال وتنهام عن الفرار من المعركة وتتوعد الفار من ميدان القتال بعذاب السعير وغضب الله العلي القدير والنداء الثاني يشتمل على الأمر بطاعة الله ورسوله ، وقد امتثل المسلمون لذلك الأمر فانقادوا لأحكام الله وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، وهذا الطريق هو طريق النصر للسابقين واللاحقين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . الأنفال ٢٠

والنداء الثالث - الاستجابة لله وللرسول وتغليب أمرهما على كل ماسواهما من أوامر وفي الحديث الشريف :

﴿ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ

أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْعَزْمَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهُ
أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ ﴿

النداء الرابع - دعوة إلى ترك الحياة والجمد عن إفشاء أمرار الأمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . الأنفال ٢٧

النداء الخامس - دعوى إلى تقوى الله في أحكامه وسننه وبيان أن التقوى
شجرة مثمرة وأعظم ثمارها النور الذي يبصر صاحبه بالحق والعدل
وطريق الصلاح والهدى :

النداء السادس - يأمر بذكر الله وتلاوة كتابه وينهى عن الفرقة
والتنازع والاختلاف ويحث على الصبر والتمسك بالوحدة والجماعة ، حيث
يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . الأنفال ٤٥

دروس من سورة التوبة

أسماء السورة

عرفت سورة التوبة من العهد الأول للإسلام بجملة أسماء، تلك بمجموعها على ما اشتملت عليه من المبادئ والمعاني التي تجب مراعاتها في معاملة الطوائف كلها مؤمنهم ومنافقهم وكتابهم ومشرکهم .

وأشهر هذه الأسماء « سورة التوبة » ، وهو يشير إلى ما تضمنته السورة من تسجيل توبة الله وتعام رضوانه على المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا في مناصرة الدعوة ، وصدقوا في الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى وصل بهم إلى الغاية المرجوة ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِإِثْمِهِمْ رِغْوْفٌ رَحِيمٌ ۗ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

التوبة ١١٧ ، ١١٨ .

ولا ريب أن تسجيل هذه التوبة للمؤمنين - بعد أن كابدوا الجهاد والمخاطر في سبيل نصرته الحق - لما يقوى روح الإيمان في قلوبهم ويهد بهم عن مزالق المخالفة أو التقصير .

وقد تخلف ثلاثة من المسلمين عن الاشتراك في الجهاد ولم يساهموا في
أعيان جيش العسرة فأمر النبي بمقاطعتهم ومعاقبتهم ومكثوا فترة من الزمن في
عزلة تامة بغرض تأديبهم وتهذيبهم ثم تاب الله عليهم وقبل توبتهم وكان ذلك
درساً تعليمياً للمسلمين حتى لا يتخلفوا عن الجهاد ولا يقصروا في القيام بأعباء
الدين وتعاليمه .

ومن أمهات السورة براءة ، وهي تشير إلى غضب الله ورسوله على من
أشرك بالله وجعل له ندا وشريكا وإعلام الناس في يوم الحج الأكبر .

﴿ أَنْ اللَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة ٣ .

وقد عرفت السورة بعد ذلك بأسماء أخرى فكانت تسمى الكاشفة والمثيرة
والفاضحة والمنكلة وغير ذلك مما حفلت به كتب التفسير وهي ألقاها أطلقت
عليها باعتبار ما قامت به من كشف أسرار المنافقين وإثارة أسرارهم وفضيحتهم بها
وتنكيلها بهم .

ورد أن ابن عباس رضى الله عنه قال : سورة التوبة هي الفاضحة ما زالت
تنزل في المنافقين وتقال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحدا إلا ذكرته بقولها :
ومنهم ، ومنهم ، ومنهم .

وهو يشير إلى ما جاء في هذه السورة من أصناف المنافقين مثل :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذُنٌ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ .

التوبة ٤٩ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ

يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْفُونَ ﴾ التوبة ٥٨ .

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى

النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ

عَظِيمٍ ﴾ التوبة ١٠١ .

أين البسمة ؟

من خصائص سورة التوبة أنه لم يذكر في أولها بسم الله الرحمن الرحيم لأنها تبدأ باعلان الحرب الشاملة ، ونبهه اليهود كافة ، والبسمة تحمل روح السلام والطمأنينة ، لذلك لم تبدأ بها سورة الحرب والقتال .

وربما كان سبب عدم وجود التسمية في أولها ، الاشتباه في أنها جزء من سورة الأنفال خصوصاً وأن سورة الأنفال تحكى جهاد المسلمين في معركة بدر وسورة التوبة تصف جهاد المسلمين في معركة تبوك ، فقصة الأنفال شبيهة بقصة سورة التوبة من ناحية الهدف العام والتحريض على الجهاد والتحذير من التخلف عن أمر الله رسوله . لذلك تركت سورة التوبة مع سورة الأنفال . ووضع بينهما فاصل السورة ولم يكتب في أول التوبة بسم الله الرحمن الرحيم . احترازاً من الصحابة أن يضيفوا أى شيء إلى رسم القرآن إلا بتوجيه من النبي صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذى بإسناده عن ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم ؟

ووضعتموها في السبع الطوال ، ما حملكم على ذلك ؟

فقال عثمان كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشيء دعاه بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، ونحشيت أنها منها ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعنا في السبع الطوال .

أهداف سورة التوبة

سورة التوبة هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف وهي من السور المكية وقد نزلت في أواخر السنة التاسعة من الهجرة . وهي السنة التي خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين إلى تبوك . بقصد غزو الروم كما خرج أبو بكر في أواخر سنة تسع على رأس المسلمين لحج بيت الله الحرام .

مدفان أصليان

وقد كان للسورة بحكم هذين الحادثين العظيمين في تاريخ الدولة الإسلامية هدفان أصليان :

أحدهما : تحديد القانون الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام : وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركي العرب بإلغاء معاهدتهم ، ومنعهم من الحج ، وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين ، وبوضع الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب وإباحة التعامل معهم .

ثانيهما : إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبي صلى الله عليه وسلم حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزو الروم ، وفي هذه الدائرة تحدثت السورة عن المتأقلين منهم والمتخلفين والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فن المنافقين وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد وما قاموا به من أساليب النفاق :

وقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول . واستغرق ذلك سبعة وثلاثين آية في أول السورة ، وقد تضمنت هذه الآيات ما يأتي :

- (أولاً) تقرير البراءة من المشركين ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم .
- (ثانياً) منحهم هدنة مقدارها أربعة شهور .
- (ثالثاً) إعلان الناس جميعاً يوم الحج الأكبر (وهو يوم عيد الأضحى) ببراءة البراءة :

(رابعاً) إتمام مدة العهد لمن حافظ منهم على العهد .

(خامساً) بيان ما يعاملون به بعد انتهاء أمد الهدنة أو مودة العهد .
(سادساً) تأمين المستجير حتى يسمع كلام الله .
(سابعاً) بيان الأسباب التي أوجبت البراءة منهم وصدور الأمر بقتالهم .
(ثامناً) إزالة وساوس قد يخطر في بعض النفوس أنها تبرر مسالمة
المشركين أو الإبقاء على عهودهم .

رحمة الله بالعباد

لقد برىء الله من المشركين ومن فعالمهم لأن الشرك والكفر ظلم عظيم
وجحود بحق الله الخالق الرازق ، الذي يستحق العبادة وحده ، لكن
الله أمهل المشركين مدة أربعة أشهر تمكينهم من النظر والتدبير لاختيار
ما يرون فيه مصلحتهم من الدخول في الإسلام أو الاستمرار على العداوة .

ولعل الحكمة في تقدير تلك المهلة بأربعة أشهر أنها هي المدة التي
كانت تكفي لتحقيق ما أبيع لهم من السياحة في الأرض والتقلب في شبه
الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون
أخذ رأيه في تكوين الرأي الأخير . قال تعالى ،

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
فَسَيَحُورُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ
اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة ٢٤١ .

ومن رحمة الإسلام أيضاً لإباحة تأمين المشرك ، وتقدير عصمة
المستأمن وقد أوجب الله على المسلمين حماية المستأمن في نفسه وماله
مادام في دار الإسلام وجعل لأفراد المسلمين حق اعطاء ذلك الأمان (فالاسلمون
عدول يسعى يذمتهم أذناهم) .

والإسلام يبيع بهذا الأمان التبادل التجاري والصناعي والثقافي ، وسائر
الشئون مالم يتصل شيء منها بضرر الدولة . وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان

وسيلة قوية لنشر دعوته وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية
من غير حرب ولا قتال . قال تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ
اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . التوبة ٦ .

فالإسلام يمنح الجوار والأمان للمشرك الذي يبحث عن الحقيقة ،
ويريد أن ينظر في الإسلام نظر تأمل ودراسة ، فيسمح له بالدخول فيما
بين المسالمين والتعامل معهم ، والاختلاط بهم : حتى يفهم حكم الله
ودعوته ، فإن اطمأن ودخل الإيمان في قلبه التحق بالمومنين ، وصار في
الحكم كالتائبين ، وإن لم يشرح صدره للإسلام وأراد الرجوع إلى
جماعته ، حرم اغتياله ووجب المحافظة عليه حتى يصل مكان أمانه
واستقراره .

وبذلك بلغ الإسلام شأوا بعيدا في حماية الفكر والنظر ، وتذليل
الطريق أمام الباحثين والمفكرين وحمائيتهم حتى يصلوا إلى مواطن الأمان
أيا كانت معتقداتهم ، وصاق الله العظيم :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ البقرة ٢٥٦ .

غزوة تبوك

في السنة التاسعة من الهجرة وصات للرسول صلى الله عليه وسلم أنباء
تفيد أن الروم قد جمعوا جمرتهم ، واعتزموا غزو المسلمين في بلادهم ،
فأمر النبي أن يتجهز المسلمون وأن يأخذو عابثهم ويخرجوا إلى تبوك لقتال
الروم في بلادهم قبل أن يفاجئوه في بلده .

أعلن النبي التغير العام ، وكان صلى الله عليه وسلم قلما يخرج إلى
غزوة إلا ويرى غيرها مكيدة في الحرب ، إلا ما كان من هذه الغزوة -
غزوة تبوك - فقد صرح بها لبعث الشقة وشدة الزمان إذ كان ذلك في
شدة الحر حين طابت الظلال ، وأينعت الثمار ، وحجب إلى الناس المقام .

عندئذ وجد المنافقون فرصة سانحة للتخذيل فقالوا : لا تنفروا في
الحر ، وخوفوا الناس بعد الشقة وحذروهم شدة بأس الروم . وكان لهذا
كله أثره في تشاغل بعض الناس عن الخروج الجهاد .

كذلك أخذ المنافقون يستأذنون في التبخلف عن الغزو معتذرين
بالأعداء الكاذبة الواهنة كما دبر بعضهم المكائد للنبي صلى الله عليه وسلم
في ثنايا الطريق .

ولم يكن يد من هذا الامتحان ليكشف الله المنافقين ، ويثبت المؤمنين
الصادقين فالشدائد هي التي تكشف الحقائق وتظهر الحبايا .

وقد ظهر الإيمان الصادق من المؤمنين المخلصين فسارعوا إلى تلبية
الدعوة بأموالهم وأنفسهم ، يجهزون الجيش ويعدون العدة وقد خرج
أبو بكر حينئذ عن كل ما يملك ، كما قام بنصيب الأسد في التجهيز عثمان بن
عمران ، بذل الآلاف وجهد المئات من البعير والحيل ، وجهد هو وغيره
الفقراء الأقوياء الذين جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأنفسهم ليحملهم
فقال لهم :

﴿ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ التوبة ٩٢ .

ثم يستمر سياق سورة التوبة في الحديث عن المنافقين وما يظهر منهم من
أقوال وأعمال تكشف عن نواياهم التي يحاولون سترها فلا يستطيعون ،
فمنهم من ينتقد النبي صلى الله عليه وسلم في توزيع الصدقات ويتم عدلته
في التوزيع ، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم . ومنهم من يقول هو أذن
يستمتع إنكل قائل ، ويصدق كل ما يقال . ومنهم من يتخفى بالقولة
الفاجرة الكافرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليرى
نفسه من تبعه ما قال ، ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة
تفصح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين .

ثم تقارن السورة بين المنافقين والمؤمنين ، لتبين الفرق الواضح بين

صفات المنافقين ، و صفات المؤمنين الصادقين ، الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون ، فقد خرج المؤمنون للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعوا مسافة طويلة في الصحراء الجرداء تقدر بنحو ٦٩٢ كيلو مترا وكان المؤمنون يتدافعون إلى الجهاد ويشتاقون إلى الشهادة . ولما أحس الروم بقدوم المسلمين انسحبوا من أطراف بلادهم إلى داخلها ، فلما وصل المسلمون إلى تبوك لم يجدوا للروم أثرا وقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم معاهدات مع أمراء الحدود وعاد إلى المدينة مرهوب الجانب محفوظا بعناية الله .

وقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم المتخلفين عن الجهاد في غزوة تبوك فمنهم أصحاب الأعذار الحقيقية وهؤلاء معذورون معفون من التبعة ، ومنهم القادرون الذين قطعوا بلون عذر فعليهم تبعه التخلف ووزر النكوص عن الجهاد .

ثم تمضى سورة التوبة فتحدثت عن الأعراب فتذكر طبيعتهم وصنوفهم وموقفهم من الإيمان والنفاق .

ثم تقسم الجماعة الإسلامية كلها عند غزوة تبوك وبعدها إلى طبقاتها بدرجاتها وفق مقياس الإيمان والأعمال .

فهناك السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .

وهناك المنافقون الذين تمرسوا بالنفاق وتعودوا عليه سواء كانوا من الأعراب أو من أهل المدينة .

وهناك الذين نخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا واعترفوا بذنوبهم ، وهناك الذين أنخطئوا وأمرهم متروك لله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، وهناك فئة أنخلصت لله في الإيمان وتخالفت من غير عذر ثم ندمت فلما عميقا وضاعت الدنيا في وجهها ولحأت إلى الله تطلب مغفرته ورحمته فتاب الله عليهم وأهدى لهم طريق التوبة والسداد ، إن الله هو التواب الرحيم .

علاقات المسلمين بغيرهم

سورة التوبة هي آخر سور القرآن نزولا ، وفي هذه السورة نجد القول الفصل في علاقات الأمة المسلمة بالمشركين وبأهل الكتاب والمنافقين وهذا هو موضوعها الذي تدور حوله .

لقد كانت بين المسلمين وبض المشركين - يهود ولم يكن المشركون يحافظون على عهودهم إلا ريثما تلوح لهم فرصة ، يحسبونها مواتية للكفرة على المسلمين ، وكان المشركون - حتى بعد فتح مكة - يطوفون بالبيت عرايا ، على عادتهم في الجاهلية ، ويصفقون ويصفرون مخلصين بكرامة البيت العتيق ، فلم يكن بد أن تخلص الجزيرة العربية للإسلام ، وأن تتخلص من الشرك .

والجهاد هو الوسيلة لتطهير الجزيرة من رجس المشركين والمنافقين ، ومن ثم تناولت السورة موضوع الجهاد بالنفس ، والمال ، وبينت شرفه وأجره . وأحث على المتخالفين القاعدين ، واستجاشت وجدان المسلمين إلى قتال الكفار المنافقين بما صورت من كيدهم للمسلمين وحقدهم عليهم ، وتمنى الشر لهم . وما تحمله لهم نفوسهم من الخصومة والبغضاء . وما وقع منهم للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين . وبذلك كانت سورة التوبة تحمل القول الفصل في علاقات المسلمين بغيرهم وتحدد موقفهم الحاسم الأخير .

وقد لونت السورة أشاليب الدعوة إلى الجهاد : فحينما تنكر على المؤمنين ثأقلهم وإخلادهم إلى الأرض . وحينما آخرتهم بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخللان . ومرة أخرى توضح أن سنة الله ماضية لا تتخلف . وأن من قوائن الحق سبحانه أن البقاء والعزة والسلطان إنما يكون للمسلمين المجهدين ، أما المتباطئون والمتخاذلون الذين يؤثرون حياتهم ويضنون بأنفسهم وأموالهم ويخلدوا إلى الأرض ويعرضون عن دعوة الجهاد في سبيل حريتهم وبقائهم ، فإنهم ولا بد ذاهبون ، وهم لا محالة مستعدون .

فضل الرسول الأمين

تعرضت سورة التوبة لبيان فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانته السامية ومناقبه الكريمة ، فذكرت أن الله أنزل السكينة عليه وأيده بجنود من الملائكة في يوم حنين حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين .

ومن كرامة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله نصره عند الهجرة مع صاحبه الصديق . وكان الله معهما بتأييده وإنزاله الطمأنينة والأمان عليهما وحفظهما في الغار حتى عميت عنهما عيون الكفار، وجعل الله كلمة المؤمنين في ارتفاع وانتصار ، وشأن الكافرين في هزيمة واندحار ، وقد أوجبت سورة التوبة على المؤمنين عدة واجبات تجاه نبيهم منها :

١ - وجوب محبته صلى الله عليه وسلم والتزام هديه والعمل بسنته كما نجد ذلك في الآية ٢٥ .

٢ - تحرى مرضاته لأن رضاه من رضى الله سبحانه . ونجد ذلك في الآية ٦٢ .

٣ - وجوب طاعته والنصح له ووجوب نصره .

٤ - تحريم ايذائه وتحريم معاداته وتحريم القعود عن الخروج معه في الجهاد .

وتختم السورة آياتها بذكر صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهو الرحمة المهداة لتنطهير المؤمنين وتزكيتهم وتعليمهم ، والدعاء لهم ، فحبه فريضة ، وبغضه كفر وحرمان . وقد تكفل الله بنصر رسوله حتى ولو تخلى عنه جميع الناس فإن معه الله القوى القدير ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ التوبة ١٢٨، ١٢٩ .

دروس من سورة يونس

نزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السور التي نزلت بين الإسراء والهجرة ، فهي سورة مكية من أواخر ما نزل من القرآن بمكة .

وقد سميت بهذا الاسم لذكر قصة يونس فيها ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية .

أهدافها الإجمالية

موضوعات هذه السورة هي موضوعات السور المكية الغالبة، وهي الجدل حول مسائل العقيدة والتوجيه إلى آيات الله الكونية ، وإلى سنن الله في الأرض وإلى العظة بالتقرون الخوالي ومصائبها وعرض بعض القصص من هذا الجانب الذي تبرز فيه العظة واللمسات الوجدانية التي تنتقل بالإنسان من آيات الله في الكون إلى آياته في النفس ، إلى مشاهد القيامة المؤثرة ، إلى قصص الماضين ومصائبهم ، كأنها جميعا حاضرة معروضة للأنظار .

وهذه السورة تتضمن شيئا من هذا كله ، وينتقل السياق فيها من غرض إلى غرض بمناسبة ظاهرة أو شخصية بين مقاطعها ، ولكن جوهرها كله هو هذا الجوحى ليصعب الفصل بين مقطع ومقطع فيها في أغلب الأحيان .

الدرس الأول - مظاهر قدرة الله

يبدأ القسم الأول من السورة بحروف ثلاثة هي ألف ، لام ، را ، كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران بحروف مشابهة ذكر العلامة أنها

أسماء للسورة أو إشارة إلى إسماء الله تعالى وصفاته أو هي لبيان إعجاز القرآن الكريم، أو هي مما استأثر الله تعالى بعلمه . ثم تأخذ السورة في عرض عدة أمور هي بيان حكمة القرآن وطريقته في تنبيه الغافلين إلى تدبر آيات الله، في صفحة الكون وتضاعيفه: في السماء والأرض ، وفي الشمس والقمر ، وفي الليل والنهار .. وفي مصارع القرون الأولى . . وفي قصص الرسل فيهم . . وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود .

ثم تشرح السورة الحكمة في الإيحاء إلى رجل من البشر يعرفه الناس ويظمنون إليه وبأخذون منه ويعطونه بلا تكلف ولا جفوة ولا تخرج . وتذكر الحكمة من إرسال الرسل .

فالإنسان بطبعه مهياً للخير والشر ، وعقله هو أذاته للتمييز ، ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً كلما اختلط عليه الأمر وأحاطت به الشهوات وجذبت التيارات والشهوات . وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته :

وتلفت سورة يونس النظر إلى خالق السموات والأرض وتدير الأمر فيهما ، وإظهار قدرة الله :

﴿ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ﴾ .

يونس ٤٥

وقدر اختلاف الليل والنهار ، إن الله الذي خلق هذا ودبره هو الذي يليق أن يكون ربا يعبد ولا يشرك به شيء من خلقه .

إن هذا الليل المظلم ، الساكن لإامن ديب الرؤى والأشباح . وهذا نجر المنفتح في نهاية الليل كإبتسامة الوليد، وهذه الحركة التي يتنفس بها صبح فيديب النشاط في الحياة والأحياء ، وهذا الطير الراح الغادي القافز إلى الذي لا يستقر على حال . وهذا النبات النامي المتطلع أبداً إلى النور والحياة ، وهذه الخلائق الداهية الآبية في تدافع وانطلاق . وهذه الأرحام تنفع ، والقبور التي تبلى والحياة ماضية في طريقها كما شاء الله .

إن هذا الحشد من الصور والأشكال ، والحركات والأحوال والرواح والذهاب والبعث والتجدد والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة في هذا الكون الهائل التي لا تفتى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار . إن هذا كله ليستنهض كل هممة في كيان البشر للتأمل والتدبر والتأثر حتى يستيقظ القلب ويتفتح لمشاهدة الآيات المبهوثة في ظواهر الكون وحنياه والقرآن الكريم يعتمد مباشرة إلى إيقاظ القلب لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات وتأمل قدرة الله في اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر فيطول الليل في الشتاء ويقصر في الصيف ، ويطول النهار في الصيف ويقصر في الشتاء . ووراء كل إبداع يد الله القدير الذي رفع السماء وزينها بالنجوم وحفظها من التصدع والوقوع ، وبسط سبحانه الأرض وثبتها بالجبال وزينها بالنبات وأحيها بالأمطار .

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ يونس ٦ .

الدرس الثاني - الأدلة على وجود الله

يستهل الدرس الثاني من سورة يونس بإعلان جزاء المؤمنين وعاقبة المكذبين حيث يقول سبحانه .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ يونس ٢٦

فالجزاء الحق من جنس العمل ، فمن عمل صالحا في الدنيا أدخله الله الجنة ومتعته بالطيبات ونجاه من النار .

ثم تستمر الآيات في بيان عقوبة المكذبين ، وجزاء الخائنين ، وتسوق السورة عددا من الأدلة والبراهين تنهى كلها إلى هدف واحد هو إشعار النفس بتوجيه الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر ، والقسط في الجزاء .

تلمس الأدلة أقطار النفس ، وتأخذ بها إلى آفاق الكون في جولة واسعة .

شاملة ، جولة من الأرض إلى السماء ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس ومن
ماضى القرون إلى حاضر البشر ومن الدنيا إلى الآخرة .

وقد لاحظنا في الدرس الماضي لمسات من هذه ، ولكنها في هذا الدرس
أظهر . . فمن معرض الحشر إلى مشاهد الكون إلى ذات النفس ، وإلى
التحلي بالقرآن إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين ، ومن ثم لحة عابرة
عن الحشر في مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب ، وإلى تصوير
علم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء ، إلى بعض آيات الله في الكون ، إلى
الإفطار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب .

إنها مجموعة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك نفس سليمة التلقي ،
صحيحة الاستجابة ألا تستجيب لها ، وألا تتذابب الحواجز والموانع فيها
دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ومن فطرة الكون
وفطرة النفس وطبائع الوجود . لقد كان الكفار صادقين في إحساسهم بخطر
القرآن على صفوفهم وهم يتناهون عن الاستماع إليه خيفة أن يجرفهم بتأثيره
ويزلزل قلوبهم ، وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين .

وأن سورة واحدة كهذه أو بعض سورة لتحمل من المؤثرات النفسية
والعقلية ما لا يحمله جمع كبير من قوى الشرك والانحراف والفسوق .

لقد أخذ القرآن على النفوس كل مسلك ، ليسير بها نحو الإيمان ، وساق
إليها أداة محسوسة ملموسة حيث يقول سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع ومن طعام الأرض ونباتها
يطيرها وأسماكها وحيواناتها ، فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن أعماقها
أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق . حتى عفن
الأرض كشف فيه عن دواء وترياق .

﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾

يهيئها القدرة على أداء وظائفها أو يجرمها ، ويصححها أو يمرضها
ويصرفها إلى العمل أو يلهيها . وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها
للحريثات أو تركيب الأذن وأجزائها وطريقة إدراكها للذبذبات لعالم وحده
يدير الرعوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذلك إلى أدق الأجهزة التي بعدها
الناس من معجزات العلم الحديث .

﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾

أى النور من الظلام والظلام من النور ، والنهار من الليل والليل من
النهار ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والنبقة من الحبة والحبة من
النبقة ، والفرخ من البيضة والبيضة من الفرخ . . إلى آخر هذه المشاهدات
العجيبة ، وإلا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة ؟ وأين كان يكمن العود
وأين كانت الجذور والساق والأوراق ؟ .

﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾

كله في هذا الذى ذكر وفي سواه من شئون الكون وشئون البشر ؟ من
يدبر الناموس الكونى الذى ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟
ومن يدبر السنن الاجتماعية التى تصرف حياة البشر .

﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ . يونس ٣١ .

أفلا تحشون الله الذى يرزقكم من السماء والأرض والذى يملك السمع
والأبصار ، والذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، الذى
يدبر الأمر كله فى هذا وفى سواه

﴿ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴾

هو سبحانه صاحب الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

اشتملت الآيات من ٧١ - ٩٣ من سورة يونس على ذكر طرف من قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون وملئه . وقد تحقق فيهما عاقبة المكذبين ، وهلاك المخالفين لأوامر الله وهدى رسله ، والقصص في القرآن يجيء في السياق ليؤدى وظيفة فيه ، ويتكرر القصص في المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق والحلقات التي تعرض منه في موضع تبي بحاجة ذلك الموضع . وتلاحظ فيما عرض من قصتي نوح وموسى هنا ، وفي طريقة العرض ، مناسبة ذلك لموقف المشركين في مكة من النبي صلى الله عليه وسلم والقللة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها في وجه الكثرة والقوة والسلطان ، كما تلاحظ المناسبة الواضحة بين القصص والتعقيبات التي تتخلله وتتلوه .

قصة نوح

بدأت قصة نوح من الحلقة الأخيرة ، حلقة التحدى الأخير بعد الإنذار الطويل والتذكير والتكذيب ، ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ولا التفصيلات الواردة في سور أخرى ، لأن الهدف هنا هو إبراز التحدى الذى واجه نوحاً من قومه ، واستعانته بالله ، ونجاته ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة . لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة التي يقصها إلى حلقة واحدة ، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة وهي نجاة نوح ومن آمن معه في السفينة واستخلافهم في الأرض على قلوبهم ، وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم . قال تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَسَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .

يونس ٧٣ .

وأما قصة موسى فييلوثها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى
وينتهي عند خرق فرعون وجنوده ، وإذا كانت قصة نوح قد ذكرت
في أربع آيات فقط هي الآيات من ٧١ إلى ٧٤ من سورة يونس فإن قصة
موسى قد ذكرت على نطاق أوسع خلال ثمانى عشرة آية هي الآيات من
٧٥ إلى ٩٣ . وقد أملت قصة موسى بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين
في مكة من الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف القلة المؤمنة التي معه . وهذه
الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى مقسمة إلى ثلاثة مواقف يليها تعقيب
يتضمن العبرة من عرضها في هذه السورة على النحو الذى عرضت به .
وهذه المواقف الثلاثة تتابع في السياق على هذا النحو :

أولا : وصول موسى إلى فرعون ومعه آيات تسع ذكرت في سورة
الأعراف ولكنها لم تذكر في سورة يونس ولم تفصل لأن السياق لا يقتضها ،
والإجمال في هذا الموضع يغنى ، والمهم هو تلقى فرعون وملائه لآيات الله ،
لقد استقبلوها بالظلم والاستكبار قال تعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا
إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . يونس ٧٥ ، ٧٦

ادعى فرعون أن معجزة موسى سحر ظاهر ، وجمع له كبار السحرة
وأراحوا أن يغرقتوا الجماهير في صراع السحر بأن تعقد حلقة للسحر
يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر في ظاهرها ليخرجوا منها
في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحرا ماهرا .

والموقف الثانى موقف المبارزة بين السحرة وموسى ، فقد ألقى السحرة
حبالهم وعصيهم وتحركت الحبال والعصى فبهرت جميع الناس وأرهبتهم ،
ثم ألقى موسى عصاه في الأرض فانقلبت حية هائلة لها شفتان طويلتان ،
شفة في الأرض تبتلع جميع الحبال والعصى التي ألقاها السحرة ، وشفة
مرفوعة إلى أعلى . ثم أمسك موسى بعصاه فعادت كما كانت ، وبطل السحر

وعلا صوت الحق . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا لأنها ليست مقصودة
في هذا المجال ، ويسدل الستار ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل ،
وهذه إحدى عبر القصة المقصودة .

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ
وَمَلَئِهِم أَن يُفْتِنَهُمْ) يونس ٨٣ .

وفي هذا الموضع تفيد الآيات أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى
من بني إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار لا مجموعة الشعب الإسرائيلي وأنهم
تعرضوا للارهاب من فرعون ولكن موسى ثبتهم على الإيمان ودعا موسى ربه أن
ينجي المؤمنين وأن يهلك الكافرين فاستجاب الله دعاءه وجاء الموقف الحاسم .
والمشهد الثالث والأخير في قصة التحلى والتكذيب ، هو غرق الطغاة
الظالمين ونجاة من آمن بالمرسلين .



دروس من سورة هود

تمهيد عن الوحدة الموضوعية للسورة :

هود عليه السلام هو أول رسول إلى قوم عاد ، وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح (١)، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام وقد ذكر باسمه خمس مرات في هذه السورة التي سميت به .

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر القرآن المكي : هو تقرير أصول الدين ، وإقامة الأدلة عليها ورد الشبه التي كان يثيرها المعارضون حول الدهرة وصاحبها ، والحديث عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وهي نفس الموضوعات التي تحدثت عنها السورة السابقة ، سورة يونس .

عناصر الدعوة الالهية

والتدبير لسورة هود يرى أنها قررت عناصر الدعوة الإلهية - وهي التوحيد والرسالة والبعث - عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للإيمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت لذلك في أربع وعشرين آية يختم بها الربع الأول منها ، ثم أخذت سورة هود تتحدث عن جملة من الرسل السابقين بيانا لوحدية الدعوة الإلهية ، وتسليمة للرسول عليه الصلاة والسلام وإنذارا للمكذابين .

ويستغرق قصص هؤلاء الرسل الكرام معظم سورة هود فتذكر قصة

(١) محمود شاموت ، إلى القرآن الكريم ص ٧٧ .

نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى . وطريقة العرض هنا تختلف عنها في سورة أخرى ، والحلقات التي تعرض من كل قصة تختلف كذلك لاختلاف السياق فيمتنع التكرار فيما يخيل القارئ العابر للقرآن الكريم أنه تكرر .

هذا القصص الذي يستغرق معظم سورة هود : مرتبط كل الارتباط بما قبله وما بعده من السورة ، متناسق مع السياق حتى في التعبير اللفظي أحيانا ، فالقصة والمشهد والعظة والتعقيب تتناسق كلها تناسقا عجيبا ، وتكشف عن بعض وظيفة القصة في القرآن الكريم .

تبدأ سورة هود بقوله تعالى :

﴿ آلر * كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ هود ٢٠١ .

وهذا المطالع يقرر أن المهمة الأولى للنبي هي الدعوة إلى توحيد الله وينذر بالعذاب من يكذب بدعوة الله ، ويبشر بالنعيم من آمن بها . وقصص السورة كله يساق لتوكيد هذين المعنيين ، فيرد في ألفاظ تكاد تكون واحدة يقولها كل رسول . وكأنا يقولها ويمضي ، حتى يأتي أخوه فيقولها كذلك ويمضي ، والمكذبون هم المكذبون .

تبدأ قصة نوح بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّنِي لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ ﴾ هود ٢٥ ، ٢٦ .

ثم يقول هود ،

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ آلِهَةٍ غَيْرُهُ ﴾ هود ٥٠ .

ويقول صالح :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ آلِهَةٍ غَيْرُهُ ﴾ هود ٦١ .

ويقول شعيب :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ هود ٨٤ .

ونهايات القصص كلها هلاك المكذبين وحقوبة المعتدين ، ووعيد لجميع المتكبرين عن الإيمان بالحق ، والانقياد للعقيدة الصحيحة ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ

شديد ﴾ هود ١٠٢ .



وتتضمن سورة هود إثبات الوحي ، وتنزيل القرآن من عند الله وتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم . وتقوية يقينه مع من آمن به من المؤمنين حتى لا يضيق صدرهم بالمكذبين والمستهزئين .

ثم يختم القصص في سورة هود بقوله تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ

فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هود ١٢٠ .

وهكذا نجد أن القصة في القرآن الكريم تؤدي دورا متناسقا مع موضوع السورة وسياقها وتعرض بالطريقة وبالعبارة اللتين تحققان هذا التناسق الجميل الدقيق .

١ - العقيدة والإيمان بالله

يتضمن الدرس الأول من السورة : دعوة المشركين إلى توحيد الله واستغفاره والتوبة مما هم فيه ، ويبشرهم إن فاعوا إلى هذا بمناع حسن وجزاء طيب ، وينذر المعرضين عن الدعوة بعذاب كبير ويقرر عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، والرجعة إلى الله لتحقيق البشري والإنذار ثم يعرض مشهدا لهم

وهم يحاولون التخفي عن مواجهة الرسول وهو يجيبهم بالبيان ، يعقب عليه بعلم الله الشامل اللطيف الذي يتابعهم وهم أخفى ما يكونون عن العيون ، ويتصل بهذا المعنى علم الله بكل دابة في الأرض حيث تكون . . كما يتصل به الحديث عن خلق السموات والأرض .

ثم يعرض صوراً من النفس البشرية القلقة المتعجلة في السراء والضراء . ومع ذلك فهم يستعجلون العذاب إذا ما أضر عنهم إلى حين .

ثم ينتقل إلى التحدي بالقرآن الذي يقولون انه مفترى من دون الله . . وتهديد من لا يؤمنون بالآخرة ، ومن يفترون على الله الكذب ويعرض مشهداً من مشاهد القيامة يتجلى فيه صدقها . الوعيد ومصداق البشرى للمؤمنين .

ومن المعالم البارزة في هذا الدرس ما يأتي :

١ - تقرير عقيدة التوحيد وسوق الأدلة على قدرة الله الذي أبدع الكون على غير مثال سابق .

وقد تتساءل عن سر عناية القرآن بعقيدة التوحيد وتكرير الدعوة إليها في كثير من آياته :

والجواب أنه ما كان الدين أن يقوم في الأرض وأن يقيم نظاماً للبشر قبل أن يقرر هذه الدعوة .

فالتوحيد هو مفترق الطريق بين الفوضى والنظام ، وبين الخرافة والإيمان وبين الهوى واليقين .

والاعتراف بوجود الله ضروري في الفطرة السليمة لأن الله خلق الإنسان يبله ، وأودعه نضجة مقلسة من روحه ، ولذلك تنجبه الفطرة إلى الله خالقها وبارئها لتروى ظمأها إليه ، ولتلبي نداء الشوق الكامن إليه في أعماقها .

٢ - عناية الآيات بأن تلفت نظر الإنسان إلى ما في الكون من آيات القدرة وذلال الإعجاز وعجائب الصنع ومواطن الاعتبار فهذا الكون الفسح الشاسع الأرجاء وما فيه من قوى منظورة لنا وغير منظورة

وما يخضعُ له من نظام لا يحتمل الخلل ودقة لا تسمح بالعبث دليل على أن هذا الكون لم يوجد عن طريق صدفة عمياء بل إنه وجد لأن مخالفاً حكماً هو الذى أوجده .

٣ - إثبات علم الله بكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون وتقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا العلم النسيح وتيسير الأسباب للسعي والحركة وعمارة الكون ومن الآيات المشهورة بين الناس قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ هود ٦ .

وهي تصور علم الله الشامل المحيط بكل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطيور . فما من دابة من هذه الدواب إلا وعند الله علمها ، وعلى الله رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن ، ومن أين تخرج وأين تذهب ، وكل فرد من أفرادها مقيد في هذا العلم المدقوق . إنها صورة متصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بنخيل الإنسان فلا يطيق . فسبحان من أحاط بكل شيء علماً .

٢ - إعجاز القرآن

يلمح القارئ لهذه السورة قوة أساليبها وترابط أفكارها ، وتوالي حملاتها على الكفار حتى كأنها جيش كامل مشتمل على عديد من الكتائب والفصائل والجنود .

إنها دعت في الدرس السابق إلى التوحيد وفتت الأنظار إلى قدرة الله البالغة وعلمه المحيط بكل شيء .

وهي هنا تسوق دليلاً آخر على صدق عقيدة التوحيد وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الدليل هو إعجاز هذا القرآن وروعته وقوته . ويتجلى هذا الإعجاز فيما يلي :

- ١ - إخباره عن الأمم الماضية التي لم يعاصرها محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعرف تاريخها ولم يقرأ عنها .
- ٢ - اشتغاله على أصول التشريع وسياسة انطلق وقواعد الحكم وآداب المعاملة ونظام العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة .
- ٣ - إخباره عن أنباء لاحقة تؤكد صدقها ، وتحقق وقوعها .



لقد ادعى كفار مكة أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد اختلق القرآن من عنده ولم ينزل عليه من السماء ، فتحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات . أى ليخترقوا كما اختلق محمد صلى الله عليه وسلم فهم حرب مثله ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، والقرآن مؤلف من حروف وكلمات وجمل يعرفونها ويؤلفون من مثلها كلامهم ، فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه ليس من صنع بشر وليس من افراء محمد صلى الله عليه وسلم ولكنه كلام الله العليم الخبير .

وقد سمح لهم القرآن أن يستعينوا بمن شاءوا من الشركاء والنصحاء والبلغاء والشعراء والأنس والجن ، ليشركوهم في تأليف هذه السور ، قال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ هود ١٣ .

وقد سبق أن تحداهم القرآن بسورة واحدة في سورة يونس ، فلماذا تحداهم بعد ذلك بعشر سور .

قال المفسرون القدامى ، إن التحدى كان على الترتيب : بالقرآن كله ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة .

ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور .

وحقيقة أن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور فقد كانت الآية تنزل فتلحق بسورة سابقة أو لاحقه في النزول ، إلا أن هذا يحتاج الى ماثبت هذا الترتيب، وليس في أسباب النزول ماثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكيمي في مثل هذا لا يجوز .

وقد حاول صاحب تفسير المنار أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة فأجهد نفسه طويلا ليقول : (إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرة فتحداهم بعشر (١) سور) وهو احتمال وجيه .

ويرى بعض المفسرين المحدثين : أن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول فيقول مرة : اثتوا بمثل هذا القرآن . أو اثتوا بسورة . أو بعشر سور . دون ترتيب زمني ، لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن . كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره . والعجز كان عن هذا النوع . لاعتن المقدار . وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة . فهو الذي يجعل من المناسب أن يقول سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لانملك تحديد الملابس التي لم يذكرها لنا القرآن :

٣ - القصص في سورة هود

القصص في هذه السورة هو قوامها ، إذ عدد آياتها (١٢٣) مائة وثلاث وعشرون آية ، يشتمل قصص الأنبياء منها على (٨٩) تسع وثمانين آية .

(١) تفسير المنار ج ١٢ ، ص ٣٢ - ٤٤ .

أكن القصص لم يجيء فيها مستقلاً إنما جاء مصداقاً للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها ، وهي التوحيد والبعث والجزاء .

وقد جال السياق جولات متعددة حول هذه الحقائق : جال في ملكوت السموات والأرض ، وفي جنبات النفس ، وفي ساحة الحشر ، ثم أخذ يجول في جنبات الأرض وأطوار التاريخ مع قصص الماضين .

والقصص هنا مفصل بعض الشيء ، لأنه يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التي وردت في مطلع السورة ، والتي يجيء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذبون هم المكذبون وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ . ويتبع القصص في هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط ثم شعيب ثم إشارة إلى موسى ، ويشير إلى الخط التاريخي لأنه يذكر التالين بمصير السالقين .

وليس من قصصنا أن نذكر قصص هؤلاء الأنبياء الكرام ، فذلك ما لا يتسع له المجال ، ولكن واجبنا نحو سورة هود يحتم علينا أن نذكر لمحات من سيرة هؤلاء الرسل .

قصة نوح

لقد ألمحت سورة يونس إلى قصة نوح فذكرت الحلقة الأخيرة منها ، وهي غرق الكافرين ونجاة المؤمنين .

ولكن سورة هود تعرضت لقصة نوح بتفصيل أكثر خلال أربع وعشرين آية من الآية ٢٥ إلى الآية ٤٩ .

تناولت دعوة نوح إلى الله ، وجداله مع قومه وصنعه السفينة وتعرضه لسخرية قومه . ثم فوران التنور ، واكتساح الطوفان وركوب السفينة تسير بأمر الله وقدرته :

(يَا نُوحُ اذْهَبْ إِلَى اللَّهِ فَاخْبِرْهُ بِرَبِّيهِمْ وَأَمْرًا سَاهَا) هود ٤٢ .

ثم تهدأ العاصفة ، وتبلع الأرض ماعها وتمسك السماء عن المطر ،
وتعود الحياة سيرتها فيناجي نوح ربه بعد غرق واده قائلا :

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ .

أى وقد وعدتني بنجاة أهلى فيجيبه الله :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ هود ٤٦ .

والمعنى : إنه عمل عملا غير صالح ، فهو من صلب نوح وذريته إلا أنه
منقطع الصلة به فى نسب الإيمان وصلته العمل الصالح . وهنا يتنبه نوح إلى
حقيقة العدل الإلهى ويرى أن عقاب الله عام لكل الكافرين ، وأن نعيمه
عام لجميع المؤمنين فليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صلة ،
فالخلق كلهم عباد الله يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل
الصالح :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات ١٣ .

ويكون التعقيب على قصة نوح ، عبرا عن أهداف القصص القرآنى مبشرا
بالنجاة والنصر للمؤمنين منذرا بالهلاك والعذاب للكافرين . قال تعالى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ
وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هود ٤٩ .

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآنى فى هذه السورة ما يأتى :

١ - حقيقة الوحي التى ينكرها المشركون . فهذا القصص غيب من
الغيب ما كان يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان معلوما
لقومه ، ولا متداولاً فى محيطه إنما هو الوحي من اللذ حكيم خبير .

٢ - وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبى البشر الثانى فهى والتعبير
عنها يكاد يكون واحدا ، مهتملا على الدعوة إلى الإيمان بالله
والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن الرذائل والمنكرات .

٣ - وحقيقة السنن الحاربية التي لا تتخلف ولا تتحيد ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾
فهم الناجون وهم المستخافون .

﴿ وَالْقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ ﴾ الأنبياء ١٠٥ .

قصة هود

تناول النارس السابق قصة نوح عليه السلام ونجاته ومن معه في الفلك
ثم هبوطه على الأرض ، مستحقا لبركات الله عليه وعلى المؤمنين من ذريته ،
أما المكذبون من ذريته فلهم عذاب أليم ، وقد دارت عجلة الزمن ، ومضت
خطوات التاريخ وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا في البلاد ، ومن
يعدهم ثمود ، ممن حقت عليهم كلمة الله .

﴿ وَأُمَّمٌ سَنِمْتَهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هود ٤٨ .

فأما عاد فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف « والحقف كثيب الرمل المائل »
في جنوب الجزيرة العربية . وأما ثمود فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر -
بين تبوك والمدينة - وبلغت كل منهما في زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق
والمتاع . ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ، جماعتوا
عن أمر الله واختاروا الوثنية على التوحيد وكذبوا الرسل شر تكذيب ،
وفي قصتهم هنا مصداق ما في مطلع السورة من بشارة للمؤمنين وإنذار
للكافرين .

وقد ذكرت قصة هود في سورة الأعراف من الآية ٦٥ - ٧٢ ، وفي
سورة الشعراء من الآية ١٢٣ - ١٤٠ ، ثم ذكرت هنا سورة هود من
الآية ٥٠ إلى الآية ٦٠ .

وقد تتساءل لماذا سميت هذه السورة بسورة هود مع أنها اشتملت على

عدد كبير من قصص الأنبياء منهم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام ، والجواب أن قوم هود قد حباهم الله نعمًا وافرة وخيرات جليلة وأرسل السماء عليهم بالمطر فزرعوا الأرض وأنشأوا البساتين وشادوا القصور ومنحهم الله فوق ذلك بسطة في أجسامهم وقوة في أبدانهم . وكان الواجب عليهم أن يفكروا بعقولهم وأن يشكروا الله على هذه النعم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اتخذوا أصناما يعبدونها من دون الله ، ثم عثوا في الأرض فسادا وظلما وعدوانا ، ولما جاءهم هود يدعوهم إلى الله ويأمرهم بتقواه وطاعته ويحذرهم من البغي والعدوان لم يصيخوا للدعوة ولم يؤمنوا برسالته .

وإذا كانت السورة تسمى بأخرب شيء فيها ، فإن الغرابة في آية دود هي أن قومه عاد كانوا أكثر فضلا ونعمة ولكنهم قبلوا هذه النعمة بالبحرود والكنود .

وتذكر الآيات معارضتهم لهود وإنكارهم عليه ، واعتقادهم أن آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرأ هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همهم في أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وأنه سوف لا يعبأ بهم ولا يجمعهم ، قال هود :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ

بِنَاصِيَتِهَا ﴾ هود ٥٦ .

وهي صورة محسوسة للقوة الإلهية ، فالناصية أعلى الجبهة والله تعالى وحده صاحب القهر والغلبة والتصريف في كل ناصية ، وهي صورة حسية تناسب الموقف وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم حين استكبروا في الأرض بغير الحق :

﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ

أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فصلت ١٥ .

وتذكر الآيات هنا خاتمة أمر هود مع قومه على حسب سنة الله في نصره
أوليائه وخزي أعدائه . قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي كُتِبَتْ لِرَبِّهِمْ وَعَصَوْا
رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾
هود ٥٨ - ٦٠ .



وتستمر سورة هود فتعرض قصة صالح مع قومه ، ودعوته لهم إلى
دين الله ، وتودده إليهم بقوله :

﴿ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ .

وكانت ناقة ضمخة تشرب من الماء في يوم وتتركه فلا تذوقه في اليوم
الآخر. ولكنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فنجى الله صالحا ومن معه
من المؤمنين وأرسل صيحة عاتية أهلكت الكافرين فصاروا جثا هامدة ،
وأصبحت ديارهم خاوية خالية :

﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ هود ٦٨ .

نظرات في سورة يوسف

سورة يوسف سورة مكية كلها وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط وقيل أن الآيات الثلاث الأولى مدنيات وهو رأى ضعيف ، لأن السورة كلها قصة واحدة .

ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف المطبوع في مصر ويزاد عليه الآية السابعة ، قال السيوطي في الإتقان وهو رأى واه جدا فلا يلتفت إليه .



وحيث نستعرض سورة يوسف نجد أنها سورة فريدة في نوعها من بين سور القرآن الكريم .

فهناك قصص متعددة مبثوث في ثنايا سور القرآن لكن القرآن كان يكتبنا أحيانا بذكر حلقة أو حلقات محدودة من القصة ، كحلقة قصة مولد عيسى ، أو حلقة قصة نوح والطوفان لأن هذه الحلقات تفي بالمقصود منها .

أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متواليه حلقاتها ومشاهدتها من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ يوسف ٣



وسورة يوسف هي قصة يوسف مطروعة في سردها وطريقة أحداثها وخصائصها الفنية كلها للقضية الكبرى التي جاء القرآن لمعالجتها ويوضحها ، ويشتمل في

القلوب ، وهي قضية العقيدة وما يقوم عليها في حياة الناس من روابط ونظم وصلات تسبقها في السورة مقدمة تشير إلى الوحي بهذا القرآن وبقصصه الذي هو أحسن القصص ، والذي لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ، يعرف عنه شيئاً من قبل .

وتتلوها تعقيبات شتى ، تفيد أن القصص القرآني غيب من عند الله يثبت به الرسول ، ويعظ به المؤمنين ، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف ١١١

كذلك تضم السورة جناحيها على لفتات ولمسات أخرى في صفحة الكون وفي أغوار النفس ، وفي آثار الماضين ، وفي ضمير الغيب المطوى لا يدري البشر ما هو مخبوء خلف ستاره الرهيب وكل هذه العظات المبعثرة في حنايا السورة ، تتناسب مع القصة ، والقصة تتكامل معها ، لتحقيق القضية الكبرى التي جاء بها هذا القرآن للبشرية ، وجاءت بها رسالات الأنبياء في العصور المتلاحقة .



وقد ساق القرآن دعوة صريحة إلى العقيدة السليمة والإيمان بالله على لسان يوسف حين مكث في السجن يدعو إلى الله ويأخذ بيد الضعفاء ويواسي المحزونين ويفسر الأحلام ويشرح لهم سر معرفته وإيمانه فيقول :

﴿ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ، يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف ٣٧-٤٠

وبذلك نجد السورة تربط بين رسالات السماء جميعها برباط أساسي وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح والدين القيم الذي يسمو بصاحبه ويعصمه من الفتنة ويمنعه من الرذيلة ويجعله يقف ثابت اليقين ، يقاوم الإغراء ، ويرد المنحرف إلى طريق الصواب ، قال تعالى :

﴿وَرَأَوْنَاهُ الْتَبِيُّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

يوسف ٢٣ .

قصة يوسف

قصة يوسف أطول قصة في القرآن تجتمع حلقاتها كلها في سورة واحدة وتلاحظ فيها الخصائص الفنية البهجة للقصة ، خصائص الموضوع وخصائص العرض والأداء :

فالقصة غنية بالعنصر الإنساني ، حافلة بالانفعال والحركة ، وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازاً قوياً ، فضلاً عن خصائص التعبير القرآنية الملوحة المؤثرة :

في القصة يتجلى عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات متنوعة واضحة الخطوط والمعالم ، في حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه ، وفي استجاباته للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها .

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الأخوة من أمهات مختلفات ، بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوي :

وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الأخوة فبعضهم يقوده هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الحب تلتقطه بعض القوافل السيارة ، وفي قصة يوسف نجد عنصر المكر والخداع في صور شتى من مكر أخوة يوسف به إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة .

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام، وبالإعجاب والتقى والاعتصام والتأني .

وعنصر الندم في بعض ألوانه ، والعنف في أوانه ، والفرح بتجمع المتفارقين .
وذلك إلى بعض صور المجتمع المتحضر في البيت والسجن والسوق والديوان ،
في مصر يومئذ ، والمجتمع العبراني ، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات .
وقد بدأت القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ، فينبئه أبوه بأن
سيكون له شأن عظيم ، وينصحه ألا يقصها على إخوته كي لا يثير حسدهم
فيغريهم الشيطان به فيكيدون له . . ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هي
تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورأها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى
السياق القصة ، ولم يسر فيها كما سار كتاب (العهد القديم) بعد هذا الختام
الفني الدقيق الوافي بالغرض كل الوفاء .



وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة الحديثة واضح في قصة يوسف فهي تبدأ
بالرؤيا ، ويظل تأويلها مجهولا ، ينكشف قليلا قليلا حتى تجيء الخاتمة فتحل
العقدة حلا فنيا طبيعيا ، يرضى الذوق الفني الخالص ، ويرضى الوجدان
الديني ، وينفي بدوره للقضية الكبرى التي سبقت القصة لها من الأساس .

والقصة مقسمة إلى حلقات كل حلقة تحتوي على جملة من مشاهد ،
والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد بحيث يترك بين كل مشهدين أو
حلقتين فجوة يملؤها الخيال ، ويكمل فيها ما حذف من حركات وأقوال ،
ويستمتع بإقامة الصلات بين المشهد السابق والمشهد اللاحق ، فيمنح القصة
بعض خصائص التمثيلية . ويملاؤها بالحركة والحياة .

وهذه الطريقة متبعة في جميع القصص القرآني - على وجه التقريب - وهي
شديدة الوضوح في القصص الكبيرة ، وخاصة قصة يوسف الصديق .



يوسف بين اخوته وابيه

أكرم الله نبيه يوسف بأصل كريم فهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق ابن إبراهيم وقد رزق يعقوب إثني عشر ابنا هم الأسباط ، كان يوسف وبنيامين من أم تسمى راحيل ، وبقية الأسباط من أمهات أخرى .

وقد ماتت راحيل أم يوسف وتركته في الثامنة عشرة من عمره أشد ما يكون حاجة إلى قلب الأم وعطفها ، ولهذا أثر يعقوب يوسف وبنيامين بالحب والحنان ، فسرى داء الحسد بين بقية الأخوة وقال قائل منهم : ألا ترون أن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا وأقرب إليه منا جميعا .

وقال الثانی : إن حب يوسف قد تمكن من قلب يعقوب ولاشفاء ليعقوب من هذا المرض إلا بابعاد يوسف عنه ، فيجب أن تقتل يوسف أو نتركه في أرض نائية مقطوعة حتى يموت .

وقال يهوذا : إن القتل لا يقره العقل ولا الدين فلا تقتلوا يوسف وإنما ألقوه في البئر العميق بجوار بيت المقدس فهذا البئر ملتحق الغادى والرائح وسيأخذ به بعض القوافل ويبيعدون به عنكم ، فوافقوا جميعا على رأى يهوذا ، وبيتوا أمرهم عليه .

رؤيا يوسف

أصبح يوسف فأخبر أباه أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له فعلم الأب أن ابنه سيكون له شأن عظيم وأن أسرته ستأتي له خاضعة معترفة بفضله فوسجد بين يديه يعقوب أبوه ، وخالته ليا وهي بمنزلة أمه ، وأخوته الأحد عشر ، ولكن يعقوب خشى على يوسف من حسد إخوته فأمره أن يكتم هذه الرؤيا وألا يخبر بها أحدا ، ولأمر ما تسرب خبر هذه الرؤيا إلى الأخوة فأشعل نار الغيرة بينهم وأستاذنوا أباهم في مصاحبة يوسف يوما إلى المرعى حيث الهواء الطلق والمنظر الجميل فأذن لهم بعد تردد ، وأخذوا يوسف وألقوه في ظلام البئر بعد أن استغاث بهم فلم يغيثوه ، وألقى الله على يوسف السكينة ، فاطمأن لمصيره ، وجاءت قافلة تريد الماء وألقت بدلوهما

إلى البئر فتعلق يوسف بالدلو وفرحت القافلة بمنظر الغلام الجميل ، وقدموا به إلى أرض مصر فباعوه إلى عزيز مصر ووزيرها الأكبر بثمن بخس زهيد ، ولحق العزيز في يوسف كرم الأصل وشرف العنصر وجمال الخلق وطيب المنبت ، فقال العزيز لامرأته أكرمي مثوى هذا الغلام وأحسني معاملته ، وحاشاك أن تزجريه زجر الخدم أو تضربيه ضرب العبيد ، فإني لأرجو إذا اكتمل عوده ونضجت سنه أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وانصرف يوسف إلى العمل ببيت العزيز في جد وأمان فمكن الله له في الأرض وأودع محبته في قلوب الجميع فلما وصل إلى سن الرشد والقوة ، وهو يقع عادة بين العشرين والثلاثين آتاه الله حكما وعلما ، وصوابا في الحكم على الأمور ، ومعرفة بمصائر الأحاديث وتأويل الرؤيا .

وهكذا أراد إخوة يوسف به أمرا وأراد الله له أمرا ، ولكن أمر الله غالب ، ومشيتته نافذة فقد زادت ثقة العزيز في يوسف وظهر له مكنون حزمه وعقله ، وأمانته ونزاهته ، فأدخله فيما بين نفسه وأهله ، وبوأه مكان الاشراف الأحرار ووضع من قلبه موضع الأبناء الأبرار .

يوسف وامرأة العزيز

نما يوسف وترعرع وبلغت سنه خمسا وعشرين سنة وصار أمينا في بيت العزيز وكانت امرأة العزيز في سن الأربعين ، ولها سلطان الملك وقدره الأمر والنهي ، وسيطرة النفوذ والجاه ، ولكن سلطان الحب قد ملك قلبها وسيطر على قوادحها .

وحاولت إغراء يوسف مستغلة كل فنون الإغراء ، قال تعالى :

﴿ وَرَأَوْدَتُهُ لَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ يوسف ٢٣ .

فكلمة (راودته) من راد يرود بالإبل إذا ذهب بها وجاء وهي تشير إلى فنون الأثني مقبلة إلى فن مدبرة عن فن من فنون الإغراء الصامتة التي تحاول أن تشير يوسف ، فلما بثت من الصمت (غلقت الأبواب) بتشديد

اللام ، كأنها أرادت أن تجعل الأبواب حيطانا ، ثم عرضت نفسها على يوسف
(وقالت هيت لك) : قد تهيأت لك رغبة فيك وهنا وقد خلعت المرأة
ثياب الملك والعظمة والسيادة ولبست ثوب الإغراء والتولته والرغبة ، وقف
يوسف في عزة وإباء وإيمان يقول :

﴿ معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾

يوسف ٢٣ .

فالمرأة في كل العصور أكثر عاطفة من الرجل وأكثر تدبنا وإيمانا ،
وأكثر مراعاة لحرمة الزوجية ، وأكثر نفورا من الظلم .

ولهذا عمد يوسف إلى عاطفة الايمان بالله فقال : ﴿ معاذ الله ﴾ أستعبد
بالله من الفحشاء والمنكر ، إن زوجك أكرمني وجعلني أمينا على بيته
وعرضه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان :

﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ .

وهناك عين الله التي ترى وتعلم السر وأخفى ، وهذا ظلم وعدوان

ولانه ﴿ لا يفلح الظالمون ﴾ .

ولكن المرأة كانت قد صمت أذنيها عن سماع كل موعظة وأغضت
عينها عن رؤية الحق ، ولم يبق في ذهنها إلا فكرة واحدة في مكان . .
في رجل . . فهتمت به صائلة عليه لتنتقم لنفسها وكرامتها ، أو لترغمه
على طاعتها ، وهمم بها ليضربها أو يقتلها دفاعا عن الفضيلة والشرف ،
ولكن الله ألهمه أن الفرار خير من القتال ، والمسألة محير من الموائية ،
وفتحت الأبواب أمامه فأسرع هاربا منها ولكنها عدت وراءه ، طمعا في
تفريد رغبتها ، أو خوفا من افتضاح أمرها

﴿ واستبقا الباب ، وقدت قميصه من دبر ﴾ يوسف ٢٥ .

نتيجة جذبها له لرده عن الباب ، وعند الباب وقعت مفاجأة ، فقد
كان العزيز يمر في تلك اللحظة فرأى يوسف واقفا وقميصه ممزقا ، وكان

موقفاً يبحث على الريبة ويثير الاتهام فاتهمت المرأة يوسف بأنه راودها عن نفسها وهجم عليها في مخدعها ولا بد من سجنه أو إذاقته مر العذاب ، ولم يجد يوسف بداً من الاعتراف بالواقع ، فقال هي التي راودتني عن نفسي وجذبتني من ثوبي ، وهذا قميصي شاهد على صدقي ، وأمام تضارب الأقوال ، استدعى الملك ابن عمها وكبير أسرتهما ، وكان فطناً لبيبا ، فسمع القضية من أطرافها ، وفطن لما وراء قصتها فقال : إن كان قميصه قد من الأمام فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من الخلف فهو إذن من أثر هروبه منها ومطاردتها له حتى الباب فهي كاذبة وهو من الصادقين .

فلما رأى الملك بعينه أن القميص قد مزق من الخلف ، وضح الحق وظهرت براءة يوسف أمامه ، والتفت العزيز إلى امرأته وقال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن فاستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، وأنت يا يوسف أمسك لسانك عن الخوض في هذا الحديث ، واكتم أمره عن الناس أجمعين .

يوسف عزيز مصر

تعرض يوسف لحلقات متتابعة من الإغراء والوعد والوعيد ، وتوالت عليه حملات زليخا ، ونساء من وجوه المدينة ، فدعا يوسف ربه أن ينجيه من كيدهن ومكرهن ، وقال :

﴿ رَبِّ السُّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ يوسف ٢٣ .

ورأى العزيز أن يضحى بهذا البريء التزيه حتى تسكت الألسنة وتخف عن زوجته التهمة ، فأدخل يوسف السجن .

وكان يوسف في السجن مثلاً كريماً في الدعوة إلى الإيمان وتفسير الأحلام وإرشاد الناس إلى الحق ، ثم رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف ، وفسر يوسف هذه الرؤيا بأن البلد

مقبلة على سبع سنين مخصبة يجود فيها النيل بالماء ، ثم تأتي بعدها سبع سنين مجذبة يحف فيها ماء النيل ، ويعقب ذلك عام طيب مثمر ، فأمر الملك بالعفو عن يوسف ، ولكنه أبى أن يخرج من السجن إلا بعد المثبت من براعته ونزاهته ، فاعترفت النسوة بنزاهته وقلن :

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . يوسف ٥١ .

فخرج يوسف من السجن بريثا نزيها ، ثم نال إعجاب الملك والحظوة عنده .

وعلم يوسف أن مصر قادمة على مجاعة ، فالنيل سيجود بالماء سبع سنين ثم يمتنع عن الفيضان سبع سنين أخرى ؛ ورأى يوسف ثقة الملك فيه وإعجابه بنزاهته وأمانته فقال يوسف :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ يوسف ٥٥ .

واستطاع يوسف بحكمته أن ينجي مصر من المجاعة وأن يدخر القمح في سنابله والذرة في كيزانها وأن يدبر التموين والأموال وأن يحفظ لمصر مكانتها وفضلها فاستطاعت أن تساعد نفسها وأن تمد يد العون لما حولها من البلاد .

ووصل خبر يوسف إلى البلاد المجاورة ، وإلى أرض كنعان حيث يقيم نبي الله يعقوب وأبناؤه الأسياب .

فقال يعقوب لبنيه يابني إن الجذب عمننا والقحط يكاد يأتي علينا فاقصدوا هذا العزيز وأحضروا من عنده القمح والطعام واتركوا عندي أثمانكم بثيامين أتغزي ببقائه عن فراقكم ، فرحل أبناء يعقوب إلى مصر ، قاصدين مقابلة العزيز .

وأستأذن الحاجب على يوسف ، فقال إن الباب عشرة رجال تشابه وجوههم وكأنهم غرباء عن هذه الديار يستأذنون في الدخول عليك فأذن يوسف لأخوته وعرفهم ولكنهم لم يعرفوه ، فقد تركوه في الجب

ذليلاً فريدا ، فأين منه هذا الأمير العزيز الذي يأمر فيطاع ويقول فيمثل
الجميع أمره . وأكرم يوسف وقادتهم ، وترك تقودهم داخل القميين الذي
أمدهم به ، وطلب منهم أن يحضروا أمهاتهم بنيامين معهم في المرة الثانية ،
ولما حضر بنيامين مع إخوته استطاع يوسف أن يستبقه معه بحيلة دبرها ، ثم
ذهب الإخوة إلى أبيهم ، فاشتد حزنه لفراق يوسف وبعد بنيامين وجلس
حزينا في محرابه يبكي أشد البكاء ويقول ﴿ يا أسنى حل يوسف ﴾
يوسف ٨٤ .

ثم قال الأب لأبنائه إني أحس في قرارة نفسي بوجود يوسف على قيد
الحياة فاذهبوا إلى مصر وتحسسوا من يوسف وأخيه ولاتياسوا من فضل
الله ورحمته ، ودخل الإخوة على يوسف وقد اشتد بهم الضر والحاجة ،
فطالبوا من يوسف أن يرفق بهم وأن يتصدق عليهم ، وهنا فاض قلب
يوسف حنانا وعظفا على إخوته ، وسألهم عما فعلوه بيوسف في زمان
جهلهم ، فقالوا إنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهما أخي بنيامين :
﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لِلْبُصِيعِ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
يوسف ٩٠ .

لقد اتقى يوسف ربه وصبر عن الفحشاء وتحمل السجن في طاعة الله
فلم يضع أجره وجعله الله على خزائن الأرض عزيزا كريما فالله يتولى
الصالحين .

وصفح يوسف عن إخوته وقال لهم .

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي

بِأَمْثَلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يوسف ٩٣ .

وعاد الإخوة إلى أبيهم فأحس برائحة القميص من مسافة بعيدة ، ولما
وضع القميص على وجهه عاد بصيرا ، ورحل يعقوب مع أسرته قادمين
إلى مصر ودخلوا على يوسف وخروا له جميعا ساجدين ، الأب والأم
والإخوة ، فقال يوسف .

﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ يوسف ١٠٠

وشكر يوسف ربه إذ أخرجه من السجن ، وجاء بإخوته من البادية ،
وجمع شمل الأسرة ، ثم مكن الله ليوسف في الأرض ، وآتاه الملك
والحكمة ، ليكون في قصته دليلا للعاملين ونبراسا للمخلصين ، وكان الله
يمهد الأسباب والمقدمات بلطفه وحكمته لتكون العاقبة للمتقين ، ومد
يوسف يده لله طالبا منه حسن الخاتمة والسير في موكب الصالحين فقال :

﴿ رَبُّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ ﴾ يوسف ١٠١ .

نظرات في سورة الرعد

سورة الرعد من السور التي اختلفت في مكيتها ومدنيتها . فقال قوم إنها مكية لأنها شبيهة بالسور المكية في قصتها وموضوعاتها . وقال آخرون إنها مدنية . ولكن موضوعاتها تشبه السور المكية . وفي المصحف المطبوع بالقاهرة سورة الرعد مدنية وآياتها ٤٣ نزلت بعد سورة محمد .
وفي تفسير مقاتل بن سليمان . سورة الرعد مكية ويقال مدنية . وتسمى سورة الرعد لقوله سبحانه فيها :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ الرعد ١٣ .

وسورة الرعد من أعاجيب السور القرآنية التي تستولى على النفس وتثير الوجدان وترحم الحس بالصور والمشاهد . ثم تأخذ النفس من أقطارها جميعا فإذا هي في مهرجان من الصور والمشاعر . وتسلك السورة سبيلها إلى القلب وترتاد به آفاقا وأكوانا وعوالم وأزمانا وهو مستيقظ مبصر مدرك شاعر بما يمرج حوله من المشاهد والصور .

إنها ليست ألفاظا وعبارات ولكنها صور حية تستولى على الفؤاد وتلمس الوجدان وتوحى بالإيمان .

موضوع السورة

إن موضوع سورة الرعد الرئيسي هو العقيدة . وقضاياها هي التوحيد والبعث وهذا الموضوع تكرر عرضه في سور سابقة ولاحقة .

ولكنه يعرض في كل مرة بطريقة جديدة . وفي ضوء جديد . ويتناول
عرضه مؤثرات وموجيات ذات إيقاع جديد وإيجاء جديد .

تطوف سورة الرعد بالقلب البشرى في مجالات وآفاق وآماد وأعماق ،
وتعرض عليه الكون كله في شتى مجالاته الأخاذة : في السموات المرفوعة
بغير عمد وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . وفي الليل يغشاها النهار .
وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارئة . وجنات وزرع
وتخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان . ينبت في قطع من الأرض
متجاورات ويستقي بماء واحد . وفي البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسيح
ويحمد . والملائكة تخاف وتخشع . والصواعق يصيب بها من يشاء والسحاب
الثقال ، والمطر في الوديان ؛ والزبد الذي يذهب جفاء . ليبقى في الأرض
ما ينفع الناس .

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجه : تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف
الشامل . يلم بالشارد والوارد والمستخفي والسارب . ويتعقب كل حي ويحصي
عليه الخواطر والحواليج . والغيب المكنون الذي لا تدركه الظنون مكشوف
لعلم الله وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء
عنده بمقدار .

إنها تقرب لمدارك البشر شيئا من حقيقة القوة الكبرى ، المحيطة بالكون
ظاهرة وخافية . جليله ودقيقه . حاضره وغيبه . وهذا القدر الذي يمكن
لمدراك البشر تصوره هائل مخيف ، ترجف له القلوب .

وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل في مشاهد حية حافلة بالحركة والإنفعال
إلى مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب وخلجات الأنفس في هذا وذاك ،
إلى وقفات على مصارع الغابرين وتأملات في سير الراحلين ، وفي سنة الله
التي مشت عليهم فإذا هم دائرون .

مشاهد الكون في سورة الرعد

تبدأ سورة الرعد بقضية عامة من قضايا العقيدة : [قضية الوحي بهذا الكتاب والحق الذي اشتمل عليه فيقول سبحانه :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الرعد ١ .

وهذا الافتتاح يلخص موضوع السورة كله ويشير إلى جملة قضاياها . وتستمر السورة في استعراض آيات القدرة وعجائب الكون الدالة على قدرة الله الخالق وحكمته وتدييره الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس ، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطبعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذي بدأ الكون كله قبلهم وسخره لهم ليلوهم فيما آتاهم .

وتبدأ الآيات الرائعة في رسم المشاهد الكونية الضخمة نظرة إلى السموات ونظرة إلى الأرضين ونظرة إلى مشاهد الأرض وكوامن الحياة .

قال تعالى :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
الرعد ٢ ، ٣ .

وهذه اللفظة الأولى إلى مظاهر القدرة الإلهية تحرك الوجدان ، فيقف أمام هذا المشهد الخائل بعملاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بلا عمد - أو حتى بعمد - إلا الله ، وقصارى ما يرفعه الناس بعمد .

أو بغير عمد ، تلك البنايات الصغيرة الهزيلة ، القابعة في ركن ضيق من الأرض لا تتعداه ، ثم يتحدث الناس عما في تلك البنايات من عظمة ومن قدرة واتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سموات مرفوعة بغير عمد وعما وراءها من القدره الحقة . والعظمة الحقة . والاتقان الذي لا يتناول إليه خيال إنسان .

ومن هذا المنظور الهائل الذي يشاهده الناس في خلق الله ، الى المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾

أى استولى على ملك جميع الموجودات وأحاطت قدرته بجميع الكائنات .

ومع الاستعلاء والتسخير ، الحكمة والتدبير ،

﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

ولكى حدود مرسومة وفق ناموس مقدر

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾

ويعسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء فتجربى لأجل لا تتعداه .

ومن قدرة الله أنه مدالأرض وبسطها أمام البصر ، وأملها بمقومات الحياة

﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

ليكمل ، ابداع الخلق وتناسقه ، ثم تابع الله بين الليل والنهار في انتظام عجيب ، ونظام دقيق يبعث على التأمل في ناموس هذا الكون والتفكير في القدرة المبدعة التي تدبره وترعاه :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أدلة الألوهية في سورة الرعد

نحن في سورة الرعد أمام عدد من أدلة الألوهية تتوارد وراء بعضها في سياق بديع ، وعرض شائق .
فهناك الأرض التي تزرع بألوان مختلفة من النبات فيها .
﴿ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ .
منه ما هو عود واحد ومنه ما هو عودان أو أكثر في أصل واحد وكله :
﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ .

والترية واحدة ولكن الثمار مختلفات الطعوم :

﴿ وَنَفَضُّ لُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾

فمن غير الخالق المدبر يفعل ذلك ؟

إن القرآن يمثل هذه الالفة بيبقى جديدا أبدا لأنه يجدد أحاسيس الشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس وهي لا تنفذ ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . الرعد ٤

ومن أدلة الألوهية : إحاطة علم الله بالجنين في بطن أمه ، وبالسر المكنون في الصدور ، وبالحركة الخفية في جنح الليل ، وبكل مختلف بالليل وظاهر بالنهار ، وهو سبحانه محيط بكل من تكلم دسا أو تكلم جهرا فإن كل شيء مكشوف تحت المجهر الكاشف يتبعه شعاع من علم الله ويتعقبه حفظة تحصى الخواطر والنوايا .
إلا إنها للرغبة الخاشعة التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطعن في حياء ، وهي تتصور علم الله المحيط بكل شيء .

وتلاحظ أن بعض الآيات في سورة الرعد تلمس آفاق الكون المائل
مثل الآيات الأربع الأولى من السورة .

وبعض الآيات تلمس أغوار النفس ومجاهل السرائر مثل الآيات من
٨ إلى ١٠ حيث يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْفَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ
شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ
مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴾ .

ثم يأخذ السياق في جولة جديدة في واد آخر تجتمع فيه مناظر الطبيعة
ومشاعر النفس متداخلة متناسقة . حيث يقول سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّمَلَاءَ *
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ الرعد ١١ ، ١٢ .

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة وكذلك الصواعق التي
تصاحبها في بعض الأحيان ، وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس حتى اليوم
وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة
وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع لتصوير سلطان
الله المتفرد بالقهر والمنفع والضر .

وقد سميت السورة بسورة الرعد ، لقوله سبحانه :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾

والرعد هو ذلك الصوت المقرقع المدوي ، وهو أثر من آثار الناموس
الكوني الذي صنعه الله - أيا كانت طبيعته وأسببه - فهو رجم صنع الله في هذا
الكون ، وهو يحمده ويسبح بلسان الحال ، للقادرة التي صاغت هذا النظام ،

كما أن كل مصنوع جميل متقن ، يسبح ويعان عن حمد الصانع والثناء عليه ، بما يحمله من جهال وإتقان .

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحا للحمد ، اتباعا لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق ، وخلع مبات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك في المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله ، وقد انضم الى تسبيح الرعد بحمد الله ، تسبيح الملائكة من خوقه ومن تعظيمه ، وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ الشورى •

وفي الحديث النبوي يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أظنت السماء وحق لها أن تظط ، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك رآع أو ساجد يسبح الله تعالى » .

ثم يعبرُ السياق عن خضوع جميع الكائنات لمشيئة الله بالسجود ، وهو أقصى رمز للعبودية ، فتسجد الكائنات ويسجد ظلها معها عند انكسار الأشعة ، وامتداد الظلال ، فإن الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء ، كلها تسجد لله .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ الرعد •

النصف الثاني من سورة الرعد

في النصف الأول من سورة الرعد حدثت السورة عن المشاهد الهائلة في آفاق الكون وفي أعماق الغيب وفي أغوار النفس .

وفي النصف الثاني من السورة تترسل الآيات في لمسات وجدانية وعقلية وتصويرية دقيقة رقيقة ، حول قضية الرحي والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعمال تأويل الوعيد . وهي جولة جديدة حول تلك القضايا في السورة .

وتبدأ هذه الجولة بلمسة في طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، فالأول علم
والثاني عمى : هـ

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ الرعد ٩

وتبين الآيات طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين ، والصفات المميزة لهؤلاء
وهؤلاء ، ثم يتلوها مشهد من مشاهد القيامة ، وما فيها من نعيم للأولين ومن
عذاب للآخرين . ويعقب ذلك لمسة في بسط الرزق وتقديره ، وردّها
إلى الله ، فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله ، فوصف لهذا القرآن
الذي يكاد يسير الجبال ، وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى . فلمسة
بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم ، أو تحل قريبا من دارهم ، فجدل
تهكمى حول الآلهة المدعاة ، فلمسة عن مصارع الغابرين ، ونقص أطراف
الأرض منهم حيناً بعد حين ، ينجم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة
الرسول صلى الله عليه وسلم بتركهم للمصير المعلوم .

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية في شطر السورة الأول، تحضّر
المشاعر وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل في شطرها الثاني وهي على استعداد
وتفتح لتلقيها ، وأن شطري السورة متكاملان ، وكل منهما يوقع على الحس
طرقاته وإيجاءاته لهدف واحد وقضية واحدة ، هي الإيمان عن يقين كامل
وأدلة مقنعة يطمئن لها القلب وتسكن إليها النفس . قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

القلوبُ ﴾ الرعد ٢٨ .

فقلب الكافر في ضلال ، وقلب الجاحد مضطرب هواء ، وقلب المؤمن يطمئن
لصلته بالله ، والأنس بجزاره ، والأمن في جوانبه وحماه ، يطمئن من قلق
الوحدة وحيرة الطريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير ويطمئن
بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر لا بما يشاء الله ،
مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء ويطمئن برحمة الله في الهداية والرزق والستر
في الدنيا والآخرة .

وليس أشقى على وجه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله . ليس
أشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعاني في الحياة؟ . ليس أشقى
في الحياة ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاة عليه أن يكافح وحده
بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك شدائد في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله
مطمئناً إلى حماه ، مهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . ففي
الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله :

﴿ أَلَا يَذِكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

التناسق الفني في سورة الرعد

فما نلاحظه في سورة الرعد عنايتها بالمقابلة بين الإيمان والكفر ، والهدى
والضلال ، والاطمئنان والحيرة ، وحين تعرضت السورة لرسم مشاهد الكون
عنيت بإبراز المشاهد المتقابلة من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ،
وشخوص وظلال ، وجبال راسية وأنهار جارئة وزبد ذاهب وماء باق وقطع
من الأرض متجاورات مختلفات . ونخيل صنوان وغير صنوان ، ومن ثم
تطرد هذه التقابلات في كل المعاني وكل الحركات وكل المصائر
في السورة ، لتناسق التقابل المعنوي في السورة مع التقابلات الحسية ، وتتنسق
في الجذر العام .

ومن ثم يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر ،
ويتقابل ما تنغض الأرحام مع ما تزداد ، ويتقابل من أمر القول مع من جهر به
ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارِب بالنهار ، ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه
البرق ، ويتقابل تسبيح الرعد حمداً مع تسبيح الملائكة خوفاً ، وتتقابل دعوة الحق
لله مع دعوة الباطل للشركاء ، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى ، ويتقابل الذين
يفرحون من أهمل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه ، ويتقابل الحو مع
الإثبات في الكتاب . . . وبالأجمال تتقابل المعاني وتتقابل الحركات وتتقابل
الاتجاهات ، تنسيقاً للجو العام في الأداء ، وهذا التناسق الفني ، من بدائع

الإعجاز في القرآن الكريم . هذا القرآن العجيب الذي لو كان من شأن قرآن أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى ، لكان في هذا القرآن من الخصاص والمؤثرات ماتم معه هذه الخوارق والمعجزات ، ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء فإذا لم يستجيبوا له فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون وأن يدعوهم ويتركوهم حتى يأتي وعد الله للمكذبين قال تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ، أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ، أَوْ كُتِبَتْ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لَئِنَّ اللَّهَ لَأَمْرٌ جَمِيعًا، أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الرعد ٣١ .

ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثر من تسير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى ، لقد صنع في هذه النفوس ، وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثارا في أقدار الحياة بل أبعد أثرا في شكل الأرض ذاته ، فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ ؟

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها ، طبيعته في دعوته وفي تعبيره ، طبيعته في موضوعه وفي أدواته . طبيعته في حقيقته وفي تأثيره . إن طبيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة نافذة يحسها كل من له ذوق وبصر وادراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به ، والذين تلقوه وتكيفوا به سبوا ما هو أضخم من الجبال وهو تاريخ الأمم والأجيال . وقطعوا ما هو أصلب من الأرض وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد . وأحيوا ما هو أخمد من الموتى . وهو الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام والتحول الذي تم في نفوس العرب وحياتهم أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها وتحول الموتى عن الموات :

﴿بَلْ لَئِنَّ اللَّهَ لَأَمْرٌ جَمِيعًا﴾ .
وهو الذي يختار نوع الحركة وأداتها في كل حال . فإذا كان قوم بعه

هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم فما كان اجدر المؤمنين الذين يحاولون تحريكها
أن يئسوا من القوم وأن يدعوا الأمر لله فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد
للهدى وهدى الناس جميعا على نحو خلقه الملائكة لو كان يريد :

لقد شاء الله أن يوجد الإنسان على وجه الأرض ومعه العقل والإرادة
والاختيار والكسب حتى يتميز المؤمن من الكافر والمستقيم من العاصي وبذلك
يتحقق الحكمة الإلهية في تنوع الخلق واختلاف مشاربهم :

﴿ وَكَوَشَاءَ رَبِّكَ لِجَعَلِ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ *
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ هود ١١٨ ، ١١٩ .

نظرات في سورة إبراهيم

سورة إبراهيم سورة مكية . موضوعها الاساسى هو موضوع السور
المكية الغالب وهو العقيدة في اصولها الكبيرة . وتشمل الرسالة والتوحيد
والبعث والحساب والجزاء .

ولكن السياق في هذه السورة يسلك نهجا خاصا في عرض هذا الموضوع
وحقائقه الاصلية . نهجا مفردا يميزها عن غيرها من السور ، يميزها بجوها ،
وطريقة أدائها ، والحقائق الكبرى التي تتضمنها ، ولون هذه الحقائق التي
قد لا تفرق موضوعياً عن مثيلاتها في السور الأخرى ولكنها تعرض من
زارية خاصة ، كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوها ، فتريد أطرافاً
وتنقص أطرافاً . فيحسبها القارىء جديدة بما وقع فيها من تجديد ، وذلك
من الاعجاز القرآنى في طريقة الأداء .

ويبدو أنه كان لأسلوب السورة من اسمها نصيب . . إبراهيم أبو
الأنبياء . . المبارك . الشاكر . . الأواب المنيب . وكل الظلال التي تحملها
هذه الصفات ملحوظة في جو السورة وفي الحقائق التي تبرزها ، وفي طريقة
الأداء . وفي التعبير والايقاع .

ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسية في العقيدة ، ولكن حقيقتين
كبيرتين تظهران أكبر من غيرهما في سورة إبراهيم . :
الحقيقة الأولى : وحدة الرسالة والرسول ووحدة دعوتهم . ووقفهم أمة
واحدة في مواجهة الفرقة المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان .
والحقيقة الثانية : بيان نعمة الله على البشر وزيادة النعمة بالشكر ومقابلة
أكثر الناس لها بالبحود والكفران .

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وبيان هدف القرآن . وهذه الوظيفة هي هداية الناس ، وإبطال عادات الجاهلية وقيمها . وإرساء معالم التوحيد والعدالة والمساواة . قال تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ

رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ إبراهيم ١ .
وتحتم السورة بهذا المعنى وبالْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا الرِّسَالَةُ ،
حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ

وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ إبراهيم ٥٢ .
وفي أثناء السورة نجد أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد صلى
الله عليه وسلم ولنفس الهدف وهو إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور
الإيمان ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ ﴾ إبراهيم ٥
وتذكر السورة أن وظيفة الرسل عامة ، هي بيان الحق وتوضيح طريق
الهداية إلى الله ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ إبراهيم ٤ .
وتبين السورة أن الرسول بشر يوحى إليه وأن بشريته هي التي تحدد
وظيفته فهو مبلغ ومندب وناصح ومبين ولكنه لا يملك أن يأتي بخارقة أو
العجزة إلا بإذن الله وحين يشاء الله لا حين يشاء هو أو قومه ، ولا يملك
الرسول أن يهدي قومه أو يضلهم فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التي
انقضت مشيئة الله المطلقة . ولقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض
من جميع الأقوام في جاهليتهم . والسورة هنا تحكي قولهم مجتمعين :

﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا هَمَّا كَانَ

يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتَّبَعْنَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ إبراهيم ١٠

وتحكي رد رسالهم كذلك مجتمعين :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ابراهيم ١١ .

ويتضمن السياق كذلك أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ .

وكل رسول يبين لقومه

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

ابراهيم ٤ .

وبهذا أو ذاك تتحدد حقيقة الرسول فتحدد وظيفته في حدود هذه الحقيقة ولا تشبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشيء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة ، كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا ، ويتحقق ذلك الوعد في الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفي الآخرة بعذاب الكاذبين ونعيم المؤمنين .

ويصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة في نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ . ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ابراهيم ١٣ - ١٥ .

وحدة الرسائل السماوية في سورة ابراهيم

الظاهرة البارزة في سورة ابراهيم أنها تتحدث عن الرسل جميعا كأنهم أصحاب فكرة واحدة وهدف واحد ، وكأن جواب قومهم كان جوابا موحدًا في جميع العصور والأحوال .

وتعرض السورة هذه الفكرة بطريقة فريدة في الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية في صورة توحيد الدعوة التي يجيء بها كل رسول ، فيقول كلمته لقومه ويمضي ثم يجيء رسول ورسول دكلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ويصيب المكذبين ما يصيبهم في الدنيا ، وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل في الأرض أو إلى أجل في يوم الحساب . ولكن للسياق هناك كان يعرض كل رسول في مشهد ، كالشريط المتحرك منذ الرسائل الأولى ، وأقرب مثل لهذا النسق سورة هود ، فأما سورة إبراهيم - أي الأنبياء - فتجمع الأنبياء كلهم في صف وتجمع المكذبين كلهم في صف ، وتجري المعركة بينهم في الأرض ، ثم لا تنتهي هنا ، بل تتابع خطواتها كذلك في يوم الحساب .

ونبصر فنشهد أمة الرسل ، وفرقة المكذبين في صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان أما الحقيقة الكبرى في هذا الكون - حقيقة الإيمان والكفر - فهي أضحخم وأبرز من عرضي الزمان والمكان .

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ * وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إبراهيم ٩-١١ .

فها هنا تتجمع الأجيال من لدن نوح ، وتتجمع الرسل ويتلاشى الزمان
والمكان وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهي واحدة واعتراضات
المكذابين وهي واحدة وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهي واحدة ، وحقيقة
استخلاف الله للصالحين وهي واحدة ، وحقيقة الحية والخلدان للمتجبرين
وهي واحدة ، وحقيقة العذاب الذي ينتظرهم هناك وهي واحدة .

ولا تنتهى المعركة بين الكفر والإيمان هنا بل يتابع السياق خطواته بها
إلى ساحة الآخرة فتبرز معالمها في مشاهد القيامة المتنوعة التى تتضمنها السورة
وهي تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة ولا انفصال
بينهما ، إنما تكمل إحداهما الأخرى .

وتكمل الأمثال التى تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة لإبراز معالم المعركة
بين الفريقين ، ونتائجها الأخيرة ، مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة :
شجرة النبوة وشجرة الإيمان ، وشجرة التوحيد والخير ، والكلمة الخبيثة
كالشجرة الخبيثة : شجرة الباطل والتكذيب والشر والطغيان . فالتوحيد
وكلمته : شهادة لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . أصله ثابت موصول
بالله وفرعه مرتفع إلى السماء ويؤتى ثماره كل حين بالصلاة والزكاة وسائر
العبادات والأعمال النافعة فى الدنيا والآخرة . أما شجرة الكفر فلا أصل
لها تعتمد عليه ، فهي تمثل الباطل فى الدنيا ، والخبيثة فى الآخرة .

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا
ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تَأْتِي مِنْهَا أَكْثَابُهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ
اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ
خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ
وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ابراهيم ٢٤ - ٢٧ .

المقطع الثاني من سورة ابراهيم

تنقسم سورة ابراهيم إلى مقطعين متماسكين الحلقات :

المقطع الأول : يتضمن بيان حقيقة الرسل ، ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين في الدنيا والآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، وقد تحدثنا عن هذا المقطع .

والمقطع الثاني : من سورة ابراهيم يتحدث عن نعم الله على البشرية والذين كفروا بهذه النعم وبطروا ، والذين آمنوا بها وشكروا ، ونموذجهم الأول هو ابراهيم ، ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله ، في سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة .

نعم الله

لقد عدد الله نعمه على البشر كافة مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم ، وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصي نعمة في هذه الأرض كالؤمن والبار والطائع ، لعلمهم يشكرون : ويعرض هذه النعم في أضخم مجالى الكون وأبرزها ، ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة :

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَأَنَا كُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تحْصُوهَا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم ٣٢-٣٤ .

وفي إرسال الوسل نعمة تعدل تلك أو تربو عليها :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

إبراهيم - ١ .

والنور أجلى نعم الله في الوجود ، والنور هنا هو النور الأكبر ، النور الذي يشرق به كيان الإنسان ، ويشرق به الوجود في قلبه وحسه .. وكذلك كانت وظيفة موسى في قومه ، ووظيفة الرسل كما بينها السورة .

وفي قول الرسل مجتمعين :

﴿ يَدْعُواكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ ابراهيم ١٠ .

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعادل نعمة النور ، وهي منه قريب :

وفي هذا الجواب يذكر وعد الله للرسل .

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ • وَلَنُشْكَتَنَّهُمُ الْأَرْضُ

مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ابراهيم ١٣ ، ١٤ .

وهي نعمة . ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

لَشَدِيدٌ ﴾ ابراهيم ٧ .

مع بيان أن الله غني عن الشكر وعن الشاكرين :

﴿ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

ابراهيم ٨ .

ويقرر السياق أن الانسان في عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

ابراهيم ٣٤ .

ولكن الذين يتدبرون آيات الله ، وتفتح لها بصائرهم ، يصبرون على

البأساء ويشكرون على النعماء .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ابراهيم ٥ .

ويتمثل الصبر والشكر في شخص ابراهيم حين يقف خاشعاً ويدعو ربه

عند البيت الحرام دعاء مخلصاً كله حمداً وشكراً ، وصبر وإيمان :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مَنْ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ إبراهيم ٣٥ - ٤١ .

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة ؛ تجيء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو ، في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ إبراهيم ٥ .
وقوله سبحانه :

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ إبراهيم ٦ .

وفي رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر يجيء قوله سبحانه :

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ إبراهيم ١١ .

فيبرز منه الله، تنسيقاً للرد مع جو السورة كله، جو النعمة والمنة والشكر والكفران وهكذا يتساقف التعبير اللفظي مع الفكرة العامة للسورة على طريقة التناسق الفني في القرآن .



نظرات في سورة الحجر

سورة الحجر سورة مكية ، ومحور هذه السورة الأول هو إبراز المصير المخيف الذي ينتظر الكافرين المكذابين .

وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل ، سواء في ذلك القصة ، ومشاهد الكون ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص وتخلله وتعقب عليه .

وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام ، فإن جو هذه السورة ، سورة الحجر ، يذكر بجو سورة الأعراف .

لقد كان ابتداء سورة الأعراف بالإنذار ثم ورد فيها قصة آدم وإبليس ويلي القصة عرض لبعض مشاهد الكون في السموات والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب ، ويلي ذلك قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى .

وهنا في سورة الحجر يجيء الإنذار كذلك في مطلعها ولكن ملفظاً بظل من التهويل حين يقول :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الحجر ٣، ٤، ٥ .

ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون : السماء وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة ، والرواسي الراسخة ، والنبات الموزون والرياح اللواقح ، والماء والسقيا ، والحياة والموت والحشر للجميع ، يلي ذلك قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين . ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظور فيها إلى مصائر المكذابين .

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى عدة جولات أو عدة مقاطع يتضمن كل منها موضوعاً أو مجالا :

تتضمن الجولة الأولى بيان سنة الله التي لا تتخلف في الرسالة والايان بها والتكذيب ، مبدوءة بذلك الانذار الضمني الملقح بالتهويل :

﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

الحجر / ٣ .

ومنتهية بأن المكذابين إنما يكذبون عن عناد لاعن نقص في دلائل الايمان ، وأتهم جميعاً من طراز واحد :

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الحجر / ١٣ .

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون ، في السماء وفي الأرض وما بينهما وقد قلرت بحكمة ، وأنزلت بقدر ، ولما الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم حيث يقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾

الحجر / ٢١ .

وتعرض الجولة الثالثة قصة البشرية وأصل الهدى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصبية ، ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين ، وذلك في خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون ، والنفخ من روح الله في هذا الطين . ثم غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

والجولة الرابعة في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح مبدوءة بقول الله :

﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ

الْأَلِيمُ ﴾ الحجر / ٤٩ ، ٥٠ .

ثم يتتابع القصص بجلو رحمة الله مع ابراهيم ولوط ، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح .

أما الجولة الخامسة والأخيرة فمكتشف عن الحق الكامن في خلق السموات والأرض الملتبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله وللبده والمصير .

الآيات الكونية في سورة الحجر

عرضت سورة الحجر لألوان المكابرة والعماد التي يلجأ إليها الكافرون ثم انتقلت إلى معرض الآيات الكونية مبدؤا بمشهد السماء فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح بالماء ، فمشهد الحياة والموت فمشهد البعث والحشر . كل أولئك آيات يكابر فيها المعاندون . قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَاتٍ لِّلنَّاطِرِينَ • وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ • إِلَّا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَآتَبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ الحجر ١٦ - ١٨ .

إنه الخط الأول في اللوحة العريضة ، لوحة الكون العجيب الذي ينطق بأثار اليد المبدعة ، ويشهد بالاعجاز ، ويكشف عن دقة التنظيم والتقدير كما يكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير . والبروج قد تكون هي النجوم والكواكب بضمخامتها ، وقد تكون هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها . وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالابداع الجميل . قال تعالى

﴿ وَزَيْنَاتٍ لِّلنَّاطِرِينَ ﴾ .

وهي لفظة إلى جمال الكون ، وبخاصة أن تلك السماء ، تثنى بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون فليست الضخامة وحدها وليست الدقة وحدها ، إنما هو الجمال الذي ينظم المظاهر جميعا وينشأ من تناسقها جميعا .

وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الخالكة ، وقد انتشرت فيها الكواكب والنجوم قصوص بنورها ثم تبدو كأنما تنجبو ، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد . . . ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم ، والكون من حوله مهوم كأنما يمسك أنفاسه حتى لا يوقظ الحالم السعيد . إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك الحقيقة في الجمال الكوني ، وعمق هذا الجمال في تكوينه ، ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة . وزيناها للناظرين .

والخط الثاني في اللوحة العريضة الهائلة هو خط الأرض الممدودة أمام النظر المبسوطة للخط والسير ، وما فيها من رواس وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء . قال تعالى :

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ الحجر / ١٩ .

إن ظل الضمخامة واضح في السياق ، فالإشارة في الأرض إلى الرواسي ، ويتجسم ثقلها في التعبير بقوله :

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾

وللى النبات موصوفا بأنه (مَوْزُون) وهي كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها أن كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقة وإحكام وتقدير . والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس ، فهذه الأرض المملوذة للنظر والخط ، وهذه الرواسي الملقاة على الأرض تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ، ومنه إلى المعاش التي جعلها الله للناس في هذه الأرض ، وهي الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها وهي كثيرة شتى :

وهذه الأرزاق - ككل شيء - مقدره في علم الله تابعة لأمره ومشيئته ، بصرفها حيث يشاء وكما يريد ، في الوقت الذي يُريدُه ، حسب سنته التي ارتضاها وأجراها في الناس والأرزاق . قال تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا جِئْنَا خَزَائِنَهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾

الحجر ٢١ .

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئاً ، إنما خزائن كل شيء -
مصادره وموارده - عند الله في علاه ينزله على الخلق في عوالمهم :

(يَقْدِرُ مَعْدُومٌ)

فليس من شيء ينزل جزافاً وليس من شيء يتم اعتباطاً ، بل كل شيء
يتم بحكمة العليم الخبير وتقدير السميع البصير :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) القمر ٤٩ .

قصة آدم في سورة البقرة والأعراف والحجر

ذكرت قصة آدم في القرآن مرتين من قبل ، في سورة البقرة ، وفي
سورة الأعراف ، ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص
في معرض خاص وفي جو خاص ، ومن ثم اختلفت الحلقات التي تعرض منها في
كل موضع واختلفت طريقة الأداء .

في سورة البقرة كانت نقطة التركيز هي استخلاف آدم في الأرض
التي خلقها الله للناس جميعاً :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) البقرة ٣٠ ،
ومن ثم عرض الأسرار في هذا الاستخلاف ، وبين قدرة الإنسان على
الاستنباط والاستنتاج وتمتعه بالإرادة والاختيار ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة
وإياء إبليس واستكباره ، وسكنى آدم وزوجه الجنة وإزلال الشيطان
لهما عنها وإخراجهما منها ، ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها بعد تزويده
بهذه التجربة القاسية ، واستغفاره وتوبة الله عليه .

وفي سورة الأعراف ، كانت نقطة التركيز في السياق هي الرحلة الطويلة
من الجنة وإليها ، وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها ،
حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى ، ففريق منهم يعود
إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه ، وفريق
ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود . ومن ثم عرض
السياق حكاية سجود الملائكة ، وإياء إبليس واستكباره ، ثم إسكان آدم

وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة ، وهي رمز المحذور
الذى تبلى به الإرادة والطاعة ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل
وأكلهما من الشجرة وظهور سواتهما لهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه
ولإيهابهما إلى الأرض جميعاً للعمل في أرض المعركة الكبرى :

فأما هنا في سورة الحجر فإن نقطة التركيز في السياق هي ، سر التكوين
في آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصلية في كيان الإنسان :
ومن ثم نصّ ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ، وثنّ فيه
من روحه المشرق الكريم ، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم ،
ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافاً من السجود لبشر من
صلصال من حمأ مسنون ، وطرد إبليس ولعنته وطلبه الانتظار إلى يوم
البعث وإجابته ، وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على
عباد الله المخلصين ، إنما سلطانه على من يدينون له ، ولا يدينون لله ، وانتهى
بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل تبعا لنقطة التركيز
في السياق وقد استوفت ببيان عنصري الإنسان ، وبيان مجال سلطة الشيطان .

خلق الانسان

تفيد الآيات الواردة في سورة الحجر أن الإنسان قد خلق من :

﴿ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَآ مَسْنُونٍ ﴾ الحجر - ٢٦ .

والصلصال : هو الطين اليابس الذي يصلصل أى يصوت إذا نقر .

والحمأ : هو الطين الذي تغير واسود من طول مجاورة الماء .

والمسنون : هو المصور أو المصبوب ليبيس من سنه إذا صبّه ، أى أن

الإنسان مخلوق من طين يابس قد اختلط بالماء وصور على هيئة الإنسان

ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشرا سويا .

وتفيد آيات القرآن الأخرى أن الله خلق آدم من تراب ومن طين ،

ومن حمأ مسنون ، ومن طين لازب ، ومن صلصال كالفخار ومن عجّل

ومن ماء مهين .

قال مقاتل بن سليمان في تفسيره الكبير :

« ويجمع بين هذه الآيات على أنها دليل على تدرج الخلق ، فقد بدأ خلق آدم من أديم الأرض وهو التراب ، ثم تحول التراب إلى طين . وتحول الطين إلى سلاله ، ثم تغيرت رائحة الطين فتحول إلى حمأ مسنون ، ثم لصق فتحول إلى طين لازب ، ثم صار له صوت كصوت الفخاز ، ثم نفخ فيه الروح ، فأراد أن ينهض قبل أن تم الروح فيه فذلك قوله خالق الإنسان من عَجَلٍ ، ثم جعل ذريته من النطفة التي تنسل من الإنسان ومن الماء المهيئ وهو الضعيف » (١) .

الربع الأخير من سورة الحجر

يتضمن الربع الأخير من سورة الحجر نماذج من رحمة الله وعذابه ممثلة في قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا أمراته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم .

هذا القصص يساق بعد مقدمة هي .

﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ

الْأَلِيمُ ﴾ الحجر ٤٩ ، ٥٠

فيجىء بعضه مصداقا لنبا الرحمة ، ويجىء بعضه مصداقا لنبا العذاب ،

كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة فيصدق ما جاء فيها من نذير :

﴿ ذَرَهُمْ يَا أَكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِئِمْ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَمَا أَهْلَكْنَا

مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾

الحجر ٣ - ٥ .

فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل .

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، لمقاتل بن سليمان ص ٥٨ .

حيث قد سموا سورة الفجر - بقدر ان اسمها الفجر وهم
قوم صباح ، وسموا هم من اجل ذلك في وقت الفجر من ليلتهم
في ليلتهم ، وسموا في عصر ووقت الفجر ، كما يات على
الفجر والعصر

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) الفجر - ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم ، وسموا الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا
الفجر لان وقت الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) الفجر - ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم ، وسموا الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) الفجر - ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم ، وسموا الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان

بسم الله الرحمن الرحيم ، وسموا الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان
الوقت الذي فيه ياتي الفجر هو وقت الفجر ، وسموا الفجر لان

في قوله مع يديت الأخرى في مسافة في غير ما في قوله لا يحسد
ولا يحسد

في قوله لا يحسد ولا يحسد في قوله لا يحسد ولا يحسد
ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد
ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد
ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد
ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد

في قوله لا يحسد ولا يحسد في قوله لا يحسد ولا يحسد
ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد
ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد
ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد
ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد ولا يحسد

(في قوله لا يحسد ولا يحسد)



دروس من سورة النحل

عرض اجمالي للسورة :

سورة النحل سورة مكية ، وعدد آياتها « ١٢٨ » آية ، وهي سورة هادئة الإيقاع عادية الجرس ، ولكنها مليئة حافلة ، وموضوعاتها الرئيسية كثيرة متنوعة ، والإطار التي تعرض فيه واسع شامل .

وهي كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية ، والوحي والبعث ، ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية ، تلم بحقيقة الوجدانية الكبرى التي تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ، ودين محمد صلى الله عليه وسلم وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يخص بالإيمان والكفر والهدى والضلال ، وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله في المكذابين لهم وتلم بموضوع التحليل والتحرير ، وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع ، وتلم بالهجرة في سبيل الله ، وفتنة المسلمين في دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان ، والإنفاق والوفاء بالعهد وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة ، وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها .

فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات ، والمجال الذي تجري فيه الأحداث فهو فسيح شامل . . . هو السموات والأرض . والماء الهاطل ، والشجر النامي . . . والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار ، وهو الدنيا بأحداثها ومصاثرها ، والأخرى بأقدارها ومشاهدتها ، وهو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآفاق .

في هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير ، حملة هادئة الإيقاع ، ولكنها متعددة الأوتار ، ليست في جلجلة سورة الأنعام وسورة الرعد ، ولكنها في هدوئها مخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري ، وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس إنها تخاطب العين لترى ، والأذن لتسمع ، واللمس ليستشعر ، والوجدان ليتأثر والعقل ليتدبر وتحشد الكون كله : سماءه وأرضه وشمسها وقمره ، وليله ونهاره ، وجباله وبحاره ، وفجائه وأنهاره ، وظلاله وأكثانه ، ونبته وثماره ، وحيوانه وطيوره ، كما تحشد دنياه وآخرته ، وأسرارها وغيوبه .. كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلف الإيقاعات التي لا يغلغ لها إلا القلب الميت والعقل المنكوس ، والحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله في الكون وآلائه على الناس كما تتناول مشاهد القيامة ، وصور الاحتضار ومصارع الغابرين ، تصاحبها اللمسات الوجدانية التي تتسرب إلى أسرار الأنفس ، وإلى أحوال البشر وهم أجنة في البطون وهم في الشباب والهرم والشيخوخة وهم في حالات الضعف والقوة ، وهم في أحوال النعمة والنقمة ، كذلك تتخذ السورة الأمثال والمشاهد والحوار والقصص الخفيف أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التي تلون جو السورة كله فهي الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير .. كلها متداخلة ، فهذه الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر لا تلبى ضرورتهم وحدها ولكن تلبى أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة ، وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستريح لها نفوسهم ، لعلهم يشكرون .. ومن ثم تراءى في السورة ظلال النعمة ، وظلال الشكر ، والتوجيهات إليها والتعقيب بها في مقاطع السورة وتضرب عليها الأمثال وتعرض لها النماذج وأظهرها نموذج إبراهيم :

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ النحل ١٢١

كل أولئك في تناسق ملحوظ بين الصور والأفكار ، والعبارات والإيقاعات ،
والقضايا والموضوعات نرجو أن نشاهده في أثناء استعراضنا لأجزاء السورة

التوحيد في السورة

تبدأ سورة النحل بآية مشهورة تقال كثيرا عندما يحين الأجل ويقف
الإنسان عاجزا أمام حوادث القدر ، يقول سبحانه :

﴿ أَنَّىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

النحل (١)

ومن أسباب نزول هذه الآية أن أهل مكة كانوا يستعجلون الرسول
صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ،
وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل العذاب زادوا استعجالا وزادوا استهزاء
واستهتارا ، وحسبوا أن محمدا يخوفهم بما لا وجود له ولا حقيقة ،
ليؤمنوا له ويستسلموا ، ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم ورحمته في إنظارهم
ولم يحاولوا تدبير آياته في الكون ، وآياته في القرآن .

نعم الله

تترسل الآيات في سورة النحل تستعرض نعم الله سبحانه على
الإنسان فتذكر خلق السموات والأرض والإنسان ، ، والأنعام
والنبات ، والليل والنهار ، والجبال والبحار والشمس والقمر والنجوم ،
وهي ظواهر طبيعية ملموسة ولكننا إذا قرأنا الآيات من ٣ إلى ١٨ في
سورة النحل نجد أننا أمام لوحة كونية معروضة تنتقل بالإنسان من مشهد
إلى آخر وكل مشهد يدل على وحنانية الخالق ، ووحداية المنعم وتعرض
الآيات هذه النعم فوجا فوجا ومجموعة مجموعة بادئة بخلق السموات والأرض ،
فيقول سبحانه :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ النحل ٣ .

فالخلق قوام خلقهما والخلق قوام تدبيرهما والخلق عنصر أصيل في

تصريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما فما من شيء من ذلك كله عمث ولا جزاف إنما كل شيء قائم على الحق وملتبس به وسائر في النهاية إليه .

ثم تستعرض الآيات نعمة خلق الأنعام ، والأنعام المتعارف عليها في الجزيرة العربية كانت هي الإبل والبقر والضأن والمعز وقد أباح الله أكلها أما الخيل والبيغال والحمير فللمركوب والزينة ولا تؤكل ، ثم يحيى التعميق على هذه النعمة بقوله سبحانه :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ « النحل ٨ »

ليظل المجال مفتوحا في التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة . إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يحيى القرآن الأذهان لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل ، استقباله ، بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقى كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة .

ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان ، والقرآن يحيى القلوب والأذهان بلا جمود ولا محجر حين يقول :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

والفوج الثاني : من آيات الخلق والنعمة ، هي إنزال الماء وإنبات النبات والمرعى والزرع التي يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار .

والفوج الثالث : من أفواج الآيات .

تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وكلها ذات أثر حطم في حياة الإنسان ومن شاء فليتصور نهارا بلا ليل أو ليلا بلا نهار ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات في هذه الأرض كيف تكون ، كل

أولئك طرف من حكمة التفسير وتناسق النواميس في الوجود كله . يدركه أصحاب العقول التي تدبر وتعقل :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل ١٢ .
والفوج الرابع : من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ . النحل ١٣

أمن الله على عباده بما خلق لهم في الأرض من ألوان المنافع . وبما أودعه فيها للبشر من مختلف المعادن التي تقوم بها حياتهم في بعض الجهات وفي بعض الأزمان ولقت أنظارهم الى هذه الذخائر المخبوءة في الأرض ، المودعة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوما بعد يوم ، ويستخرجوا كنوزهم في حينها ووقت الحاجة إليها وكلما قيل : إن كنزنا منها قد نفذ أعقبه كثر آخر غني ، من رزق الله المدخر للعباد قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ثم أمن سبحانه على عباده بالبحر المالح وما يشتمل عليه من صنوف النعم « فمنها اللحم الطري من السمك وغيره للطعام ، وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان وغيرها من الأصداف والقواقع » .
ومنها مرور السفن تمخر عباب البحر ، وتيسر المصالح وتبادل المنافع بين الناس قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا نَلْكَأُ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل « ١٤ » .

وعندما ينهى استعراض النعم بين القرآن أن من يخلق ليس كمن لا يخلق وأن نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ النحل ١٨ .

وحدة الألوهية

تعرض الآيات من ٢٢ إلى ٥٠ في سورة النحل ، لتقرير وحدة الألوهية
فيقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

وكل ما سبق في السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدي
إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة وهي أن هذا الكون البديع المنظم لا يحفظ
نظامه إلا إله واحد والذين لا يسلمون بهذه الحقيقة قلوبهم منكورة فالجحود
صفة كامنة فيها ، والعلة أصيلة في نفوسهم المريضة ، وطباعهم المعاندة المتكبرة
عن الإقرار والإذعان والتسليم .

وتختم هذه الآيات بمشهد مؤثر مشهد الظلال في الأرض كلها ساجدة
لله ومعها ما في السموات وما في الأرض من دابة . والملائكة قد برئت
نفوسهم من الاستكبار وامتألت بالخوف من الله والطاعة لأمره بلا جدال . هذا
المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المتكبرة قلوبهم في مفتتح هذه
المجموعة من الآيات .

وبين المطلع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين
للوحى والقرآن إذ يزعمون أنه أساطير الأولين ، ومقولاتهم عن أسباب
شركهم بالله وتحريمهم ما لم يجرمه الله إذ يدعون أن الله أراد منهم الشر
وارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة إذ يقسمون جهدهم لا يبعث الله
من يموت ويتولى الرد على مقولاتهم جميعاً ، ويعرض في ذلك مشاهد
احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرأون من تلك المقولات الباطلة كما يعرض
بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم ويخوفهم أخذ الله في ساعة من
ليل أو نهار وهم لا يشعرون وهم في تقلبهم في البلاد ، أو وهم على تخوف
وتوقع وانتظار للعذاب إلى جوار هذا يعرض صوراً من مقولات المتقين
المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء
وينتهي هذا الدرس بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة
في الأرض والسماء والسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله

بالسجود وهو أقصى مظاهر الخضوع - ويوجه إلى حركة الظلال المتفتية -
 أى الرجعة بعد امتداد - وهى حركة لطيفة خفيفة ذات دبيب فى المشاعر
 والأعماق ويرسم المخلوقات داخرة أى خاضعة خاشعة ويضم إليها ما فى
 السموات وما فى الأرض من دابة ويضيف إلى الحشد الكونى :
 الملائكة فى مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود ، قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ
 وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾
 النحل ٤٩ ، ٥٠ .

ادلة الوحائية

تستمر الآيات من ٥١ إلى ٧٦ فى سورة النحل فى إثبات قضية الألوهية
 الواحدة التى لا تعدد ، تبدأ فتقرر وحدة الإله ووحدة المالك ، ووحدة
 المنعم فى الآيات الثلاث الأولى متواليات وتختتم بمثلين تضربهما للسيد المالك
 الرازق ، والعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء ولا يملك شيئاً . هل
 يستوون ؟ فكيف يسوى الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؟
 فيقال : هذا إله وهذا إله ؟ .

وفى خلال هذا الدرس تعرض الآيات نموذجاً بشرياً للناس حين يصيبهم
 الضر فيجأون إلى الله وحده ، وإذا كشف عنهم الضر راحوا يشركون به
 غيره .

وتعرض الآيات صوراً من أوهام الوثنية وخرافاتهما فى تخصيص بعض
 مازقهم الله لأهلهم المدعاة ، فى حين أنهم لا يردون شيئاً مما يملكونه على
 عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه وفى نسبة البنات إلى الله على حين يكرمون
 ولادة البنات لهم :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

النحل « ٥٨ » .

وفى الوقت الذى يحطون لله ، يكرمون تروح السنهم تتشدد بأن لهم

الحسنى ، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيرا وهذه الأوهام التى ورثوها من المشركين قبلهم ، هى التى أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبين لهم الحقيقة فيها . وليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور اليقين ثم تأخذ الآيات فى عرض نماذج من صنع الألوهية الختمة فى تأملها عظة وعبرة فالله وحده هو القادر عليها الموجد لها ، وهى هى دلائل الألوهية لاسواها : فالله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها والله يسقى الناس - غير الماء - لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم ، والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكرا ورزقا حسنا والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ثم تخرج عسلا فيه شفاء للناس .

اسم السورة

وقد سميت هذه السورة بسورة النحل للإشارة إلى الأمر العجيب الدقيق فى شأن النحل فهى تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق ، وهذا الإلهام لون من الوحي تعمل النحل بمقتضاه وهى تعمل بدقة عجيبة يمتزج عن مثلها العقل المفكر سواء فى بناء خلاياها أو فى تقسيم العمل بينها أو فى طريقة إفرازها للعسل المصنقى :

وهى تتخذ بيوتها حسب فطرتها فى الجبال والشجر وما يعرشون أى ما يرفعون من الكروم وغيرها ، وقد ذل الله لها سبل الحياة ، بما أودع فى فطرتها وفى طبيعة الكون حولها من توافق ، قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۖ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۖ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل ٦٨ و ٦٩ .

وقد سئل الإمام الشافعى بم عرفت الله ؟ قال بالنحلة نصفها بعسل

ونصحتها يلسع ، وفي الحديث المؤمن كأنه حيا . أى أنه يخفف الظل مبرقع
في هدفه ، لا يأكل إلا طيبا ، ولا يترك إلا أثرا حسنا ، وإذا وقع على
شيء لم يكسره ، وتستمر الآيات في عرض أدلة القدرة الإلهية فتذكر أن
الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد
ساذجا لا يعلم شيئا ، والله فضل بعضهم على بعض في الرزق ، والله
جعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بين وحفلة ، وهم
يعبد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا في السموات
والأرض ، ويجعلون لله الأشباه والأمثال .

هذه اللمسات كلها في أنفسهم وفيما حولهم . يوجههم إليها لعلهم
يستشعرون القدرة وهي تعمل في ذواتهم وفي طعامهم وفي شرابهم وفي كل
شيء حولهم .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

مظاهر القدرة الإلهية

تحدث الآيات من ٧٧ إلى ٨٩ في سورة النحل عن مظاهر القدرة
الإلهية فتوضح عظمة الخالق وفيض نعمته وإحاطة علمه وتركز الآيات في
هذا الشوط على قضية البعث ، والساعة إحدى أسرار الغيب ، الذي يختص
الله بعلمه فلا يطلع عليه أحدا .

وموضوعات هذا الدرس تشمل ألوانا من أسرار غيب الله في السموات
والأرض ، وفي الأنفس والآفاق . غيب الساعة التي لا يعلمها إلا الله وهو
عليها قادر وهي عليه هيئة :

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ النحل ٧٧ .

وغيب الأرحام والله وحده هو الذي يخرج الأجنة من هذا الغيب
لا تعلم شيئا ، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون
نعمته . وغيب أسرار الخلق ويعرض منها تسخير الطير في جو السماء
ما يمكنه إلا الله .

على هذا الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهي

بجانب تلك الأسرار وفي جوفها . نعم السكن والهدوء والاستظلال في البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظن والإقامة ، والأثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار .

وتذكر الآيات من نعم الله الظلال ، والأكتان وهي ما يستر الإنسان ويغطيه والسراويل وهي ما يلبسه الإنسان من قميص يقيه الحر والبرد أو درع يقيه بأس الحرب :

﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ النحل ٨١ .

ثم تفصل الآيات أمر البعث في مشاهد يعرض فيها المشركون وشركاؤهم والرسول شهداء عليهم والرسول صلى الله عليه وسلم شهيد على قومه ، وبذلك تتم هذه الجولة في جو البعث والقيامة .

الأوامر والنواهي

تعرض الآيات من ٩٠ الى ١١١ في سورة النحل لشرح بعض أهداف القرآن ويبدأ هذا الدرس بآية شهيرة يرددها الخطباء على المنابر في نهاية خطبة الجمعة وهي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل ٩٠ .

وفي هذا الدرس أمر بالوفاء بالعهد ونهى عن نقض الأيمان بعد توكلها وكلها من مبادئ السلوك الأساسية التي جاء بها القرآن الكريم .

وفي هذا الدرس بيان الجزاء المقرر لنقض العهد واتخاذ الأيمان للاخفاف والتضليل وهو الصلب العظيم . والبشرى للذين صبروا ومضاعفة الثواب لهم .

ثم تذكر الآيات بعض آداب تلاوة القرآن . وهي الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم لطرده شبحه من مجلس القرآن الكريم كما تذكر بعض تقولات المشركين عن القرآن فمنهم من يرمى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بافترائه

على الله ومنهم من يقول : إن غلاما أعجميا هو الذي يعلمه هذا القرآن :
وفي نهاية الدرس يبين جزاء من يكفر بعد إيمانه ، ومن يكره على
الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان : ويبين جزاء من فتنوا عن دينهم ثم هاجروا
وجاهدوا وصبروا . وكل أولئك تبيان وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

وفي الآيات إباحة لمن أكره على الكفر أن ينطق لسانه به مادام القلب
عامرا بالإيمان روى ابن جرير بإسناده أن العذاب لما اشتد على عمار بن
ياسر نطق ببعض ما أرادوا ، ثم شكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال له النبي : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئنا بالإيمان : قال النبي :
(إن عادوا فعد) فكانت رخصة في مثل هذه الحال .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهر الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على
لفظه باللسان كذلك صنعت سمية أم ياسر ، وهي تُطعن بالحربة في موضع
العفة حتى تموت ، وكذلك صنع أبوها ياسر .

وقد كان بلال - رضوان الله عليه - يعذب أشد العذاب حتى
لتوضع الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويطلب منه أن ينطق
بكلمة الشرك فيأبى وهو يقول : أحد أحد

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

ختم سورة النحل

يتحدث الربع الأخير في سورة النحل عن مثل ضربه الله لتصوير حال
مكة وقومها المشركين الذين جحدوا نعمة الله عليهم ، لينظروا المصير الذي يهددهم
من خلال المثل الذي يضربه لهم ، حين يقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ النحل ١١٢ .

وهي حال أشبه شيء بحال مكة جعل الله فيها البيت ، وجعلها بلدا حراما

من دخله فهو آمن مطمئن لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا ، ولا يجرؤ أحد على إيدائه وهو في جوار بيت الله الكريم ، وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة في حراسته وحمايته آمنون مطمئنون ، كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان مع الحجيح ومع القوافل الآمنة مع أنهم في وادٍ قفر جرد غير ذي زرع ، فكانت تجبي إليهم ثمرات كل شيء فيتمتدقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل ، فإذا كذب أهل مكة بدعوة محمد ووجدوا رسالته استحتموا العقاب والعذاب والباس الجوع والخوف جزاء كفرهم وعنادهم .

ثم ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التي حرمتها قبائل مكة على أنفسهم اتباعا لأوهام الوثنية ، وقد أحلها الله لهم ، وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها وذلك لونه من الكفر بنعمة الله وعدم القيام بشكرها يتهددهم بالعذاب الأليم من أجله . وهو افتراء على الله لم ينزل به شريعة .

وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الحباث . يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم . وقد جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم . ولم يكن محرما على آبائهم في عهد إبراهيم الذي كان أمة قاننا الله حنيفا ، ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباؤه وهداه إلى صراط مستقيم . فكانت حلالا له الطيبات ولبنيه من بعده حتى حرم الله بعضها على اليهود في صورة عقوبة لهم خاصة ومن تاب من بعد جهالته فإن الله غفور رحيم .

ثم جاء دين محمد صلى الله عليه وسلم امتدادا واتباعا لدين إبراهيم ، فعادت الطيبات كلها حلالا وكذلك السبت الذي منع فيه اليهود من الصيد، فلما السبت على أهل الذين اختلفوا فيه ، ففريق كف عن الصيد وفريق نقض عهده فمسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية .

وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وأن يجادلهم بالتي هي أحسن . وأن يلتزم قاعدة العدل في رد الاعتداء بمثله دون تجاوز . . والصبر

الأهداف العامة لسورة الإسراء

سورة الإسراء مكية بدأت في السنة الحادية عشرة للهجرة قبل الهجرة بسنة وشهرين ، ونسب سورة الإسراء نظراً لذكر الإسراء في صدرها كما نسب سورة بني إسرائيل ، لأنها تحدث عنهم وعن إيمانهم في الأرض وعن حضرة الله لم عن هذا الفضاء .

وعدد آياتها ١١١ آية ، وهي من أواخر ما نزل من السور بمكة وقد تميزت آياتها بالطول السبي وبسط المفرد والدعوة إلى التحمل بالأفاب ومكارم الأخلاق .

لسورة الإسراء اشتمت على خصائص سورة المكية ، ومن ناحية لغوية ظهرت فيها صفات من خصائص السورة المنفية ، لأنها من أواخر ما نزل بمكة فهي مهددة للعبد المثلث أو هي مما يشبه المثلث وهو مكى .

الاسراء

بدأت سورة الإسراء بقوله تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

وعلمنا الإسراء : أن الله تعالى أكرم رسوله صلوات الله عليه وسلم بتعميرة إليه هي الانتقال به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالشام ثم صعد إلى السموات الملاء ورأى من كل شيء مقرباً ورأى سدرة المنتهى وجنة الثورى وآيات ربه فكبرى ثم فرض الله عليه الصلاة لتكون صلة بين المشرق

والتخالق ورباطا بين الإنسان وربّه وعاد عليه الصلاة والسلام إلى مكة قبل
طلوع الفجر .

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختار قيهن اللطيف
الخبير تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما
السلام إلى محمد خاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - وتربط بين الأماكن
المقدسة لديانات التوحيد جميعا . وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان
ورثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه
المقدسات وارتباط رسالته بها جميعا ، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من
حدود الزمان والمكان ، وتتضمن أكبر من المعاني القريبة التي تنكشف
عنها للنظرة الأولى .

والإسراء آية صاحبها آيات :

﴿ لِئُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ .

والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في الوقت القصير
آية من آيات الله ، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود وتكشف
عن نعم الله على الجنس البشري الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه
واصطفى من بينه رسلا وأنبياء يوحى إليهم ويخصهم بالنبوة والهداية ،
والمعجزات الباهرة .

هذا الإسراء آية من آيات الله . وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف
البشر والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة . وهو قلب الأرض المقدسة التي
بارك الله حولها بركات مادية ومعنوية فحولها الأشجار والثمار ، وإليها
يتحرك الحجاج وقد زارها الأنبياء والمرسلون .

وجمهور العلماء هل أن الإسراء كان بالروح والجسد يقظة لا مناما
وذهب بعض العلماء إلى أن الإسراء كان بالروح فقط وكان في النوم
لا في اليقظة لقوله تعالى في سورة الإسراء :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَبْنَاكَ لِإِلْفِنَّةٍ لِلنَّاسِ ﴾ الإسراء ٦٠ .

وقد رد جمهور العلماء بأن هذه الآية تشير إلى رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة غزوة بدر الكبرى ، قال تعالى :

﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ الأنفال ٤٣ .

أو تشير إلى رؤيا رآها النبي بدخول المسجد الحرام حاجا معتمرا قبل صلح الحديبية قال تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح ٢٧ .

واستدل الجمهور بأن الله جعل الإسراء آية كبرى وقال أسرى بعبدته
والعبد مجموع الروح والجسد ولو شاء لقال أسرى بروح عبده :

ثم إن كفار مكة أنكروا الإسراء ، وارتد بعض ضعاف الإيمان
بسبب الإسراء ، ولو كان الإسراء مناما لما أذكره كفار مكة ، ولما ارتد
بسببه ضعاف الإيمان ولما تميز أبو بكر الصديق بتصديقه من بين سائر
الناس :

وقد ركب الرسول البراق وركوب البراق من خصائص الأجساد ،
والإسراء في حقيقته معجزة إلهية خاصة بالرسول الأمين ، ولا حرج على
فضل الله ، ولا حدود لقدرته فهو سبحانه على كل شيء قدير ، قال
شوقي :

يتساءلون وأنت أظهر هيكل بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرا وكلاهما نور وروحانية وبهاء

وعد الله لبني اسرائيل

بدأت سورة الإسراء بالحديث عن الإسراء بالنبي الأمين ، والسورة في مجملها تتحدث عن النبي وعن القرآن الذي نزل عليه وموقف المشركين من هذا القرآن ، وفي خلال هذا الحديث تستطرد إلى ذكر بني اسرائيل والحديث عن ماضيهم وفسادهم في الأرض وعقوبة الله لهم كأنها تتوعد كل مكذب ومفسد بالعقاب البادل وفي هذا تهديد لكفار مكة . ولكل تخرج على نطاق الإيمان وشريعة العدل والنظام الإلهي .

ويلاحظ أن وعيد الله لبني اسرائيل على إفسادهم في الأرض مرتين لم يذكر في القرآن إلا في صدر سورة الإسراء .

وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان القوم الذين سلطهم الله على اليهود ونهب جمهور المفسرين إلى أن المسلط عليهم في المرة الأولى هو بختنصر البابلي وقد غزاهم سنة ٦٠٦ قبل الميلاد ، ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ قبل الميلاد فعادوا لبلادهم وأعادوا بناء هيكلهم .

والمسلط عليهم في المرة الثانية هم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠ م وقد كان إذلالهم في المرة الثانية أشد وأنكى ، وقد تفرق اليهود في البلاد بعد هزيمتهم الثانية وأصبح تاريخهم ملحقا بتاريخ الممالك التي نزلوا فيها ، ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا في العصر الحديث .

وينبغي أن ندرك أن آيات سورة الإسراء لا تحدد تاريخا معيننا لفساد اليهود . ولا قوما بأعيانهم سلطهم الله عليهم ، فإذا أردنا معرفة ذلك فلنرجع إلى التاريخ لا لنحكمه في فهم القرآن ، ولكن لنستأنس به فقط .

وخلاصة الآيات التي تحدثت عن فساد اليهود ما يأتي :

- ١ - أخبر الله أن بني اسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين وهذا الفساد معناه طغيان وعدوان منهم على عباد الله وخروجهم على الطريق القويم .
- ٢ - أخبر الله عنهم أنهم لما طفوا وبغوا سلط الله عليهم من ينتقم منهم .

- ٣ - بعد الانتقام الأول عادوا إلى طريق الجادة فانتصروا على أعدائهم
لكنهم لم يابثوا أن عادوا للفساد فحق عليهم وعيد الله .
- ٤ - ساط الله عليهم في المرة الثانية من أذلم وهدم هيكلهم وقضى عليهم
وعلى ملكهم .
- ٥ - ذكر الله أنه يشمهم برحمته إذا تابوا إليه فإن عادوا للفساد هاد عليهم
بالعقاب .

وقد عنيت سورة الإسراء بالحديث عن مكارم الأخلاق :

فدعت إلى توحيد الله وأمرت بالإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم
والعطف على الفقير والمسكين وابن السبيل ، ونهت عن التبذير والقتل
والزنا وتطفيف الكيل وأكل مال اليتيم والكبر والبطر ، وإذا قرأت الآيات
من ٢٣ - ٣٩ رأيت دستوراً أخلاقياً كريماً يأمر بالفضائل ويحث على القيم
وينهى عن الرذائل ويحذر من المعاصي والموبقات :

وترى أن القرآن أعظم كتاب في التربية الأخلاقية والساوكية وهذه التربية
هي التي صاغت المجتمع الإسلامي المحمدي صياغة جديدة مهيبة ، وصار
القرآن روحاً جديدة يسرى في أوصال المجتمع العربي والإسلامي فيهدم حطام
الجاهلية وأوثانها وبقيم على أشلائها دولة جديدة تؤمن بالله ورسوله وتهتدى
بكتابه الذي أنزله الله نورا وهدى . فترى المسلم إما عابداً في مسجده
أو ساعياً على رزقه أو مجاهداً في سبيل إعلاء كلمة الله ، وجمعت المسلمين
راية جديدة شعارها الإنحلاص وعمادها الحب لله ورسوله وقوتها في تماسك
المسلمين وأخوتهم وقرابطم وتساندهم حتى أصبحوا بدأ واحداً كالبنيان
المرصوص يشد بعضه بعضاً :

أوهام المشركين وحجج القرآن الكريم

في الآيات ٣٩ إلى ٥٨ من سورة الإسراء حديث عن أوهام الوثنية
الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله .
وتخلاصة ذلك - أنهم جعلوا للملائكة إناثاً ، ثم ادعوا أنهن بنات لله

ثم عبدوهن ، فأخطئوا في الأمور الثلاثة خطأ عظيماً .
ثم تحدثت السورة عن البعث واستبعاد الكافرين لوقوعه ، وعن استقبالهم
للقرآن وتقولانهم على الرسول عليه الصلاة والسلام وأمرت المؤمنين أن يقولوا
قولاً آخر ويتكلموا بالتي هي أحسن .

(وفي الآيات ٥٩-٧٢) بينت السورة لماذا كانت معجزة محمد صلى الله عليه
وسلم معجزة عقلية خالدة ولم تكن معجزة مادية محدودة ، فقد كذب الأولون
بالخوارق فحق عليهم الهلاك إنباعاً لسنة الله كما تناولت الحديث عن الإسراء
وحكمته وإن الله جعله فتنه وامتحاناً للناس ليتميز المؤمنون ، وينكشف
المنافقون ، ويحییء في هذا السياق طرف من قصة إبليس وإعلانه أنه سيكون
حرباً على ذرية آدم .

يحيیء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذي يبدو من
من المشركين ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله وتذكيرهم
بنعمة الله عليهم في تكريم الإنسان وتمييزه على جميع المخلوقات وتسخير
جميع الكون له حتى يفكر بعقله ويؤمن بقلبه فمن اهتدى أخذ كتابه بيمينه
يوم القيامة ، ومن عمى عن الحق في الدنيا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً .

(وفي الآيات ٧٣ - ٨٨) تستعرض سورة الإسراء كيد المشركين
للسلوك ومحاولتهم فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولته لإخراجه من مكة ثم
[تأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمضي في طريقه يقرأ القرآن ويؤدي الصلاة
ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه وتذكر رسالة القرآن بأنها شفاء للأمراض
الجاهلية ورحمة بالجماعة الإسلامية .]

(وفي الآيات ٨٨ - ١١١) نجد القسم الأخير من السورة ويستمر
الحديث في هذه الآيات عن نزول القرآن وإعجازه بينما يطلب كفار مكة
خوارق مادية ويطلبون نزول الملائكة ويقترحون أن يكون للرسول بيت من
الزخرف أو حجة من نخيل وعنب تنفجر الأنهار خلالها تنفجيراً ، أو أن
ينفجر لهم من الأرض ينبوعاً من الماء ، أو أن يرقى هو في السماء ثم يأتيهم
بكتاب ملحوس محسوس فيه شهادة بأنه مرسل من عند الله . إلى آخره .

هذه المقترحات التي يملها العنت والمكابرة ، لا طلب الهدى والافتناع ، ويرد الله على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة .

فالرسول بشر يوحى إليه وايس لها يتحكم في مظاهر الكون ، وقد سبق أن أعطى الله موسى معجزات مادية فكذب بها فرعون وجحد نبوة موسى فكانت العاقبة أن أغرق الله فرعون ومن معه من المكذبين .

إن طريقة القرآن الكريم هي طريقة الدعوة الهادفة المتأنية وقد نزل مفرقا ليقرأه الرسول على قومه في هدوء وتؤدة ، وليجيب على أسئلة السائلين وليكون كتاب الحياة يجيها مع المؤمنين يعلمهم دينهم ويرد عنهم دعاوى أعدائهم ويلفت انظارهم إلى الكون وما فيه حتى يعبدوا الله ويسجدوا له عن خشوع ويقين ، وتحتم سورة الإسراء بحمد الله وتنزيهه عن الولد والشريك في الملك كما بدئت بتنزيه الله وتسيحه في أول السورة :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾

وفي آخر السورة :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرَةٌ تَكْبِيرًا ﴾ الإسراء ١١١ .

من أسرار الاعجاز في سورة الاسراء

يقول الله تعالى في سورة الإسراء :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ . الإسراء ٨٨ .

أقد كانت هناك معركة فكرية ونفسية بين القرآن وبين المشركين الصق المشركون فيها اتهم بالرسول عليه الصلاة والسلام فرموه بالسحر والجنون وافتراء القرآن من عند نفسه ، وقد نزلت سورة الإسراء في ذروة هذه المعركة واحتدامها بعد أن مات أبو طالب عم الرسول وماتت زوجته خديجة فكان

الإسراء نسر به الرسول الأمين ، وكانت سورة الإسراء قلعة من حصون البيان والجدال بالحجة الدامغة . والدليل الواضح .

إنك تحس عند قراءة السورة بنصائح حية تصور هتف المشركين وخلال عقيدتهم وتبرز أسلوب الدعوة الخليلي التي يلك الحجية على قضية الألوهية وسوق الأدلة على قضية من سجلات التاريخ ومن واقع الكون ومشاهدته، ومن نصلي بالقرآن وتأكيد حيزم عن الإتيان بمثله .

والقرآن من خلال حديثه يتخل من فن إلى فن ومن وصف للإسراء إلى حديث عن تاريخ اليهود إلى رد على دعوى المشركين إلى ذكر قصص آدم وبلبلس ، وفرعون ، وموسى .

ويربط القرآن بين هذه الأفكار المتناثرة في الظاهر برباط قوى متين ، يؤكد أنه كتاب الله .

وقد تعرضت علوم السابقين لتفحص والتعديل ، ولم يبق آتتاب متره عن التفحص واليبب إلا هذا الكتاب .

وفي ختام هذا الحديث يمكننا أن نرجع أمسلف سورة الإسراء إلى الأمور الآتية :

- ١ - معجزة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .
- ٢ - تاريخ بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض وعضوبة الله لهم .
- ٣ - جملة من الأدب يجب على المسلمين أن يتحلوا بها حتى نقتل رابطتهم قربة متماسكة .
- ٤ - بيان أن كل ما في السموات والأرض مسرح لله .
- ٥ - الكلام عن البحث مع إقامة الأدلة على إمكانه .
- ٦ - الرد على المشركين الذين اتخلوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .
- ٧ - الحكمة في علم إزال المعجزات التي انترجوها على محمد صلى الله عليه وسلم .
- ٨ - قصص سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس عن السجود .

- ٩ - اعتماد بعض نعم الله .
- ١٠ - طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم في بعض معتقداتهم وإيمانهم في ذلك .
- ١١ - أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة والتجهد في الليل .
- ١٢ - بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأثروا بمثله .
- ١٣ - قصص موسى مع فرعون .
- ١٤ - الحكمة في إنزال القرآن منجها .
- ١٥ - تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

دروس من سورة الكهف

سورة مكية

المشهور بين العلماء أن سورة الكهف مكية كلها ، وأنها من السور التي نزلت جملة واحدة كما جاء في الخبر الذي أخرجه اللديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « نزلت سورة الكهف جملة » .

وقد روى ذلك أيضاً عن بعض الصحابة ، وأختاره الداني ، ومشي عليه أكثر أهل التفسير والمتكلمين في علوم القرآن وهناك روايات أخرى تخالف هذا المشهور فتقرر أن السورة مكية إلا بعض آياتها ، فإنه مدني .

وفي المصحف الفؤادي المطبوع بمصر ، سورة الكهف مكية إلا آية ٣٨ ومن آية ٨٣ إلى غاية ١٠١ فمدنية ، وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية .

وقال الفيروزبادي : « السورة مكية بالاتفاق وفيها إحدى عشرة آية مختلف فيها بين مكيتها ومدنيتها ، وهي الآيات : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٣ (١) » .

وينبغي أن يعلم أن كثيراً مما ذكر أنه مدني تضمنته سورة مكية ، أو مكي تضمنته سورة مدنية ، هو موضع خلاف بين العلماء لإختلاف الرواية فيه ، أو لانبثاق الحكم فيه على اجتهاد واستنباط من القائل به وفي ذلك يقول ابن الحصار فيما نقله عنه السيوطي في الإتقان : « كل نوع من المكي

(١) رسائل ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي المصنف سنة ٨٢٧ هـ ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ، ج ١ ص ٢٩٧ .

والمدنى منه آيات مستثناة ، إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على
الإجماع دون النقل (١) .

القصص فى سورة الكهف

القصص هو العنصر الغالب فى هذه السورة ، فى أولها تبنى قصة
أصحاب الكهف وبعدها قصة أصحاب الجنتين ثم إشارة إلى قصة آدم
وإبليس . وفى وسطها تبنى قصة موسى مع العبد الصالح . وفى نهايتها قصة
ذى القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة فهو وارد فى إحدى
وسبعين آية من عشر ومئة آية : ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق
على القصص أو تعقيب عليه .

ويلتقى هذا القصص حول فكرة أساسية للقرآن وهى إثبات أن البعث
حق وأن المؤمن يكافأ بحسن الجزاء ، وأن الكافر يلقى جزاء عنته وكفره
فى الدنيا أو الآخرة .

قصة اصحاب الكهف

فى قصة أصحاب الكهف يتجلى صدق الإيمان وقوة العقيدة والإعراض
عن كل ما ينافيها إعراضاً عملياً صارماً ، لا تردد فيه ولا مواربة ، فنية وأوا
قومهم فى الضلال يعمهون ، وفى ظلمات الشرك يتخبطون ، لا حجة لهم
ولا سلطان على ما يزعمون ، وأحسوا فى أنفسهم غيرة على الحق لم يستطيعوا معها أن
يبقوا فى هذه البيئة الضالة بأجسامهم ، ولو خالفوها بقلوبهم ، فتركوا أوطانهم
وتركوا صلحهم واعتزلوا قومهم وأهلهم ، وخرجوا فارين متجنبين الشيطان
وأهل الشيطان ، وآثروا كهفاً يأوون إليه فى فجوة منه ، لا يراهم فيه أحد ،
ولا يؤنسهم فى وحشتهم إلا كلبهم .

ذلك هو مغزى القصة الخلقى ، وفيه ما فيه من إرشاد وإحياء وتمجيد

(١) الاتقان فى علوم القرآن ١ - ١٧ .

لأخلاق الشرف والرجولة والنهات على العقيدة والوضحية في سبيلها .
أما المعنى العام الذي تتلأق فيه القصة مع غرض السورة فهو إثبات
قدرة الله على مخالفة السنن التي ألفها الناس وظنوا أنها مستعصية عليه جل
شأنه ، أن يتبدل أو يتحول كما هي مستعصية على كل مخلوق ، وشتان
بين قدرة الخالق والمخلوقين ، وهذا ما تشير إليه القصة في ثناياها إذ يقول
الله عز وجل :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ

لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ الكهف ٢١ .

قصة موسى والخضر

أما قصة موسى وفتاه والعبد الصالح قلبا بها ومغزاها هو إثبات تصور
الخالق مهما سمت عقولهم ، وكثرت علومهم أمام إحاطة الله وعلم الله .
وهكذا ترتبط - في سياق السورة - قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة
أصحاب الكهف في ترك الغيب لله الذي يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه
الشامل الذي يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف لهم عما وراءها
من الأسرار إلا بمقدار .

لقد وقف موسى خطيبا في بني إسرائيل فأجاد وأبدع في خطبته ،
فقال له أحد المستمعين ما أفصحك يا نبي الله هل في الأرض من هو أكثر علما
منك ؟ قال موسى لا ، فأخبره الله أن في الأرض من هو أكثر علما منه ،
فقال موسى يا رب ذنبي عليه حتى أذهب إليه فأتعلم منه ؟

وضرب موسى لنا مثلا رائعا في الرحلة لطلب العلم وتحمل الصعاب
والمشقات بهمة الرجال وعزيمة الأبطال .

إذاً هم أتى همه بين عينه ونكب هن ذكر العواقب جانبا

سار موسى مع تابع له هو يوشع بن نون ومعهما حوت في مكنته ،

وبلغ مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم . أى البحر الأبيض والبحر الأحمر ، وأنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر ،

وفى المكان الذى أراد الله أن يلتقى فيه نبي بنى إسرائيل بعبيده الصالح ، فقد موسى حوته وعاد ليبحث عنه فوجد رجلا نحيل الجسم ، غائر العينين ، عليه دلائل الصلاح والتقوى ، فسلم عليه موسى ، وتلطف معه فى القول وأبدى رغبته فى اتباعه، ليتعلم منه العلم ، فاشتراط الخضر على موسى [الصبر والتريث فقال موسى :

﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ الكهف ٦٩

وانطلق موسى مع الخضر فى سفينة جيدة ، وفى غفلة من أهلها أخذ الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعهما ، فذكره موسى بأن هذا ظلم وفساد ، فالتفت الخضر إليه وقال :

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ الكهف ٧٢

فاهتذر موسى بالنسيان ووعده أن يرافقه مع الصبر والسكوت . وسار الرجلان ثم قتل الخضر غلاما بريئا فى عمر الزهر فاحتج موسى ، وذكره الخضر بالشرط فسكت .

وفى الجولة الثالثة دخل الرجلان قرية وكان الجوع قد اشتد بهما فطلبوا من أهلها طعاما فأبوا إطعامهما ورأى الخضر جدارا متداعيا أوشك أن يقع فطلب من موسى مساعدته حتى بناه وأتم بناءه واعترض موسى على هذا العمل لأن أهل القرية لا يستحقون مثل هذا المعروف فهم بخلاء لؤماء ، فينبغى أن يأخذ الخضر أجرا على بناء الجدار لهم ، وافترق الرجلان بعد أن سمع موسى من الخضر سبب هذه الأعمال :

أما السفينة فكانت ملكا لجماعة من المساكين يعتمدون عليها فى كسب الرزق ووراءهم ملك ظالم يستولى على كل سفينة صالحة للعمل غصبا فخرق الخضر السفينة ليرأها الملك هاطبة فيتركها ليستفيد بها أهلها ، فهو عمل مؤلم

في الظاهر ولكنه مفيد في الحقيقة والواقع :

وأما الغلام فقد كان مفسداً ومسيباً على الفساد والإفساد وكان أبواه
مؤمنين فأراد الله أن يقبض الغلام إلى جواره وأن يعوض والديه بذنا صالحه
تزوجت نبيا وأنجبت نبيا .

وأما الجدار فكان ماكما لغلامين يتيمين تحذرا من رجل صالح كريم ،
وكان تحت الجدار كنز من المال ولو سقط الجدار لتبدد الكنز فأراد الله
أن يقام الجدار ويمجد حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما حلالاتهما . . .
ثم قال الخضر :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ الكهف ٨٢

وقد يتساءل الإنسان عن عمل الخضر عليه السلام ، وهل هو مشروع
على الإطلاق ، وهل يجوز لمن علم في حادثة - ما - مثل ما علمه العبد
الصالح من حقيقة الأمر فيها أن يخالف الظاهر ؟

وقد اهتم بعض المفسرين بترديد أمثال هذه الأسئلة والمناقشات والإجابة
عنها وتخريج ما يحتاج منها إلى تخريج ، كأن الأمر أمر أحكام شرعية
أو بيان لموضوعات خلافية . والواقع أنه لم يقصد بهذه القصة إلا الاقتناع
بأن الإنسان مهما اتسع عقله وسمت مداركه وعلا منصبه ، محدود في
علمه ، وأن كثيرا من الأمور يخفى عليه ، وأن لله عبادا قد ينصهم بنوع
من العلم لا يبدهه لجميع الناس ، ولا يستقيم حال الدنيا على بدله
لجميع الناس .

قصة ذي القرنين

تلك قصة عبد مكن الله له في الأرض وسخر له العلم والقوة والآلات
والمواصلات وآتاه من كل شيء سببا . وقد استغل هذه الإمكانيات في
عمل منمر نافع يعم نفعه ويبقى أثره وقد تحرك ذو القرنين إلى المغرب غازيا
فالتحق ، محاربا مجاهدا وسار النصر في ركابه حتى انتهى إلى عين اختلط ماؤها

وطيئها فترأى له أن الشمس تغرب فيها وتختفي وراءها وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو ولا سبيل للجهاد ، ولكنه رأى عندها قوماً هاله كفرهم ، وكبر عليه ظلمهم وفسادهم فخيره الله بين قتالهم أو إهلاكهم ودعوتهم للعدل والإيمان فاختر إهلاكهم وقام فيهم مدة ضرب على يد الظالم ونصر المظلوم وأخذ بيد الضعيف ، وأقام صرح العدل ، ونشر لواء الإصلاح وقد وضع لهم دستور الحكيم العادل فقال :

﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا .
وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا﴾ الكهف ٨٧ ، ٨٨ .

وقد عاد ذو القرنين إلى الشرق فسار غازيا مجاهدا حتى انتهى إلى غاية العمران في الأرض وهناك وجد أقواما تطلع الشمس عليهم ، ولكن ليس لهم بيوت تسترهم ، أو أشجار تظلمهم ولعلمهم كانوا على حال من الفوضى ونصيب من الجهل . . فبسط حكمه عليهم ونفذ فيهم دستور العدل ومكافحة المحسن ومعاينة المسيء الذي سبق ذكره ، ثم تركهم إلى الشمال غازيا مجاهدا مظفرا منصورا ، حتى انتهى إلى بلاد بين جبليين يسكنها أقوام [لا تكاد تعرف لغاتهم ، أو يفهم في الحديث مرمام ، ولكنهم قد جاوروا بأجوج ومأجوج ، وهم قوم مفسدون في الأرض ، وأوزاع من الخلق ضالون مزلون .]

وقد بلغ الأقسام إلى ذى القرنين ليحول بينهم وبين المفسدين وشرطوا على أنفسهم نولا يدفعونه إليه ، وأموالا يضعونها بين يديه ولكن ذا القرنين أجابهم إلى طلبهم ورد عطاءهم وقال لهم :

﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ الكهف ٩٥ .

ثم طلب إليهم أن يعينوه على ما يفعل فحشدوا له الحديد والنحاس ، والخشب والفحم ، فوضع بين الجبليين قطع الحديد وحاطها بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار ، وأفرغ عليه فائب النحاس ، واستوى كل

ذلك بين الجبلين سدا متهما قائما ، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تظهره
للاسته ، أو تنقبه لمئاته ، وأراح الله منهم شعبا كان يشكروا من أذاهم ،
ويألم من عبوانهم .

ونظر ذو القرنين الى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه اليطر
والغرور ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد اليه العمل الصالح الذى وفقه اليه
وتبرأ من قوته الى قوة الله ، وأعلن عقيدته فى البعث والحشر وإيمانه
بأن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض
سطحا أجرد مستويا وهكذا تختم هذه القصة بتأكيد قدرة الله على البعث :

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ
وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ الكهف ٩٨ .

« وبذلك تنتهى قصة ذى القرنين ، النموذج الطيب للحاكم الصالح ،
يمكنه الله فى الأرض ، ويسر له الأسباب ، فيجتاح الأرض شرقا وغربا ، ولكنه
لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يظغى ولا يتبطر ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للنعم المادى ،
واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة
الرقيق ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه .. إنما ينشر العدل فى كل مكان
يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدبرأ عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم
القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ودفع العدوان واحقاق
الحق . ثم يرجع كل خير بحقه الله على يديه إلى رحمة الله وفضله ،
ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبر وأنه ، وأنه راجع إلى الله» (١) .

(١) فى ظلال القرآن ج ١٦ ص ١٥ ط ١ .

أهداف سورة الكهف

نزلت سورة الكهف بمكة في وقت اشتدت فيه حملة القرآن على المنكرين المكذبين بيوم الدين . وقد نزلت قبلها سورة الغاشية وهي سورة تبدأ وتنتهي بمحدث الساعة وإياب الناس جميعا إلى الله ليحاسبهم على ما قدموا .
ونزل بعد سورة الكهف سورة النحل وعدة سور تحدثت عن البعث والجزاء وأثبتت وحدانية الله وقدرته وذكرت عقوبته للمكذبين وأخذه على يد الظالمين .

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث، ويستبعدون وقوعه في عناد وإصرار فتكفل القرآن بمناقشتهم وتفنيدهم آرائهم وأثبت قدرة الله على البعث والجزاء ، وقدم الأدلة على هذه القضية وساق في سورة الكهف عددا من الحجج والبراهين على حقيقتها مبرزاً ذلك في صورة واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والإفحام . فال محور الموضوعي لسورة الكهف هو تصحيح العقيدة ، وتأكيده قدرة الله على البعث والجزاء ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر ذلك فيما يأتي :

١ - بدأت السورة بقوله تعالى :

﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قوما لينتروا بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا . ما كثرين فيها أبدا ﴾ . الكهف ١ - ٣

وهي تتحدث في هذا البدء عن الدار الآخرة وما فيها من بأس شديد يصيب أقواما ، وأجر حسن يفوز به أقوام آخرون .
وختمت بقوله تعالى :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ . الكهف ١١٠ .

وهي تتحدث في هذا الختام عن الدار الآخرة أيضا وعن يرجو لقاء ربه ،
وما يجب عليه أثرا لهذا الرجاء والإيمان من عمل صالح ، وتوحيد لله لا يخالطه
إشراك .

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها : أولها يتحدث عن الآخرة بطريق
التقرير لها ، وبيان مهمة القرآن في إثبات ما يكون فيها من الجزاء إنذارا
وتبشيرا ، وآخرها يتحدث عن هذه الحقيقة التي تركزت وتقررت وبها يحاكم
الناس إليها في الإيمان والعمل الصالح .

ومما يلاحظ أن آيات البدء قد ذكر فيها أمر الدين قالوا اتخذ الله ولدا ،
من انذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله ، وذلك هو قول الذين
يشركون بالله ، ويعتقدون ما ينافي وحدانيته وتنزيهه ، وأن آية الختام قررت
﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ وأن على من يؤمن به ، ويرجو لقاءه ألا يشرك
بعبادته أحدا ، فتطابق الأول والآخر في إثبات الوجدانية والتنزيه لله جل
وعلا ، كما تطابقا في أمر البعث والدار الآخرة .

٢ - أما في أثناء السورة وما بين بدئها وختمها ، فقد جاء أمر البعث
عدة مرات :

(أ) جاء في مقسمة قصة أصحاب الكهف التي ساقها الله حقيقة من
حقائق التاريخ الواقعية ، دليلا على قدرته ، وتنظيرا لما ينكره الكافرون
من أمر البعث والنشور :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾

الكهف ٩ ، وفي ثنايا هذه القصة :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ

لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ الكهف ٢١ .

فهي تقرر أن أصحاب الكهف آية من آيات الله ، وأنهم مع
غرابة أمرهم لا يعدون في جانب القدرة الإلهية عجبا ، فلأنهم فنية آمنوا

بريهم ، وأووا إلى الكهف فرارا بعقيدتهم ، فضرب الله على آذانهم فيه مدة من الزمن ثم بعثهم ، وإذن فالله قادر على أن يضرب على آذان الناس جميعا في هذه الدار بالموت ، كما يضرب على آذانهم بالنوم ، ثم يبعثهم إلى الدار الآخرة كما بعث هؤلاء الفتية ، وما ذلكم على الله بعزيز ، ولا هو في قدرته بعجيب ، وتقرر أن العبرة من بعثهم والاعتبار عليهم هي أن يعلم الناس أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .

(ب) وجاء أمر البعث مرة ثانية في هذه السورة حين قررت أن الحق من الله ، وأن كل امرئ يخير في الإيمان أو الكفر :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾

فهناك دار أخرى غير هذه الدار يجامب فيها كل امرئ ، ويجزى بما يستحقه :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ الكهف ٢٩

وللذين آمنوا وعملوا الصالحات :

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ الكهف ٣١ .

(ج) وجاء أمر البعث في المثل الذي ضربه الله للناس عن صاحب الجنتين وزمياه ، وما كان من إنكاره قدرة الله ، وشكك في الساعة ، ونصح صاحبه له وتبرئه منه وأن الله قد أحال الجنتين صعيدا زلقا ، وحيثلته تنبه الكافر فقال :

﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ الكهف ٤٢

(د) وجاء أمر البعث بعد هذا في المثل الذي ضربه الله بالحياة الدنيا ، يكون فيها نبات وزينة ثم يصبح ذلك كله هشيما تلوره الرياح ، وتنتهي الدنيا وما فيها ، قد عقب الله على هذا المثل بذكر الجبال وسيرها ، والأرض

وبروزها ، والحشر وشموله ، والعرض على الله ، ووضع الكتاب ،
واشفاق المجرمين مما وفيه ، وقولهم :

﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ الكهف ٤٩ .

(هـ) وجاء في السورة أيضا إشارة إلى قصة آدم وإبليس ، حيث طلب الله
من الثاني أن يسجد للأول فأبى ، فتقررت بينهما العداوة منذ ذلك اليوم
إلى أبد الدهر . وحذر الله أبناء آدم من أن يتخذوا الشيطان وذريته أولياء
من دونه ، مع هذه العداوة المتأصلة ، ثم ذكر لهم أمرا من أمور الآخرة
بعد هذا التحذير من اتخاذ الأولياء أو الشركاء — حيث ينادى الشركاء
فلا يجيبون ، ويستجار بهم فلا يجيرون ؛ وتبرز الجحيم فيراها المجرمون
ويظنون أنهم مواقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفا .

وفي هذا الأسلوب جمع بين المبدأ والمعاد ، ووضع لقضية الخلق
والبعث مقترنتين بين يدي العقل . ليدرك الإنسان أنه منذ أول نشأته
هدف لعدوميين يحاول إضلاله وافتته عن الطريق المستقيم حسدا له وانتقاما
منه ، وأن أخطر هذا الإضلال هو الوصول إلى حد الثقة بالعدو المبين ،
واتخاذها وليا من دون الله يتبع أمره وينصر هواه ، وأن هذا العدو المخاتل
سيكون أمره يوم الجزاء كسائر الشركاء ، يزينون الكفر والعصيان ما داموا
في الدنيا . حتى إذا جاء أمر الله أعلنوا براءتهم ممن اتبعوهم وضأوا
بسيبهم :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ
فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ الحشر ١٦ ، ١٧ .

(و) وجاء في هذه السورة أيضا — مما يتصل ببراہین البعث — قصة موسى
وفتاه والعبد الصالح . وهي قصة عظيمة حافلة بالفوائد والمعاني الجليلة .
وعنها يساق الحديث على نحو يشعر معه كل سامع شعورا قويا بأن لله

علما فوق علم الناس ، وتصريفا للكون على سنن منها ما هو معروف ومنها ما هو خفي . وإذا آمن الناس بهذا وأطمأنوا إليه . لم يعد هناك مجال للعجب من أمر الساعة . فما هي إلا تغيير يحدثه خالق الكون ومالك ناصيته : فإذا السنن المعروفة تحمل محلها سنن أخرى ، ومن قدر على إنشاء السنن قدر على تغييرها . وبهذا يؤمن كل عاقل بصدق ما أخبر به المعصوم من كل أمر يبدو أمام العقول عجيبا : وهو في قدرة الله غير عجيب :

(ز) جاءت السورة أيضا - بعد هذه القصة - بقصة أخرى عن عبد مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سيبا ، حيث سخر له العلم والقوة وأسبابا أخرى كثيرة ، ذلك هو « ذو القرنين » وقد لجأ إليه قوم ليحول بينهم وبين المفسدين ، فأنجدهم وأعانهم وجعل الله عمله في ذلك رحمة للناس يبق ما بقيت هذه الحياة ، فإذا جاء وعد الله ضاعت السدود والحوائل وأصبحت ذكا ، وترك الناس مضطربين يمجج بعضهم في بعض ، ثم ينفخ في الصور فيجمعون جميعا ، وتعرض يؤمئذ للكافرين جهنم عرضا ، فيبصرون وقد كانت أعينهم من قبل في غطاء ، ويسمعون وقد كانت آذانهم من قبل في صمم . وهكذا نجد القصة قد انتهت إلى أمر البعث والدار والآخرة وما فيها وتخلصت إليه في براعة وقوة ، مذكرة به ، منترة ما هنالك من الأهوال والشدائد .

(ح) ثم تأخذ السورة بعد ذلك في تهديد الكافرين الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، وتبين ما أعد لهم ، وتوازن هؤلاء جميعا بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعد لهم ، ويأتي ختامها بعد إثبات القدرة والمظمة لله وأن كلماته لا تنفذ ولو كتبت بماء البحار - والمراد آياته في الكون وتصريفه وآثار قدرته - فتذكر رسالة الرسول وأنها عن وحى من هذا الخالق القاهر الواحد ، وتتوجه بعد ذلك إلى جميع الناس بصيغة من صيغ العموم ، هي لفظ « من » فتقول :

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ

رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الكهف ١١٠ .

بهذا يتجلى للتساظر في السورة أنها منتظمة النسق ، مطردة السياق ، واضحة الغرض ، قوية الأسلوب ، متماسكة في أولها وآخرها وأثنائها . يجول فيها معنى واحد تلتقى عليه الآيات والأمثال والتقصص والوعد والوهد والتذكير والبيان . ولذلك يقول الله عز وجل في آية من آياتها :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ الكهف ٥٤ .

دروس من سورة مريم

سورة مريم مكية نزلت بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة وقبل الإسراء وكانت الهجرة إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة ، وكان الإسراء في السنة الحادية عشرة للبعثة ، قبل الهجرة إلى المدينة بسنة وشهرين .

أى أن سورة مريم نزلت بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم للذكر قصة مريم فيها وعدد آياتها (٩٨) آية ، وعدد كلماتها (١١٩٢) كلمة .

اهداف السورة

الأهداف الأساسية لسورة مريم هي تنزيه الله عن الولد والشريك ، وإثبات وحدانية الله ، والإمام بقضية البعث القائمة على التوحيد .
هذه هي الأهداف الأساسية للسورة . كالشأن في السور المكية غالباً .
والقصص هو مادة هذه السورة : فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى . فقصة مريم ومولد عيسى ، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه . . ثم تعقبها بإشارات إلى النبيين : إسحاق ويعقوب ، وموسى وهارون ، وإسماعيل ، وإدريس .
وآدم ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة ، ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث ، ونفي الولد والشريك وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .

ومن ثم بعض مشاهد القيامة وبعض الجدل مع المنكرين للبعث ، واستنكار
الشرك ودعوى الولد ، وعرض لمصارع المشركين والمكذابين في الدنيا وفي الآخرة
وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة ويتجمع حول محورها الأصيل :

« والسورة كلها جو خاص يظلمها ويشيع فيها ويتمشى في موضوعاتها »
إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية . . الانفعالات في
النفس البشرية ، وفي « نفس » الكون من حولها . فهذا الكون الذي نتصوره
جماد لا حس له يعرض في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ،
تشارك في رسم الجوالعام للسورة حيث نرى السماوات والأرض والجبال
تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتهد استنكارا :

﴿ أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ سورة

مريم ٩١ و ٩٢ .

« أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتاح السورة وتنتهي مع ختامها
والقصص الرئيسي فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة :
وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى » (١) :

القصص في سورة مريم

القصص في سورة مريم امتداد للقصص في سورة الكهف : فهناك ظهرت
قدرة الله البالغة في حفظ أصحاب الكهف وإحيائهم بعد موتهم ، وفي إعطاء
الرحمة والعلم للخضر عليه السلام ، وفي منح ذي القرنين أسباب الملك والسلطان
والسيادة ، وهنا تظهر رحمة الله وفضله على زكريا إذ يمنحه يحيى على كبر
وشيوخه ، وتظهر قدرة الله البالغة في خلق عيسى من أم دون أب ، ثم
نعمته السابغة على الأنبياء والرسل ورعاية الله لهم حتى يؤدوا رسالتهم ، ويظهر
ذلك في قصة إبراهيم مع أبيه ، وقصة موسى مع قومه ، وقصة إسماعيل الصادق
الوعد ، وقصة إدريس الصديق النبي :

(١) في ظلال القرآن ٢٤/١٦ ط ١ .

زكريا ويحيى

ذكرت حلقة من هذه القصة في سورة آل عمران ، ولكنها في سورة مريم تخالف ما سبق منها في أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة وتقص .

إن السمة الغالبة هنا هي سمة الرحمة والرضا والاتصال فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا وهو يناجي ربه نجاء خفياً .

فتصور أحاسيس ذلك الشيخ الهرم ورغبته في الذرية والولد ودعائه لله خفية بعيداً عن زوجته وعن الناس .

ثم ترسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضا .. فالرب ينادى عبده من الملأ الأعلى « يا زكريا » ويعجل له البشري .

﴿ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ﴾

ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشره : « اسمه يحيى » . وهو اسم فذ غير مسبوق : ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ . . .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء فإذا هو يواجه الواقع . . إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتياً ، وهن عظمه واشتعل شيبه وامرأته عاقرة لم تلد في فتوته وصباه : فكيف ياترى سيكون له غلام ؟ ؟

﴿ قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ

مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ مريم ٨

ثم يأتيه الجواب عن سؤاله . بأن هذا أمر هين يسير أمام قدرة الله فهو سبحانه الخالق الفعال لما يريد . وهو سبحانه الذي جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ القاني لا ينسل . وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب في الرجل وهو على كل شيء قدير .

وتمت ولادة يحيى وكبر وترعرع وأحكم الله عقله وهياه لرعاية ميراث

أبيه في حزم وعزم ولم يكن هذا الميراث مالا أو حقارا وإنما كان رسالة الهدى
ودعوة الإيمان وناداه الله :

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ مريم ١٢

والكتاب هو التوراة كتاب بنى إسرائيل من بعد موسى وعليه
كان يقوم أنبيأؤهم يعملون به ويحكمون . وقد نودى يحيى ليحمل العبء
وينهض بالأمانة في قوة وعزم . لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن
تكاليف الوراثة . .

وقد زود الله يحيى بالحكمة في صباه ووهبه الحنان والعطف لتأليف
القلوب واجتنابها إلى الخير وآتاه الطهارة والتقوى فكان موصولا بالله عابدا
له مجاهدا في سبيله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخشى في الله
لومة لأثم .

حكمة خلق عيسى

انتقلت السورة من قصة ميلاد يحيى إلى قصة ميلاد عيسى وقد تدرج
السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلمها
الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل وهي
أعجب وأغرب .

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلا وإنشائه على هذه الصورة
فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها
كله ويكون حادثا فلذا لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها . وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها
لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب ولا أم . وقد مضت القرون بعد
ذلك الحادث . فشامت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى
من غير أب على غير السنة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض .
ليشهدها البشر ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تلفت إليها

الأجيال . إن عز عليها أن تلتفت إلى العجبية الأولى التي لم يشهدها إنسان !
لقد جرت سنة الله في امتداد الحياة بالتنازل من ذكر وأثى في جميع
الفصائل بلا إستثناء .

حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأثى متميزان تتجمع في الفرد
الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث . جرت هذه السنة أحقابا طويلة حتى
استقر في تصور البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة ونسوا الحادث الأول .
حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم
مثل عيسى ابن مريم - عليه السلام ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة .
وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى لأن
الأصل هو أن تجرى السنة التي وضعها الله وأن ينفذ الناموس الذي اختاره .
وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلما بارزا على حوية
المشيئة وعدم احتياها داخل حدود النواميس :

﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ .

ونظرا لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره
على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه . فجعلت تضفي على عيسى ابن
مريم - عليه السلام - صفات ألوهية . وتصوغ حول مولده الخرافات
والأساطير، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب - وهي إثبات
القدرة الإلهية التي لا تنتهك - تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد . والقرآن في هذه
السورة يقص كيف وقعت هذه العجبية ويبرز دلالاتها الحقيقية وبنى تلك
الخرافات والأساطير .

قصة ميلاد عيسى

وهب الله مريم التقوى واليقين ووزقها من فضله بغير حساب وفي يوم
ما اعتكفت مريم كهاتها . وتوارت من أهلها واحتجبت عن أنظارهم .
وبينا هي في خلوتها . مطمئنة إلى انفرادها . إذ ظهر أمامها رجل مكتمل
سوى الحلقة فانتفضت انتفاضة العتراء المدعوة بفجؤها رجل في خلوتها ،

فطلباً إلى الله تستعونه به وتستنجد به وتستشير مشاعر التقوى في نفس الرجل ،
والخوف من الله والتخرج من رقابته في هذا المكان الخالي : ولكن الرجل
السوى هدأ من روعها وأعاد إليها طمأنينتها وأخبرها أنه ملاك أرسله الله
إليها لحكمة إلهية وفضل رباني :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ مريم ١٩ .

وتدرك مريم شجاعة الأنثى المهلدة في عرضها ! فتسأل في صراحة
وحجة قائلة :

﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ مريم ٢٠ .

فهي لم تخالط رجلاً في نكاح ولا في سفاح فأخبرها الملاك أن هذا الحمل سيتم
بقدرته الله وحده وهو أمرهين أمام هذه القدرة التي تقول للشيء يمكن فيكون
وقد أراد الله أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس وعلامة على وجوده
وقدرته وحرية إرادته .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلِيٌّ هِينٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً

مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ مريم ٢١ .

ثم مضى الملاك واختفى . وتم الحمل بقدرته الله ، وجلست مريم حائرة
تفكر في أمر نفسها وتخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير
أن يكون لها بعل ، وفي حدة الألم ومرارة الخوف نظرت إلى الطفل في حسرة
واكتئاب ، وجعلت تمنى لو ضمها القبر . وفارقت هذا العالم قبل أن تصير
أما من غير أن تتزوج فقالت :

﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ مريم ٢٢ .

لكنها ما لبثت أن سمعت صوت ووليدها فبلدد مخاوفها وكفكف دموعها .
ونادى من تحتها :

﴿ أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ مريم ٢٤

أي جاسولاً يجرى ماؤه في تلك البقعة الجرداء والأرجح أنه جرى

للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل . وهذه النخلة التي تستندين
إليها هزيبها فتساقط عليك رطباً . فهذا طعام وذاك شراب والطعام الخلو
مناسب للنساء . والرطب والتمر من أجود طعام النساء :

﴿ فكل واشربى ﴾ هنيئاً ﴿ وقرى عيناً ﴾

واطمئني قلباً . بما ترين من قدرة الله التي أخضر بها جذع النخلة
اليابسة . وطيب نفسي بما حباك الله من جريان الماء في تلك البقعة المقفرة
واطمأنت مريم إلى فضل الله وإلى أن الله لن يتركها وحدها وإلى أن حاجتها
معها . هذا الطفل الذي ينطق في المهد .

ورجمت مريم إلى قومها وعشيرتها تحمل وليدها على كتفها ، وسرعان
ما شاع أمرها . وعرف خبرها . وجاء أقاربها يؤنبونها باللسنة القوية والتأنيب
ويلومونها على هذه الفعلة المنكرة ويذكرونها بشرف أسرته وأكرم أصلها .
والتزمت مريم الصمت وأشارت إليهم أن كلموا هذا الوليد إن أردتم الوقوف
على حقيقة الأمر .

فقال القوم لها :

(كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) مريم ٢٩

كيف نكلم وليدا لم تكتمل أدوات نطقه . ولم تتحرك شفته إلى ثدي أمه .
فانطلق الوليد يجيبهم في بيان وحجة وبرهان وقال :

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْمًا

كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ
يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ
أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ مريم ٣٠ - ٣٣ .

وهكذا يعلن عيسى - عليه السلام - عبوديته لله . فليس هو ابنه كما
تدعي فرقة . وليس هو إلهها كما تدعي فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة كما تدعي

فرقه ، ويعلم أن الله جعله نبيا لا ولدا ولا شريكا ، وأن الله أوصاه بالصلاة
والزكاة مدة حياته .

اسلوب القرآن

تحس في كلمات هذه السورة السهولة واليسر ، والرضا واللطف فهي
كلمات معبرة عن معانيها ، فمعاني السورة تدور حول فضل الله على
زكريا ومريم وغيرهما من الأصفياء .

ويتمثل الرضا والسلاسة واليسر في معاني السورة كما يتمثل في ألفاظها
وفواصلها وهي : رضياً ، سرياً ، خفياً ، نجياً ...

فأما المواضع التي تقتضى الشدة والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة
على حرف الدال في الغالب : مدا ، ضدا ، إدا ، هدا ، أوزايا : عزاء ، أزا .

ويتنوع الإيقاع الموسيقي والفاصلة والقافية ، بتنوع الجو والموضوع
في هذه السورة ، فهي تبدأ بقصة زكريا ويحي فتسير الفاصلة والقافية
هكذا :

ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً . . .
الخ ، مريم ٢ ، ٣ . وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على
النظام نفسه :

﴿ واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا *
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا
سَوِيًّا ﴾ .. الخ مريم ١٦ ، ١٧

إلى أن ينتهي القصص ، ويحيى التعقيب ، لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم ،
والفصل في قضية بنوته ، فيختلف نظام الفواصل والقوافي ، تطول
الفاصلة وتنتهي القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن ، وكأنما الآيات
تعبّر عن حكم بعد نهاية القصة ، مستمد منها ، وطهجة الحكم تقتضى

أسلوباً تعبيرياً غير أسلوب الاستعراض وتقتضى إيقاعاً قوياً رصينا بدل
إيقاع القصة الرضى المسترسل فيقول سبحانه :

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ما كان
لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿ الخ
مریم ۳۴ و ۳۵

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية
الرضية المديدة :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ إذ قال لأبيه
يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴿ الخ
مریم ۴۱ و ۴۲

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام تغير الإيقاع
الموسيقى وجرس القافية :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ حتى إذا رأوا
ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف
جنداً ﴿ .. الخ مریم ۷۵ .

وفي موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال :

﴿ وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ
السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . الخ مریم ۸۸-۹۰
وهكذا يسير الإيقاع الموسيقى في السورة وفق المعنى والجو ويشارك في
إيقاع الأسلوب الذي يتناسق مع المعنى في ثلث السورة وفق انتقالات السياق
من فكرة إلى فكرة ومن معنى إلى معنى .

العالم الرئيسية في السورة

يمكننا أن نلمح ثلاث مجموعات رئيسية في سورة مريم :

المجموعة الأولى : زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى والتعقيب على هذه القصة بالفصل في قضية عيسى التي كثر فيها الجدل ، واختلقت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

المجموعة الثانية: تتضمن حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لئلا يشرك وما عوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك أمة . ثم أشارت إلى قصص النبيين ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواية ، ومصير هؤلاء وهؤلاء ، وينتهي بإعلان الربوبية الواحدة التي تعبد بلا شريك :

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ مريم ٦٥ .

والمجموعة الثالثة: والأخيرة : تبدأ بالجدل حول قضية البعث وتستعرض بعض مشاهد القيامة ، وتعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك ، وتنتهي بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾

أي أمة من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل .

﴿ هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ مريم ٩٨
وقد جاء في تفسير الطبري لهذه الآية الأخيرة من سورة مريم ما يأتي :

ويقول تعالى ذكره : وكثيرا أهلكتنا يا محمد قبل قومك من مشركي قريش ﴿ من قرن ﴾ يعني من جماعة من الناس إذ سلکوا في خلافي وركوب معاصي مسلکهم :

﴿ هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾

يقول فهل تحس أنت منهم أحدا يا محمد فراه وتعابنه ﴿ أو تسمع لهم رِكْزًا ﴾

يقول أو تسمع لهم صوتا بل بادوا وهلكوا ونخلت منهم دورهم وأوحشت
منهم منازلهم ووصاروا إلى دار لا ينفخهم فيها إلا صالح من عمل قدموه ،
فكذلك قومك هؤلاء صائرون إلى ماصار إليه أولئك إن لم يعاجلوا
التوبة قبل الهلاك» (١) .

وبذلك تنتهى سورة مريم بعد تقرير قدرة الله الفاتقة وحكمته البالغة
فى خلق يحيى وخلق عيسى ، وتقرير قدرته سبحانه على البعث والحشر
والحساب والجزاء ، ومكافأة المؤمنين ومعاقبة المعتدين .

(١) تفسير الطبري ١٦-١٠٢ ط ١ بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٨ هـ

أهداف سورة طه

نزلت سورة طه بعد سورة مريم ، وقد تزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء ، فيكون نزول سورة طه في ذلك التاريخ أيضا . أي بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة من البعثة .

وفي المصاحف المطبوعة بالقاهرة : سورة طه مكية الا آيتي ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان وآياتها ١٣٥ آية نزلت بعد مريم .

وقال الفيروزيادي « السورة مكية اجماعاً ، وكلماتها ١٣٤١ كلمة ولها اسمان طه لافتتاح السورة بها ، وسورة موسى لاشتمالها على قصته مفصلة : (١)

معنى طه

قيل معناها يارجل ، وقيل معناها ياإنسان ، وقال آخرون هي اسم من أسماء الله وقد أقسم الله به ، وقال آخرون هي حروف مقطعة مكونة من الطاء والهاء يدل كل حرف منها على معنى واختلفوا في ذلك المعنى اختلافهم في المصاحف وقد ذكرنا ذلك في التعريف بسورة الأعراف ، قال ابن جرير الطبري « والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول من قال معناها يارجل لأنها كلمة معروفة في حك فيما بلغني وأن معناها يارجل : (٢)

(١) بصائر : فخر التميمي في لطائف الكتاب العزيز للفيروزيادي ص ٣٠ .

(٢) تفسير الطبري ٦ / ٣٠٣ . بولاق .

« وقيل أصله طأها على أنه أمر لرسول الله بأن يطاء الأرض ، بتقديمه فإنه كان يقوم الليل حتى ورمت قدماه من طول القيام . وقد أبدت الألف من الهمزة ، والهاء كناية عن الأرض » (١) .

والمعنى طأ الأرض بقدميك يا محمد وهون على نفسك في القيام وارأف بنفسك ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به تعباً ، بل لتسعد به وتذكربه الناس .

اهداف السورة

من أهداف سورة طه :

تيسير الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان فضل الله الواسع على رسله وأصفيائه وبيان وظيفة الرسول وحصرها في الدعوة والتذكرة والتبشير والانداز ، ثم ترك أمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره ، المهيم على ظاهر الكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها ، الذي تغنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعتهم وعاصيتهم . فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ، ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

ثم تعرض السورة قصة موسى من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر مفصلة مطولة ، وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى ، وموقف الجدل بين موسى وفرعون وموقف المباراة بين موسى والسحرة . وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه ؛ وقال له ولأخيه :

﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ سورة طه ٤٦

ثم تعرض السورة قصة آدم سريعة قصيرة ؛ تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته ، وهدايته له ، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

(١) المصحف المفسر : محمد فريد وجلي ص ٤٠٦ .

وتحيط بقصة آدم مشاهد القيامة ، وكأنما هي تكملة لما كان أول الأمر
في الملائكة الأعلى من خلق آدم ؛ حيث يعود الطائعون من ذريته إلى الجنة ،
ويذهب العصاة من ذريته إلى النار تصديقا لما قيل لأبيهم آدم وهو يهبط إلى
الأرض بعد خروجه من الجنة .



ونلاحظ أن السياق يمضي في هذه السورة في شوطين اثنين :

الشوط الأول - يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول صلى الله
عليه وسلم -

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ طه ٢ ، ٣
ثم تتبعه قصة موسى نموذجاً كاملاً لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ
دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته .

والشوط الثاني - يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران في اتجاه
مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه
ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاض يغمر جوها كله . . ظل هلوى جليل تخشع له
القلوب ؛ وتسكن له النفوس ؛ وتغنو له الجباه . . انه الظل الذي يخلعه
تجلى الرحمان على عبده موسى بالوادي المقدس . في تلك المناجاة الطويلة ؛
والليل ساكن وموسى وحيد ؛ والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء
الطويل . . وهو الظل الذي يخلعه تجلى القيوم في موقف الحشر العظيم :

﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ طه ١٠٨

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ طه ١١١ .

والإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى
ختمها رخياً شجياً ندياً بذلك المد الناهب مع الألف المقصورة في القافية
كلها تقريباً (١) .

(١) في ظلال القرآن ١٦-١٧ ، ٦٣ ط ١

قصة موسى في القرآن

بدأت سورة طه بمقدمة مؤثرة عن القرآن وعن صفات الله وأسمائه
الحسنى :

ثم قص الله على رسوله حديث موسى . نموذجاً لرعايته للمختارين
لحمل دعوته وقصة موسى هي أكثر القصص وروداً في القرآن . وهي
تعرض في حلقات تناسب السورة التي تعرض فيها وجوها وظلها . وقد
وردت حلقات منها حتى الآن في سورة البقرة وسورة المائدة وسورة الأعراف
وسورة يونس وسورة الإسراء . وسورة الكهف وذلك غير الإشارات إليها
في سور أخرى .

وما جاء منها في المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بني إسرائيل
أمام الأرض المقدسة لا يدخلون فيها لأن فيها قوماً جبارين :

وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة حلقة لقاء موسى للعبد الصالح
وصحبه فترة وقد سبق الحديث عنها في دروس من سورة الكهف بعنوان
قصة موسى والحضر :

فأما في البقرة والأعراف ويونس وفي هذه السورة - طه - فقد وردت
منها حلقات كثيرة ولكن هذه الحلقات تختلف في سورها عنها في الأخرى .
تختلف الحلقات المعروضة . كما يختلف الجانب الذي تعرض منه تنسيقاً له مع
اتجاه السورة التي يعرض فيها :

في البقرة سبقها قصة آدم وخلقهِ وتكريمهِ في الملائكة الأعلى . . . فجاءت
قصة موسى وبني إسرائيل تذكيراً لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم
وإنجائهم من فرعون وملئه . واستسقامهم وتفجير الينابيع لهم . وإطعامهم المن
والسلوى . وذكرت عدوانهم في السبت وقصة البقرة وفي الأعراف سبقها
الأنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى عليه السلام فجاءت قصة موسى
تعرض ابتداءً من حلقة الرسالة . وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان
والجراد والقمل والضفادع وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل ؛ ومحامته

فرعون وملائه المكذبين؛ وفي بونس سبقها عرض مصارع المكذبين؛ ثم عرض منها
حلقات ثلاث :

حلقة الرسالة ؛ وحلقة السحرة ؛ وحلقة غرق فرعون .

أما هنا في سورة طه فقد كان مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته
لمن يصطفهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته ؛ فجاءت القصة مظلمة بهذا الظل
تبدأ بمشهد المناجاة ؛ وتنضم نماذج من رعاية الله لموسى في طفولته وشبابه
ورجولته ؛ وتثبيته وتأيينه وحراسته وتعهده .

قصة موسى في سورة طه

ولد موسى في مصر ونما وترعرع في بيت فرعون ثم قتل قتيلاً خطأ فخرج
هارباً إلى أرض مدين وهناك تزوج بنت نبي الله شعيب ومكث في أرض
مدين عشر سنين . ثم عاد بأهله إلى مصر .

وفي الطريق أدركته عناية الله ومن الله عليه بالرسالة والعناية . . وناداه :

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴾ . وَأَنَا

اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿ طه ١٢ ، ١٣ .

وهذا الوحي يتعلق بثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ؛ والتوجه
بالعبادة ؛ والإيمان بالساعة وهي أسس رسالة الله الواحدة . ومن نداء
الله لموسى :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ طه ١٤ ، ١٥

وخص الله موسى بمعجزات ظاهرة . وآيات باهرة . أمره الله أن
يلقي عصاه فألقاها فإذا هي حية تسعى . نمت وعظمت حتى غدات

في جلادة الثعبان ؛ وضخامة الجحان (١) . لمحها موسى فاشتد خوفه فناداه الله :

﴿ خذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ طه ٢١

ثم أدخل موسى يده تحت ابطه فخرجت بيضاء بياضا يغلب نور الشمس
ليس فيها بهاق أو يرص أو مرض وتمت لموسى معجزتان هما اليد والعصى .
فرأى آيات الله الكبرى . واطمأن للنهوض بالتبعة العظيمة .

أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون رسولا وداعيا إلى الهدى ومبشرا
بالجنة لمن أطاع الله وبالنار لمن عصاه .

فطلب موسى من ربه أن يشرح له صدره وأن ييسر له أمره وأن يحل
حبسه لسانه ليفقه الناس قواه وأن يمن الله عليه بمعين من أهله هو
أخوه هارون .

واستجاب الله دعاء موسى وحباه بفضل زائد وذكره بأفضاله عليه
صغيرا وناشئا حيث نجاه عندما قتل قتيلا خطأ وأتى عليه المحبة ورباه
برعايته وصنعه بعين عنايته . قال سبحانه :

﴿ وَالْقَيِّتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ طه ٣٩ .

وكانت عناية الله معه في شبابه حين نجاه من كيد أتباع فرعون وكانت
عناية الله معه في رحلته إلى أرض مدين ثم في عودته إلى أرض مصر على
موجد وتدبير إلهي .. قال تعالى :

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدِيرًا يَا مُوسَى ؕ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنُنْفِثِي ﴾
طه ٤٠ ، ٤١ .

وكلف الله موسى أن يذهب مع أخيه هارون إلى فرعون بعد أن طهى

(١) نوع من الحيات .

فرعون وتجيير ، ليقول له قولاً لبناً لا يهيج الكبرياء الزائف ولا يثير العزة بالآثم ، اهل قلبه أن يعظ أو يتذكر .

ادلة موسى على وجود الله

توجه موسى وهارون إلى فرعون ليلغاه رسالة الله رب العالمين :
فقال فرعون :

﴿ مَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾ طه ٤٩ .

فأجاب موسى :

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ طه ٥٠ .

وهي اجابة تامخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود :
هبة الوجود لكل موجود ، وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها ، وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها .

وثى فرعون بسؤال آخر :

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ؟ طه ٥١ .

ماشأن القرون التي مضت من الناس ؟ أين ذهبت ؟ ومن كان ربها ؟
ومايكون شأنها وقد هلكت لاتعرف الهما هنا ؟

وأجاب موسى : إن علمها عند الله الذي لاتنحى عليه خافية وقد سجل حملها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

وقد تفضل الله على الناس بالنعم المتعددة فمهد لهم الأرض وذلك سبلها وأنزل الماء من السماء فأجرى به نهر النيل وغيره من الأنهار ليخرج بالماء أزواجا متعددة من النباتات يستفيد منها الإنسان والحيوان .

وقد خلق الإنسان من الأرض ثم رزق من نباتها ومائها ثم يعود إليها ثم يبحث منها يوم القيامة .

عرض موسى هذه الآيات الكونية أمام فرعون وأراه المعجزات
الظاهرة الملهوسة من اليد والعصا .

ولكن فرعون قابل هذه المعجزات الواضحة ، والحجج البالغة ،
بالحجود والكنود وأخذ فرعون يكيل التهم لموسى ، ويسفه دعوته ويصفه
بالطمع فى الملك ، ويصف معجزاته بأنها سحر ظاهر مبين .

موسى والسحرة

توعد فرعون موسى بأن يجمع له السحرة من كل مكان ، ليبتلوا
سحره ويظهروا عجزه . وقبل موسى التحدى ، وحدد يوم العيد واجتماع
الناس فى زينتها الجديدة موعدا للمبارزة ، حتى يشبع الحق ويظهر
ظهور الشمس .

وجمعت السحرة فى يوم العيد ، ولم يتخلف واحد منهم ، فلذا بهم
آلاف مع كل واحد منهم حبل وعصا وخيروا موسى قائلين :

﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَهُ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ طه ٦٥ .

فترك لهم موسى فرصة البدء واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة .

فتقدم السحرة وألقوا ما فى أيديهم من حبال فتحركت الحبال وماجت
بها الساحة وسحرت عيون المشاهدين وملاهم بالرهبة والإجلال لهذا
العمل العظيم .

وخشى موسى أن يخدع الناس عن الحق وأدركه خوف الداعية على
دهوته فلذكره الله بأن معه قوة كبرى ، وبأنه على الحق وعدوه على الباطل
وبأنه رسول مؤيد بالمعجزة ، وعدوه ساحر مضلل مخادع .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ

مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾

طه ٦٨ ، ٦٩ .

وأبقى موسى عصاه فابتلعت أعمال السحرة في سرعة مذهلة وأدرك
السحرة أن عمل موسى ليس سحرا ولكنه معجزة وبرهان من الله على
صديق رسالته ، فإذا بهم يخرون لله ساجدين ، توبة عما صنعوا ، وخشوها
هيبته الحق ، وإكبارا لذلك الأمر الخطير ، وإيمانا بالله رب العالمين .

وعندئذ غلت مراجل الحقد والحفيظة في صدر فرعون ، ولام السحرة
على إيمانهم بموسى ، قبل أن يأذن لهم .

وقال : إنه أستاذكم وكبيركم الذى علمكم السحر ، فاتفقتم معه على
فعلكم ومؤامرتكم :

﴿ فَلَا تُقَطِّعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَّكُمْ فِي جُدُوعِ
النَّخْلِ وَكَلِّمُنَّ أَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ طه ٧١ .

ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان ، كان نور الإيمان قد تخلل
صلورهم فوصلهم بخالفهم فزهدوا في عرض الدنيا وسلطانها ، وتطلعت
قلوبهم إلى مرضاة الله وفضلوا ثواب الآخرة على كل ماعنده وقالوا :

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ طه ٧٣ .

غرق فرعون ونجاة موسى

استمر موسى فى أداء رسالته وقيامه بواجب دعوته ، وقد اشتد
إيلاء فرعون وأتباعه للمؤمنين فاستغاثوا بموسى ، فخرج موسى بهم ليلا
إلى الأرض المقدسة وقد سهل الله لهما طريقهم ، واعترض البحر سبيلهم
فاستغاثوا بموسى قائلين البحر أمامنا وفرعون وراءنا . فأوحى الله إلى موسى
أن اضرب بعصاك البحر فضربه بعصاه فتولت قدرة الله أن تيسر لهم فى
البحر اثنا عشر طريقا يابسا مهنما للسير فسار كل فريق فى طريق وحفظتهم
حناية الله من فرعون ، وحين حاول فرعون اللحاق بهم أطبقت عليه وعلى

جنوده مياه البحر وأدركهم الغرق والهلاك ، ونجى الله المؤمنين ، وأذ الكافرين . وجعل من ذلك عظة وعبرة لمن اعتبر ، فمن آمن بالله وجاهد في سبيله كان في كتف الله ورعايته ، ومن كفر بآيات الله وخرج عن طريق هدايته أعد الله له العذاب والنكال . ونظر بنو إسرائيل في دهشة إلى مصرع الجبابرة العتاة ، ثم نجى الله فرعون بيده ، ليكون آية لمن خلفه ، ودليلا على أن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

موسى والسامري

ترك موسى قومه وذهب لميعاد ربه عجلا مشتاقا لمناجاة ربه وانتهز السامري الفرصة فصنع لبني إسرائيل عجلا من الذهب بطريقة فنية تجعل الريح تمر فيه فتحدث صوتا وخوارا .

وقال لهم إن موسى لن يعود إليكم لقد ذهب لمقابلة ربه فضل الطريق إليه ، وهذا هو الهكم وإله موسى .

وفتن بنو إسرائيل بعبادة العجل ، فقد ألفوا الذل وطاعة فرعون .

وعاد موسى غضبان أسفا يلوم هارون على تباطئه عن اخماد هذه الفتنة

فاعتذر هارون بأنه صبر حتى يعود موسى فيلتم الشمل وتعود الوحدة إلى الجماعة .

وتوعد موسى السامري بالعذاب والنكال وأمر بطرده من محلة بني

إسرائيل ، فخرج طريدا هو وأهله إلى البراري ثم أتى موسى بالعجل

فحرقه بالنار ، ونسف رماده في اليم ليبين لقومه أن مثل هذا لا يصح أن

يتخذها :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

طه ٩٨ .

مشاهد القيامة وختام السورة

بدأت سورة طه بمقدمة في بيان جلال الله وقدرته وعلمه الواسع
في الآيات من ١ - ٨ .

ثم تحدثت عن رسالة موسى وجهاده في مصر ، وجهوده مع بني
اسرائيل في الآيات من ٩ - ٩٨ .

وبعد قصة موسى تجيء الآيات (٩٩ - ١١٤) تعقيب على هذه القصة
ببيان فضل القرآن ، وعاقبة من يعرض عنه ، وترسم الآيات هذه العاقبة
في مشهد من مشاهد القيامة ، تنضاء فيه أيام الحياة الدنيا ، وتتكشف الأرض
من جبالها وتعري ، وتخضع الأصوات للرحمان ، وتعنو الوجوه للحى
القيوم ، لعل هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى
في النفوس ، ويذكرها بالله ويصلها به . وينتهي هذا المقطع بإراحة بال
الرسول - صلى الله عليه وسلم - من القلق من ناحية القرآن الذي ينزل
عليه ، فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه ، ولا يشقى بذلك فالله ميسره
وحافظه إنما يطلب من ربه أن يزيده علما :

وبمناسبة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يردد ما يوحى
إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان ، تعرض الآيات (من ١١٥ إلى ١٢٣)
نسيان آدم لعهد الله وتنتهي بإعلان العداوة بينه وبين ابليس وعاقبة من
يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم . وترسم الآيات هذه
العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنما دونها الرحلة التي بدأت في الملأ
الأعلى ، ثم تنتهي إلى هناك مرة أخرى . . . وفي ختام السورة تسلية للرسول
صلى الله عليه وسلم عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى
بهم قلمهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع في الحياة الدنيا فهو فتنة
لهم ، وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن ، ولقد هلكت
القرون من قبلهم ، وشاء الله أن يعاثر اليهم بالرسول الأخير ، فليفض يده من
أمرهم ، وليعان اليهم أنه متربص بهم ذلك المصير فليتربصوا هم كيف
يشامرون :

﴿ وَكَوَّا أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَخْزِي . قُلْ كُلُّ
مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ . السُّورَةُ وَمَن
اقتدى ﴿ طه ١٣٤ ، ١٣٥ . .



وبذلك تختم السورة التي حددت وظيفة القرآن في بدايتها :

﴿ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ .

وأكدت هذه الوظيفة في نهايتها فهي التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة
وليس بعد البلاغ الانتظار العاقبة . والعاقبة بيد الله .

وقد كانت قصة موسى ونهاية فرعون في خلال السورة لتحقيقا لهذا
المعنى وتأكيدا لنور المؤمنين ومصراع المكذبين ، وبذلك يتناسق المطلع
والختام وتكون السورة أشبه بموضوع له مقدمة ثم قصة تؤيد المقدمة
ثم خاتمة تؤكد الموضوع . وظهر أن بين أجزاء السورة وحدة فكرية
خلاصتها :

شمول فضل الله ، ورحمته وعطفه ، لأحبابه المؤمنين ، وإيقاع عقابته
وعذابه بالكافرين والمكذبين .

أهداف سورة الأنبياء

سورة الأنبياء سورة مكية بالاتفاق وآياتها (١١٢) آية وقد نزلت قبيل الهجرة إلى المدينة أي حوالي السنة الثانية عشرة من البعثة وسميت بسورة الأنبياء لأنه اجتمع فيها على قصرها كثير من قصص الأنبياء فسميت السورة باسمهم .

الغرض منها وترتيبها

هي سورة مكية نزلت في آخر العهد المكي أي في ذروة تجرأ أهل مكة وعنتهم وانصرفهم عن الإسلام .
فنزلت تنذر هؤلاء الكفار باقتراب العذاب ففي بدايتها :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . . . ﴾

الأنبياء ١ .

ثم ساقّت السورة الأدلة على الألوهية والتوحيد والرسالة والبعث . وهي الموضوعات التي عنيت بها السور المكية ، من أجل تقرير العقيدة والدفاع عنها .



وتلاحظ هنا أن للسورة قد عالجت هذه الموضوعات بعرض النواميس الكونية الكبرى ، وربط العقيدة بها .

فالعقيدة في سورة الأنبياء جزء من بناء هذا الكون يسير على نواحيسته الكبرى .

وهذه العقيدة تقوم على الحق الذي قامت عليه السموات والارض ،
وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق عبثا ، ولن يترك
سدى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِبِينَ ﴾ الانبياء ١٦ .

ويلفت السياق أنظار الناس إلى مظاهر الكون الكبرى في السماء
والأرض ، والرواسي والقمجاج . والليل والنهار والشمس والقمر ، موجها
الأنظار إلى وحدة النواميس التي تحكمها وتصرفها ، وإلى دلالة هذه
الوحدة على وحدة الخالق المدبر والمالك الذي لا شريك له في الملك ،
كما أنه لا شريك له في الخلق .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الانبياء ٢٢ .

ثم تتحدث السورة عن وحدة النواميس التي تحكم الحياة في هذه
الأرض ، وعن وحدة مصدر الحياة :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ الانبياء ٣٠ .

وعن وحدة النهاية التي ينهي إليها الأحياء :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ الانبياء ٣٥ .

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية ، فهي واحدة كذلك
وإن تعدد الرسل على مدار الزمان .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ الانبياء ٢٥ .

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك
ملايسات هذه العقيدة في الأرض . فالسنة التي لا تتخلف أن يغلب الحق في
النهاية وأن يزهد الباطل ، لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة الهية :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾
الانبیاء ١٨ .

وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين وينجي الله الرسل والمؤمنين :
﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾
الأنبياء ٩ .

وأن يرث الارض عباد الله الصالحون :
﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾ الانبياء ١٠٥ .

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة في سلسلة طويلة استعراضيا
سريعا ، يطول بعض الشيء عند عرض حلقة من قصة إبراهيم - عليه
السلام - وعند الإشارة إلى داود وسليمان .

ويقتصر عند الإشارة إلى قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ،
وإسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل ، وذى النون ، وزكريا ، ويحيى ،
وعيسى - عليهم السلام - .

وفي هذا الاستعراض تتجلى المعاني التي سبقت في سياق السورة تتجلى
في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات ، بعد ما تجلت في صورة قواعد
عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ، وتمثل فيها تلك
المعاني نفسها في صورة واقع يوم القيامة .

وهكذا تتجمع الأساليب المتنوعة في السورة على هدف واحد هو
استحاشة القلب البشرى لادراك الحق الأصيل في العقيدة التي جاء بها خاتم
الرسل - صلى الله عليه وسلم - فلا يتلقاها الناس خافلين معرضين لاهين :
كما تصفهم السورة في مطلعها .

ان هذه الرسالة حق كما أن هذا الكون حق وجمد : فلا مجال للهو في استقبال الرسالة ، ولا مجال لطلب الآيات الحارقة ، وإن آيات الله في الكون وسنن الكون كله توحى بأنه الخالق القادر الواحد ، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

نظم السورة

النظم في سورة الأنبياء يختلف عن النظم في سورة مريم وسورة طه . هناك كان النظم سهلا والختم رخيا يختم في الغالب بالألف اللينة . أما في سورة الأنبياء فالنظم هنا نظم التقرير الذي يتناسق مع موضوعها ، ومع جو السياق في عرض هذا الموضوع . ولذلك ختمت آياتها بالميم أو بالنون .



واذ نظرنا إلى الجانب الذي عرض من قصة إبراهيم في سورة مريم وجدنا أن الحلقة التي عرضت هناك [حلقة الحوار الرخي بين إبراهيم وأبيه] . وقد ختمت آيات الحوار هناك بالألف اللينة مثل نبيأ ، صفيأ ، حليأ .

وأما هنا فجاءت حلقة تحطيم الاصنام ، والقاء إبراهيم في النار ، ولتيم التناسق في الموضوع والجو والنظم والايقاع فقد ختمت قصة إبراهيم هنا بالنون أو الميم التي تفيد [التقرير والتأكيد ، أو ما يشبه أحكام القضاء] بعد تفكير وتأمل وترتيب .

اشواط اربعة

يمكن أن نقسم سورة الأنبياء إلى أربعة أقسام ، يمضي السياق خلالها من قسم إلى آخر ، ويمهد كل شوط للذي يليه .

الشوط الأول

يبدأ الشوط الأول بمطلع قوى الضربات ، يمز القلوب هذا وهو يلفتها إلى الخطر القريب المهدق ، وهي عنه غافلة لاهية :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . . . ﴾

الانبياء ١ .

ثم يبرزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا

آخِرِينَ . . . ﴾ الخ . . . الانبياء ١١ .

ثم يربط بين الحق والجد في الدعوة ، والحق والجد في نظام الكون ، وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود . وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة . ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذي أسلفناه ، ويستغرق هذا الشوط من أول السورة إلى الآية ٣٥ .

الشوط الثاني

أما الشوط الثاني فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول صلى الله عليه وسلم - بالسخرية والاستهزاء ، بينما الأمر جد وحق ، وكل ما حولهم يوحى باليقظة والاهتمام . وهم يستمعون العذاب والعذاب منهم قريب . . . وهنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسول قبلهم ، ويقرر أن ليس لهم من الله من حاصم ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهي تنقص الأرض من أطرافها ، وتزوى رقعتها وتطويها فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التي جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء .

وينتهي هذا الشوط بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى بيان وظيفته :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرْتُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾

وإلى الخطر الذي يتهدم في غفلتهم :

﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنَادُونَ ﴾ الانبياء ٤٥ .

حتى تنصب الموازين القسط وهم في غفلتهم ساهرون : ويستغرق هذا الشوط من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٧ .

الشوط الثالث

ويتضمن الشوط الثالث استعراض أمة النبيين وجهاد الرسل وبلائهم في سبيل الحق ويبدأ الشوط بموسى وهارون وقد أنعم الله عليهما بالفرقان وهو التوراة لأنها تفرق بين الحق والباطل ، ثم ذكر إبراهيم وقد أعطاه الله الرشد والهداية فأنكر على قومه عبادة الأصنام ثم حطمها ، فألقى النار فجعلها الله بردا وسلاما عليه . ثم نجاة لوط من قومه المعتدين ، ونجاة نوح وأتباعه من الطوفان ، ثم ذكر حكم داود وفهم سليمان ، وتسخير الشياطين والجن لتعمل بين يديه باذن ربه ، ثم تضرع أيوب ودعاء يونس وسؤال زكريا وصلاح مريم . ويعقب الشوط بأن هناك وحدة بين هذه الرسائل في العقيدة والإيمان والهدف والقيم والسلوك :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء ٩٤ .

وتتجلى في رسالة الأنبياء عناية الله بهم ، ورعايته لأهل رسالته وتوليهم بالعناية والرعاية وأخذ المكذبين والظالمين أخذ عزيز مقتدر ، ويستغرق هذا الشوط من الآية ٤٨ إلى الآية ٩٥ .

الشوط الرابع :

أما الشوط الرابع والأخير فيعرض النهاية والمصير ، في مشهد من مشاهد القيامة المثيرة ، حين يفتح سد بأجوج ومأجوج ويعرض ذل الكفار في عذاب جهنم ، ونعيم المؤمنين في الجنة ثم طى السموات في ساعة القيامة ، ثم توجه السباق إلى الرسول بالخطاب فذكر أن الله أرسله بالرحمة والاحسان لتبليغ رسالة الله إلى الناس . ثم ختمت السورة بمثل ما بدأت :

ايقاعها قويا ، واذنارا صريحا ، وتخليه بيثهم وبين مصيرهم المحتوم ويستغرق
هذا الشوط من الآية ٩٦ إلى ١١٢ .

وفي آخر آية ، للسورة رنين يتحدى الكفار ويتوعددهم بحكم الله العادل :

(قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

الأنبياء ١١٢

أهداف سورة الحج

سورة الحج مدنية نزلت بعد سورة النور

وقيل إن سورة الحج من السور المكية ، وقد استثنى من ذهب إلى هذا
الرأى الآيات من ١٩ - ٢٤ (١) .

وكان الأولى أن يستثنى من قال أنها مكية آيات الاذن بالقتال من ٣٨ -
٤١ ، ومنها قوله تعالى :

﴿ أذن للمؤمنين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾

الحج ٣٩ .

وعند التأمل في سورة الحج نجد أن أسلوبها وموضوعاتها وطريقتها أقرب
إلى السور المكية .

لأموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة وإثبات البعث وانكار الشرك
ومشاهد القيامة وآيات الله الماثثة في صفحات الكون . . بارزة في السورة .

ويمكن أن يقال ان هذه السورة مشتركة بين مكة والمدينة كما يبدو من
دلالة آياتها وعلى الأخص آيات الاذن بالقتال وآيات العقاب بالمثل في
قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عاقبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّبَ بِهِ ثُمَّ يُغَيِّ عَلَيْهِ لِيُنصِرَهُ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ الحج ٦٠ .

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي تحقيق الضجاري ، وقد ذهب إلى أن السورة مكية

بالاتفاق . والنظم الفني في القرآن لعبد المتعال الصعيدي ص ٢٠٤ .

فهذه الآيات مدنية لأن المسلمين لم يؤذَن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة ، أما قبل ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - حين بايعه أهل يثرب وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم « إني لم أؤمر بهذا » . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام ، شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين ، والدفاع عن حرية العقيدة ، وحرية العبادة للمؤمنين .

ومن الموضوعات المدنية في سورة الحج ، حماية الشعائر والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان والأمر بالجهاد في سبيل الله .

وفي السورة موضوعات أخرى عولجت بطريقة القرآن المكي وتغلب عليها السمات المكية وهذه السمات تجعل سورة الحج مما يشبه المكي وهو مدني .

سمات القوة

تتضح في سورة الحج سمة القوة والتعنف ، وأساليب الرهبة والتحذير ، واستعجاشة مشاعر التقوى والوجل والخوف من بأس الله :

وتبدو هذه المعاني في المشاهد والأمثال .

فمشهد البعث مزلز عنيف رهيب ، تذهل فيه الأم عن وليدها وهو بين يديها ، وكذلك مشهد العذاب :

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ، يُصَبُّ مِنْ أَفْوَقٍ

رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ • يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ • وَلَهُمْ مَقَابِعُ

مِنْ حديدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا

وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الحج ١٩ - ٢٢ .

ومشهد القرى المنصرة بظلمها :

﴿ فَكَايِرًا مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا تَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴾ الحج ٤٥ .

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف ، وتبرير الدفع بالقوة ، وتأکید الوعد بالنظر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين .



وراء كل ذلك الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاهد الرهبة والامثال لأمر الله تبدلأ بها السورة وتتناثر في ثناياها :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

الحج ١ .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

الحج ٣٢ .

﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ • الَّذِينَ إِذَا

ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الحج ٣٤ - ٣٥ .

﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾

الحج ٣٧ .

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، ومصارع الغابرين والأمثلة والعبر ، والصور والأملات ، لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والاختبات والاستسلام ، وهذا هو الروح الساري في جور السورة كلها والذي يطبعها ويميزها .

اقسام السورة وافكارها (١)

تشتمل سورة الحج على أربع مجموعات أو أقسام رئيسية يجرى السياق فيها كالآتي :

القسم الأول :

يبدأ القسم الأول بالنداء العام : نداء الناس جميعا إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ووصف الهول المصاحب لها وهو هول عنيف مرهوب . في ظل هذا الهول باستنكار الجدل في الله بغير علم ، واتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال ، ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة في حياة الإنسان وحياة النبات ، مسجلا تلك القربى بين أبناء الحياة ، ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة ، وبين أن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور .. وكلها من مطردة ، وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود ثم يعود إلى استنكار الجدل في الله بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير . بعد هذه الدلائل المستقرة في صلب الكون وفي نظام الوجود ، وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة ، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء ، والاتجاه إلى غير حماه ، واليأس من نصرة الله وعقابه ، وينتهي هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله ، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين ، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين .

ويستغرق هذا القسم من أول السورة إلى الآية ٢٤ .

القسم الثاني :

يبدأ القسم الثاني بالحديث عن الذين كفروا ويهدون عن سبيل الله والمسجد

(١) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزباده تحقيق النجار ١ / ٣٢٣ وفي خلال القرآن بقلم سيد قطب ٧١ / ١٧ .

الحرام ، ويستنكر هذا الصمد عن المسجد الحرام الذى جعله الله للناس جميعاً . يستوى فى ذلك المقيمون به والطارئون عليه ، وبهذه المناسبة يذكر طرفاً من قصة بناء البيت ، وتكليف إبراهيم - عليه السلام - أن يقيمه على التوحيد ، وأن يطهره من رجس الشرك ، ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى إلى القلوب ، وهو الهدف المقصود ، وينتهى هذا القسم بالإذن للمؤمنين فى القتال ، لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذى يقع على المؤمنين ولاجريرة لهم إلا أن يقولوا ربنا الله . ويستغرق هذا القسم الآيات : (٢٥ - ٤١) .

القسم الثالث :

يبدأ القسم الثالث بعرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل ، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين . وذلك لبيان سنة الله فى الدعوات ، وتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يلقاه من صد واعراض وتطمين المسلمين بالعاقبة التى لا بد أن تكون ، كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسول والنبيين فى دعوتهم ، وتثبيت الله للدعوة ، وأحكامه لآياته ، حتى يستيقن بها المؤمنون ، ويفتن بها الضعاف والمستكبرون ويستغرق هذا القسم الآيات : (٤٢ - ٥٩) .

القسم الرابع :

يتضمن القسم الرابع وعد الله بنصرة من وقع عليه البغي فقام يدفع عن نفسه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة فى صفحات الكون ، وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التى يركن إليها المشركون ، وينتهى هذا القسم ونتهى السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم ، ويجاهدوا فى الله حتى جهاده ، ويعتصموا بالله وحده ، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل ويستغرق هذا القسم الآيات : (٦٠ - ٧٨) .

ومن هذا العرض نجد تعاقب موضوعات السورة وتناسقها فى حلقات متساوقة تسلم كل حلقة لتليها ليكون فى مجوعها سورة كاملة هى سورة الحج .

حكمة التسمية

سميت هذه السورة بسورة الحج لأنها اشتملت على الدعوة إلى الحج على لسان إبراهيم الخليل ، وفي الحج منافع دينية وعلمية وتجارية وسياحية .

قال تعالى :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ الحج ٢٧ ، ٢٨ .

في الحج يتجمع المسلمون من كل بلد ، للتعارف والتآلف والتشاور والتعاون ، وبذلك يصبحون بدأ واحدة وقوة متألفة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

في الحج يشاهد الانسان الأماكن المقدسة ، التي شهدت ميلاد الإسلام وولادة الرسول ورسالته وجهاده وهديه .

في الحج يتعرف المسلمون من كل قطر على إخوانهم ، ويتدارسون شئونهم ويعرفون آلامهم وآمالهم . وربما تعاقبوا على شراء ما يلزمهم أو عمل ما ينفعهم .

في الحج سياحة في أرض الله وأداء لمناسك مقدسة في موطن إبراهيم الخليل وهاجر وإسماعيل ، ورؤية الكعبة المقدسة وزمزم والصفاء والمروة ومنى وعرفات ، وبعد الحج زيارة للمسجد النبوي وصلاة بالروضة ووقوف أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم وزيارته ، وزيارة قبور الصحابة والشهداء ، ورؤية أجداد الإسلام ومواقع المعارك ، وبذلك يستقر الإيمان في القلب والشعور ويصبح الحج عبادة ذات منافع متعددة ، إذا فهم المسلمون حكيمته ورسالته .

مقصود السورة اجمالاً (١)

إذا أردنا التعرف على الأفكار المنشورة في سورة الحج فسنجد لها تدور حول الأمور الآتية :

الوصية بالتقوى والطاعة ، وبيان هول الساعة وزلزلة القيامة ، والدليل على إثبات الحشر والنشر ، وجدال أهل الباطل مع أهل الحق . وضم أهل النفاق وعبادة الأوثان ، ومدح المؤمنين وبيان رعاية الله لرسوله ، ونصره رغم أنف الكافرين ، وسجود الكائنات لله . وقيام إبراهيم بالدعوة إلى الحج وبيان تعظيم الحرمات والشعائر ، والميزة على الجباد بدفع فساد أهل الفساد، وإهلاك القرى بسبب ظلم أهلها وذكر نسيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسهوه حال تلاوة القرآن ، وتثبيت المؤمنين ، وشقاق الكافرين حتى تفاجأهم الساعة ، وبيان قدرة الله سبحانه ، وعجز الأصنام وعبادها ، واصطفاء الرسل من الملائكة كجبريل ، ومن الإنس كمحمد ، وتكليف المؤمنين بأنواع من العبادة كالصلاة والجهاد والإحسان ، وترغيبهم في الوحدة والجماعة والتمسك بحبل الله في قوله :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

الحج ٧٨ .

(١) انظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ١ / ٢٢٢ .

أهداف سورة "المؤمنون"

سورة المؤمنون مكية وآياتها ١١٨ آية نزلت بعد الأنبياء وسميت سورة [المؤمنين لافتتاحها بفلاح المؤمنين :

المؤمنون والايمن

تبدأ السورة بذكر صفات المؤمنين ثم يستطرد السياق منها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، ثم إلى حقيقة الايمان كما عرضها رسل الله - صلوات الله عليهم - من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد خاتم الرسل والنبين ، وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها ؛ ووقوفهم في وجهها ؛ حتى يستنصر الرسل ربهم ، فيهلك المكذبين وينجي المؤمنين . ثم يستطرد إلى اختلاف الناس بعد الرسل في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تعدد ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب ، ويؤمنون على ذلك الموقف المريب ، وتتم السورة بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران فهي سورة «المؤمنون» أو هي سورة الإيمان بكل قضاياها ودلائله وصفاته وهو موضوع السورة ومحورها الأصل .

الأقسام الرئيسية في السورة

يمضي سياق سورة المؤمنون في أربعة أقسام رئيسية تتناول تاريخ الدعوة وحاضرهما وتسوق الأدلة الحسية والنفسية على الإيمان بالله .

القسم الأول :

يبدأ القسم الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

ويبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح ويشفي بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق فيعرض أطوار الحياة الانسانية منذ نشأتها الأولى الى نهايتها في الحياة الدنيا متوسعا في عرض أطوار الجنين مجملا في عرض المراحل الأخرى .. ثم يتابع خط الحياة البشرية الى البعث يوم القيامة، وبعد ذلك ينتقل من الحياة الانسانية الى الدلائل الكونية : في إنزال الماء ، وفي إنبات الزرع والثمار ، ثم الى الأنعام المسخرة للانسان ، والفلك التي يُحمَل عليها ، وعلى الحيوان ويسغترق هذا القسم من أول السورة الى الآية ٢٢

القسم الثاني :

يشير القسم الثاني الى قصة نوح عليه السلام وهلاك الكافرين ثم يتبع ذلك ببيان سنة الله في إرسال الرسل لهداية الناس وابلاغهم كلمة الحق والإيمان ودعوتهم الى الله فيقول نوح لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ أَعِيدُوا لِلَّهِ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴾ المؤمنون ٢٣ .

ويقول هذه الحقيقة كل نبي ورسول يقولها موسى ويقولها عيسى ويقولها محمد صلى الله عليه وسلم .

ويكون اعتراض المكذبين دائما :

﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ المؤمنون ٣٣ .

ويقدم الكفار عددا من الحجج والأدلة على تكذيبهم فيلجأ الرسل الى ربهم يطلبون نصره فيستجيب سبحانه وينجي المؤمنين ويهلك الكافرين قال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَعْرِى كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةٍ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ قَبْعًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ المؤمنون ٤٤ .

ومنى هذا القسم بينك ووحدة الرسالات ووحدة الأمم الرزمة محارب
واحد ، والإيمان واحد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،
قال علي :

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)
المؤمنون ٥١ - ٥٢ .

ومستغرق هذا القسم الآيات من ٢٢ - ٥٢

القسم الثالث :

صعدت القسم الثالث عن قرق الشمس بعد وصول الرسل اليهم ، وتلك
سورة تلك الحقبة الواحدة التي جاء بها الرسل :

(فَصَلُّوا أَرْهَمَ بَيْنَكُمْ وَرَبًّا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَكِنَّهُمْ
فَرِحُونَ) المؤمنون ٥٣ .

ثم يحدث من عقابهم عن ابتلاء الله لهم بالهمة واختبارهم بما هم
فيه من متاع بين المؤمنين مشتقون من خشية ربهم يعبدونه ولا يشركون به ،
ويحتنون عقبيه ويرجون رحمته وهذا يرسم مشهداً لأولئك العاطلين للقرودين
يوم يأخذهم العذاب فلذا هم يحزنون ، فيعلمهم التوبخ والتأنيب

(قَدْ كُنْتَ آيَاتٍ تُنقِلُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آخِلَيْكُمْ تَنكُصُونَ .

تستكبرون به سائراً تفرجون) المؤمنون ٦٦ ، ٦٧ .

ويستكبر السائق موقتهم المصيب من رسولهم الأمين ، وهم يعرفون
ولا ينكرونه ، وقد جاعهم بالحق لا يسألهم عليه لغيره ، فإذا ينكرونه
ومن الحق الذي جاعهم به ؟ وهم يسلمون بملكية الله لنق السوات والارض ،
وربوبيه للسوات والارض ومسيطره على كل شيء في السموات والارض ،

ويجد هذا الصلح مع ينكرون البعث ويؤمنون به ولله سبحانه ! وشركون
به آلهة أخرى :

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) المؤمنون ٩٢ .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٥٣ - ٩٢

القسم الرابع :

في القسم الرابع والأخير حث للرسول أن يلحهم وشركهم وزعمهم
وأن يرفع اليقظة بالحق هي أحسن وأن يستعيد بالله من الشياطين فلا يقضب
ولا يضيق صلوه بما يقولون ... ثم يرسم السيق مشبهًا من مشاهد القيامة
يصور ما ينظرون هناك من عذاب ومهابة وتأنيب . ويختم السورة بتحية
الله سبحانه :

(فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

المؤمنون ١١٦ .

ويغني الفلاح عن الكافرين ، ليناسب ابتلاء ما يتباهى للمؤمنين ، وفي
أخر آية أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوجه إلى الله بطلب المغفرة والرحمة :

(وَاعْلَمْ رَبُّنَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) المؤمنون ١١٨ .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٩٣ - ١١٨

مختم عامة للسورة

جو السورة كلها جو البيان والتقرير ، وجو لفظ الملائكة ، والنطق بالروحاني
والنساء الروحانية المنكر والضمير ، والروح الملوحة في السورة هو روح
الإيمان التي مظهرها مشهد المشوق في الصلاة وفي وسطها ملح للاعتكاف
والإحسان :

(وَالَّذِينَ يَبُوءُونَ مَا آمَنُوا وَقَلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِذْ يُبْعَثُونَ)

المؤمنون ٦٠ .

وفي العبادات الوجدانية تجد قوله سبحانه :
(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ) المؤمنون ٧٨ .
وكلها مظلة بذلك الظل الإيماني اللطيف (١)

(١) انظر في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ١٨ / ٨ .

أهداف سورة النور

سورة النور مدنية وآياتها ٦٤ آية نزلت بعد سورة الحشر وسميت
بها الاسم لكثرة ذكر النور فيها :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ . . . ﴾ النور ٣٥ .

﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ . . ﴾ النور ٣٥ .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ النور ٤٠ .

روح السورة

هذه سورة الآداب والأخلاق والتربية الاسلامية الهادفة لهما الأخلاق
والقيم المنبعثة عن ايمان المؤمن بالله فاذا دخل نور الايمان في القلب اتسع
له الصدر ، وانشرح له الفؤاد :

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

وقد ذكر النور في هذه السورة بلفظه كما ذكر بآثاره ومظاهره في
القلوب والأرواح ممثلة هذه الآثار في بيان الفرائض والأحكام التي يقوم
عليها بناء السورة ، وهي أحكام وآداب نفسية وعائلية وجماعية توحي إلى
طهارة الفرد وسلامة المجتمع ، تبدأ سورة النور باعلان قوى حاسم عن
تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف ، ومن آداب
وأخلاق :

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ ﴾ النور ١ .

فيبدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة ، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية ، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية . .

والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية ، التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود ، وترقى إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة التي تصل القلب بنور الله .

والهدف واحد في الشدة واللين ، هو تربية الضمائر ، واستجاشة المشاعر ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة حتى تشف وتتصل بنور الله .

وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة وآداب الجماعة والقيادة بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله ، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله .

فقرات السورة

يجرى سياق سورة النور في خمس فقرات :

الفقرة الأولى :

تتضمن الفقرة الأولى الأعلان الحاسم الذي تبدأ به ، ويليه بيان حد الزنا وتقطيع هذه الفعلة وتقطيع ما بين الزناه والجماعة المسلمة ، فلا هي منهم ولا هم منها ، ثم بيان حد القذف وعلة التشديد فيه ، واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاحنة ، ثم حديث الافك وقصته ، وتنتهي هذه الفقرة بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات ، ومشاكلة الطيبين للطيبات وبالعلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء ، وتستغرق هذه الفقرة من أول السورة إلى الآية ٢٦ .

الفقرة الثانية :

تتناول الفقرة الثانية وسائل الوقاية من الجريمة ، وتجنيب النفوس أسباب

الأغراء والغواية ، فتبدأ بأداب البيوت ، والاستئذان على أهلها ، والأمر بغض البصر والنهي عن إبداء الزينة لغير المحارم والحض على إنكاح الأيامي ، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء . . . وكلها أسباب وقائية لضمانة الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور ، ودفع المؤثرات ، التي تهيئ الميول الحيوانية وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين ، وهم يقاومون عوامل الأغراء والغواية وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٢٧ - ٣٤ .

الفقرة الثالثة :

تتوسط هذه الفقرة مجموعة الآداب التي تضمنتها السورة فتربطها بنور الله وتحدث عن أطهر البيوت وعن الرجال المؤمنين الذين يعمرون بيوت الله .

وفي الجانب المقابل : الذين كفروا وأعمالهم كسراب من اللعان الكاذب أو كظلمات بعضها فوق بعض ، ثم تكشف الآيات عن فيوض من نور الله في الآفاق : في تسييح الخلائق كلها لله ، وفي إزجاء السحاب ، وفي قلب الليل والنهار ، وفي خلق كل دابة من ماء ، ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها ، مما هو معروض في صفحة الكون للبصائر والأبصار ، وتستغرق هذه الفقرة من الآية ٣٥ - ٤٦ .

الفقرة الرابعة :

تحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الطاعة والتحاكم ، وتصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم وتوكلهم على هذا الاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين والنصر على الكافرين وتستغرق هذه الفقرة من الآية ٤٧ - ٥٧ .

الفقرة الخامسة :

تستأنف هذه الفقرة الحديث عن آداب الاستئذان والضيافة في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء ، وتحدث عن آداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة مع رئيسها ومربيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتتم السورة بإعلان ملكية الله لما في السموات والأرض وعلمه بواقع
الناس ، وما تنطوي عليه حناياهم ، ورجعتهم إليه وحسابهم على ما يعطيه
من أمرهم ، وهو بكل شيء عليم ، وتستغرق هذه الفقرة من الآية ٥٨-٦٤ .

اثر السورة في حفظ المجتمع

تلحظ أن سورة النور دعوة هادفة إلى إضاءة القلب بنور الله وذكره
وتذكر جلاله وعظمته . وهي سياج للفرد والمجتمع من الانحلال والتردى في
الخطيئة فقد أمرت بغض البصر وحفظ الفرج ونهت عن دخول البيوت بغير
إذن وإبدان ، ونهت عن قذف المحصنات وبينت عقوبة اليهتان وإلصاق الاتهم
الكاذبة بالمستقيمين ، وذمت أشاعة الفاحشة ، وأظهرت عجائب صنع الله في
إرسال المطر وتفصيل أصناف الحيوان وحثت على التوبة والانابة وبذلك أدخلت
بيد الإيمان إلى الطريق الصحيح ورفعت عنه عوامل الأحباط والانتكاس
وبينت أن الله مطلع على كل شيء ، ففى ختامها نجد هذه الآية .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

النور ٦٤ .

أهداف سورة الفرقان

سورة الفرقان سورة مكية نزلت بعد سورة يس ، ونزلت سورة يس بعد سورة الجن وكان نزول سورة الجن في رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وكان قد ذهب إليها سنة عشر من بعثته فيكون نزول سورة الفرقان في السنة العاشرة من البعثة ، وتكون من السور التي نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والأسراء . وهي فترة تميزت بقسوة مشركي مكة وعنهم ورجبتهم في القضاء على الدعوة بكل سبيل ، ولذلك تبدو سورة الفرقان وكأنها إيناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية وتطمين له وهو يواجه مشركي قريش وعنادهم وتعنتهم معه وجد لهم بالباطل ووقوفهم في وجه الهدى وصلحهم عنه .

سورة تشد أزر الرسول

تنوعت جوانب هذه السورة وتعددت لكنها في جملتها كانت مؤازرة لرسول الله بثبته الثقة والاطمئنان وتفضح شبهات المشركين وتنافح عن الدعوة والداعية بالعديد من السبل .

فهي في لحظة منها تصور الإبناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله وكأنما يسمح على آلامه ومتاعبه مسحاً رقيقاً ، ويقبض عليه بالرعاية واللفظ والمودة .

وهي في لحظة تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة بلحاحدة المشاقة

ﷲ ورسوله ، وهي تجادل في عتق ، وتعتق في عتاد وتجنح عن الهدى
الواضح المبين .

أنها البشرية الضالة التي تقول عن هذا القرآن العظيم :
﴿ إِن هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾

الفرقان ٤

أو تقول :

﴿ آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

الفرقان ٥

والتي تقول عن محمد رسول الله :

﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ الفرقان ٨ .

أو تقول في استهزاء :

﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ؟ ﴾ الفرقان ٤١ .

وهذا التكذيب كان سمة الناس من عهد نوح إلى عهد محمد، لقد اعترض
القوم على بشرية الرسول - صلى الله عليه وسلم - واعترضوا على حظه
من المال فقالوا :

﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْنَا كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾

الفرقان ٨ .

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن فقالوا :

﴿ لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ الفرقان ٣٢ .

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء ، والافتراء والأيذاء . وعندما ينس النبي
عن أهل مكة توجه إلى الطائف وبها قبائل ثقيف وفيها نعمة وغنى وزراعة
وأعشاب حتى كان العرب يعتقدون أن طائفة من الجن نقلتها من اليمن السعيد
إلى جنوب الحجاز .

وكما ذهب إلى الطائف دعا أهلها للإسلام فردوه أسوأ رد وأغروا به
السفهاء والعبيد يرجعون به بالحجارة حتى دعت قدماه الشريفتان وأغمى على
النبي الأمين فلما أفاق مد يده لله داعياً متضرعاً يقول :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس
يا رب العالمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني
أو بعيد ملكته أمرى أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه
أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك ، ان لم يكن
بك غضب على فلا أبالي ، عافيتك هي أوسع لي لا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم . »

وقد نزلت سورة الفرقان في أعقاب رحلة الطائف فكانت حناناً ورحمة
من الله لنبيه تمسح آلامه وتسرى عنه وتهون عليه مشقة مايات من عنت القوم
وسوء أديبهم وتطاوهم على الرسول الذي اختارته السماء ليحمل رسالة الله
إلى الناس .

وتنزيه عن استهزأهم بتصوير المستوى الهابط الذي يتمرغون فيه :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا *
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ،
بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان ٤٣ ، ٤٤ .

ويتكفل القرآن بالعون والمساعدة في معركة الجدل والحجج :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

الفرقان ٣٣ .

ثم تعرض السورة أهوال القيامة ومشاهد المجرمين تهليداً ووعيداً

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ

الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿ الفرقان ٢٥ ، ٢٦ ﴾
وتصف ندم هؤلاء الكفار يوم القيامة فتقول :

﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ الفرقان ٢٧ ، ٢٨

ثم تقدم السورة مسيرة الأنبياء وجهادهم وبلائهم تسلية للرسول الأمين
ثم تحم على الصبر والمصابرة ، وعلى جهاد الكفار بالحجة والبرهان :

﴿ فَلَا تُصَعِّحِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ الفرقان ٥٢

وحكنا تمضى السورة في جانب منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله
لرسوله ، وفي جانب آخر مشاققة وعنت من المشركين لرسول الله ، وتقدم
السورة جوانب القدرة الالهية وتصف عجائب صنع الله في مد الظل وتسخير
الشمس ، وخلق الليل والنهار ، والظلام والنور ، وإنزال المطر وإنبات
النبات ، وخلق الانسان والكواكب والبروج والافلاك . وتتوعد المشركين
بالعذاب والعقاب .

فإذا اقربت السورة من نهايتها وصفت عباد الرحمن بالتواضع وقيام
الليل والاقتصاد في النفقة والاحترام من الشرك والزنى وقتل النفس ، وتذكر
فضل التوبة ومنزلة التائبين عند الله ، وتحتم السورة بتصوير هوان البشرية
على الله لولا تلك القلوب المؤمنة التي تلجىء إليه وتلجوه :

﴿ قُلْ مَا يَعْجِبُكُمْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ . فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ
لِيَزَامَا ﴾ الفرقان ٧٧

موضوعات السورة

رغم إن الخط الاساسى لسورة الفرقان هو العناية بالرسول ومنح آلام الحزن
عنه وثبت قلبه ، إلا انه يمكن أن نقسم هذه السورة إلى أربع فقرات
لأربع موضوعات متمايزة :

الموضوع الأول :

بدأ الموضوع الأول من سورة الفرقان بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، وبتوحيد الله المالك لما في السموات والأرض ، المدبر للكون بحكمة وتقدير ، ونبي الولد والشريك . ثم شرع في ذكر ما أورده الكفار من شبه فذكر شبهتهم الأولى وهي قولهم :

﴿ إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ الفرقان ٤
ورد عليهم بأن ادعاءهم ظلم وزور ، لأنه تحداهم به فلم يمكنهم أن يأتوا بمثله .

ثم ذكر شبهتهم الثانية وهي زعمهم أن القرآن أساطير الأولين اكتبها ورد عليهم بأن الذي أنزله هو خالق الإنسان وهو العليم بأمراره وما يناسبه .
ثم ذكر اعتراضهم على بشرية الرسول وحاجته للطعام والمشى في الأسواق واقترحهم أن ينزل عليه ملك أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها .

ورد عليهم بأن الله لو شاء لجعل لنبيه في الآخرة جنات وقصوراً خيراً مما ذكروه من نعم الدنيا ،

وجميع الرسل قبل محمد كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق لأنهم بشر وذلك شأن البشر .

ويستغرق الموضوع الأول من أول السورة إلى الآية ٢٠ منها .

الموضوع الثاني :

بدأ الموضوع الثاني بذكر تطاول المشركين وزعمهم أنه كان يجب أن ينزل عليهم ملائكة تؤيد محمداً في دعواه أو يروا ربهم .
ثم حاجلهم بمشهد اليوم الذي يرون فيه الملائكة لا تحمل البشري وإنما تحمل الإنذار والوعيد .

﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ الفرقان ٢٦

ليكون في ذلك تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم يهجرون القرآن وهو يشكولربه هذا الهجران .

ثم ذكر اعتراضهم على عدم نزول القرآن جملة واحدة، ورد عليهم بأنه نزل مفردا لتثبيت قلب الرسول والاجابة على استفهام المستفهمين وتوضيح الحق أمام السائلين .

ثم ذكر أنهم في الآخرة يمشون مقلوبين ، وجوههم إلى تحت ، وأرجلهم إلى فوق ، فيضلون في أخراهم كما ضلوا في دنياهم .

ثم شرع في تأييد ذلك بتصوير عاقبة المكذبين من قبلهم من قوم موسى وقوم نوح ، وعاد وثمود ، وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك ، ويعجب من أمرهم وهم يمشون على قرية لوط المدمرة ولا يعتبرون . فيكون بذلك كلة . من وقع تطاولهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقولهم :

﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ؟ ﴾ الفرقان ٤١

ثم عقب على هذا الاستهزاء بتحقيهم ووضعهم في صف الأنعام بل دون ذلك

﴿ إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان ٤٤

ويستغرق هذا الموضوع من الآية ٢١ - ٤٤ .

الموضوع الثالث :

يبدأ الموضوع الثالث بعرض مظاهر القدرة الالهية في نظام هذا الكون وإبداع صنعته ودقة تاموسه .

فيعرض مشهد الظل ويستطرد إلى تعاقب الليل والنهار ، والرياح المباشرة بالماه الخبي ، وخلقة البشر من الماء ، ومع هذا فهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ويتظاهرون على ربهم ويخالقهم ، فينصرون الشيطان على ربهم الذي يريد أن يهديهم ويهديهم ، ويتناولون في قحة إذا دعوا إلى

عبادة الرحمن ، وقد جعل الله الليل والنهار خلفه يخلف أحدهما الآخر ،
ويتعاقبان ليرى الإنسان الصباح المشرق والليل المظلم فيتذكر عظمة الله
ويشكره ، ولكنهم لا يتذكرون ولا يشكرون .

ويستغرق هذا الموضوع من الآية ٤٥ إلى الآية ٦٢ .

الموضوع الرابع :

يصف الموضوع الرابع عباد الرحمن الذين يسجدون له ويعلمونه ويسجل
مقوماتهم التي استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة ، ويفتح باب التوبة على
مصراعيه لمن يريد الإقبال على الله ويصور جزاء المؤمنين الصابرين على
تكاليف الإيمان والعبادة :

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا .

* خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ الفرقان ٧٥ ، ٧٦

ويستغرق هذا الموضوع الآيات من ٦٣ - ٧٧ حيث تحتم السورة بيان
هوان البشرية على الله لولا دعاء المؤمنين ، وعبادة المتقين .

وفي هذا الهوان تهوين لما يلقاه الرسول من عنت المشركين فهو يتفق
مع ظل السورة وجوها ، ويتفق مع موضوعها وأهدافها .

أهداف سورة الشعراء

سورة الشعراء مكية وآياتها ٢٢٧ نزلت بعد سورة الواقعة ،
وسميت بهذا الاسم لذكر الشعراء فيها في قوله تعالى :

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ الشعراء ٢٢٤

موضوع السورة

موضوع سورة الشعراء هو موضوع السور المكية جميعا ، وهو تثبيت
العقيدة وتلخيص عناصرها الأساسية ويتمثل ذلك في دعوة السورة إلى
توحيد الله :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء ٢١٣

وبيان قدرة الله الفائقة ونعمه السابعة على لسان إبراهيم الخليل حين
يقول :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ *
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ
أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ الشعراء ٧٨ - ٨١ .

ثم تستطرد السورة إلى وعيد المكذبين بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة .
حيث تقول :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الشعراء ٦

وتقول :

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ الشعراء ٢٢٧

ذلك إلى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعزيتة عن تكذيب
المشركين له وللقرآن :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء ٢٠٤

وإلى طمأنينة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على مايلقون من عنت المشركين
وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين ، كما ثبت من قبلهم
من المؤمنين :

القصص في سورة الشعراء

القصص غالب على سورة الشعراء يشغل معظم السورة فمجموع
آياتها ٢٢٧ آية منها ١٨٠ آية تحتوى على قصص هادف يمس شفاف القلوب
ويبين رعاية الله للأنبياء والمرسلين ذكرت قصة موسى وفرعون في الآيات
من (١٠ - ٦٨) .

وفيها سبعة مشاهد : أولها : مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين
موسى وربّه ، وثانيها : مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه وتأيد موسى
بآتي العصا واليد البيضاء ، وثالثها : مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد
الناس للمباراة الكبرى ، ورابعها : مشهد إيمان السحرة وتهديد فرعون
ووعيده ، وخامسها : مشهد إيجاء الله لموسى أن يسرى بعباده ليلا ،
وسادسها : مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود للملاحقة
بني إسرائيل ، وسابعها : مشهد المواجهة أمام البحر ونهاية القصة بانفلاق البحر
وخرق الظالمين ونجاة المؤمنين :

قصة ابراهيم :

تستغرق قصة إبراهيم الآيات : (٦٩ - ١٠٤) ، والحلقة التي تعرض
هنا من قصة إبراهيم - عليه السلام - هي حلقة الرسالة إلى قومه ،

وحواره معهم حول العقيدة ، وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله
وبيان صفات الله وفضله وعظم نعمائه ، فهو النبي يخلق ويطعم ويستقي ، ويشفي
ويجي ويحيي ، ويغفر الذنوب ويحاسب الناس ويكافي المؤمنين ويعاقب الغاوين .

وفي أعقاب قصة إبراهيم مشهد كامل من مشاهد القيامة ، يتنكر فيه
العباد للآلهة ، ويندمون على الشرك الذي انتهى بهم إلى ما هم فيه كأنهم
قد صاروا فطلا في موقف الحساب والحزاء ، وهنا عبرة القصة للمشركين .

ومن ثم يتوسع في الحديث عن مقومات عقيدة التوحيد ، وفساد عقيدة
الشرك ، ومصير المشركين في يوم الدين ، لأن التركيز متجه إليه وتختصر
السورة ماعدا ذلك مما يفصل في سور أخرى .

قصة نوح :

تستغرق قصة نوح - عليه السلام - الآيات (١٠٥ - ١٢٢) وتلاحظ أن
القصص في سورة الشعراء لا يتبع التسلسل التاريخي فقد عرضت قصة
موسى ، ثم قصة إبراهيم ، ثم قصة نوح . ولو أراد أن يتبع التسلسل
التاريخي لعرض قصة نوح أولا ثم قصة إبراهيم ثانيا ثم قصة موسى ثالثا .

لكنه في هذه السورة كان يذكر الأحداث ثم يرجع القهقري من قصة
إبراهيم إلى قصة نوح . لأن الخط التاريخي ليس هو المقصود هنا بل المقصود
هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب .

وقصة نوح ومن قبلها قصة موسى وقصة إبراهيم قد عرضوا في سور
سنتي سابقة .

لكن الجانب الذي يعرضه من القصة يأتي مناسبا لسياق السورة وللعظة
والعبرة المقصود منها .

وتعرض قصة نوح في الغالب في سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط
وأهل مدين - كما تشهد في هذه السورة - وأظهر ماني الحلقة المعروضة
في سورة الشعراء هنا هو دعوة نوح قومه إلى تقوى الله ، وإعلانه أنه لا يطلب

منهم أجرا على الهدى ، و أبأوه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف
منهم الكبراء - وهذا ما كان يواجهه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
في مكة سواء بسواء - ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه : واستجابة
الله له بإغراق الكاذبين وإنجاء المؤمنين .

قصة هود :

تستغرق قصة نبي الله هود الآيات (١٢٣ - ١٤٠) .

وقبيلة عاد وهم قوم هود كانوا يسكنون الأحقاف وهي جبال رملية
قرب حضرموت من ناحية اليمن وقد جمعوا بعد قوم نوح ، وكانوا ممن
زاغت قلوبهم بعد فترة الطوفان الذي طهر وجه الأرض من العصاة .

واتخذت عاد المساكن المرتفعة والمصانع المشيدة وبلغت شأوا بعيدا من
الحضارة الصناعية ، وزادتها القوة بطرا وقسوة فكفرت بنعم الله وتناولت
وتجبرت ونسيت الخالق الرزاق ، وكذبوا نبي الله هود فأهلكهم الله ودمر
مصانعهم وهورهم وصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ، وتركهم
عبرة لكل طاغية :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) الشعراء ١٣٩

قصة ثمود :

تستغرق قصة ثمود الآيات : (١٤١ - ١٥٩) .

وقد دعاهم نبي الله صالح إلى عبادة الله وذكرهم بما فيه من نعمة
وكانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، وقد مر النبي صلى الله عليه
وسلم ببلورهم الملمرة مع صحابته في غزوة تبوك فاستحث راحلته وحنى
ظهره ، وجلا ونحشوعا لله وقال للمسلمين : (لا تمروا على قري القوم
الذين ظلموا أنفسهم الا وأنتم مشفقون خشية أن يصيبكم ما أصابهم) .
لقد كانت ثمود في نعمة فكفروا بنعمة الله عليهم وذكرهم صالح بقدرته
الله فطلبوا منه معجزة فأعطاه الله الناقة على شرط أن يكون الماء الذي يستقون

منه يوماً للناقة وبما لم يحذروهم صالح أن ينالوا الناقة بسوء على الإطلاق ،
والأخذهم عذاب يوم عظيم .

ولكنهم استمروا في عنادهم وظلمهم ، فنحروا الناقة ، وكذبوا صالحاً ،
وأحسوا بالنادم بعد فوات الأوان ، فأخذهم عذاب الله العادل : « إن في
ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿ الشعراء
١٥٨ ، ١٥٩ .

قصة لوط :

تستغرق قصة لوط الآيات (١٦٠ - ١٧٥) .

وقد كان قوم لوط يسكنون عدة قرى في وادي الأردن وأشهر بينهم
الشتوذ الجنسي بإتيان الذكور وترك النساء وهو انحراف شنيع في الفطرة -
فقد برأ الله الذكر والأنثى وفطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق
حكيمته ومشيبته في امتداد الحياة عن طريق النسل الذي يتم بجمع الذكر
والأنثى ، فكان هذا الميل طرفاً من الناموس الكوني العام .

ولكن قوم لوط خرجوا على الفطرة واستباحوا الفاحشة وهددوا لوطاً
بالطرد والنفي ، فخسف الله قراهم وغطاهما الماء ومنها قرية سدوم ، ويظن
أنها ثابوية تحت البحر الميت في الأردن .

اصحاب الأيكة :

تستغرق قصة أصحاب الأيكة الآيات (١٧٦ - ١٩١) .

والأيكة : الشجر الكثيف الملتف وهم أهل مدين ونبيهم شعيب عليه
السلام وكان شأنهم تطهير الكيل والميزان وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط
وحسن المعاملة فكذبوا نبيهم فأخذهم عذاب يوم عظيم في يوم حار خائف يكتم
الأنفاس ويقتل الضلوع ثم ترامت لهم سحابة فاستظلوا بها ، فوجدوا لها
برداً ثم إذا هي الصاعقة المجلجلة المدوية تفرعهم وتدمرهم تدميراً وكان ذلك
يوم الظلة ، فالظلة كانت سعة اليوم المعلوم .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ ﴾

عظيم ﴿ الشعراء ١٨٩

في أعقاب القصص

الآيات الأخيرة من سورة الشعراء تعقيب على قصص المرسلين فيها ،
وتأكيد على بعض أهداف الرسالة السماوية ، فقد ذكر الله في هذا القصص
قضية الرسل والرسالات وقصة التكذيب والإعراض وقصة التحدى والعقاب
وتمثلت هذه المعاني في قصة موسى مع فرعون ، وقصة إبراهيم مع آبيه
وقومه ، وقصة نوح مع قومه وقصة هود مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ،
وقصة لوط مع قومه ، وقصة شعيب مع أصحاب الأيكة ، فلما انتهى
القصص عاد السياق إلى موضوع السورة وهو العقيدة والإيمان بالله ورسوله
واليوم الآخر ، وقد جاء التعقيب الأخير في السورة يتحدث عن القرآن
فيؤكد أنه تنزيل من رب العالمين .

ويشير إلى أن علماء بني إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من
القرآن : لأنه مذكور في كتب الأولين ، إنما المشركون يعاندون الدلائل
الظاهرة ، ويزعمون أنه سحر أو شعر ، ولو أن أعجميا لا يتكلم العربية
نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين ، لأن العناد
هو الذى يقعد بهم عن الإيمان ، لضعف الدليل ، وما تنزلت الشياطين بهذا
القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - كما تنزل بالانجبار على الكهان
وما هو كذلك بشعر ، فإن له منها ثابتا ، والشعراء يهيمون في كل واد
وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيرا للمشركين
قبل أن يأخذهم الله بالعذاب ، وقبل أن يأتيهم أنبياء ما كانوا به يستهزئون :

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ الشعراء ٢٢٧

وقد استغرق هذا التعقيب الأخير على القصص من الآية ١٩٢ إلى ٢٢٧

ونختم هذا التعقيب بهذا التهديد الخيف الذى يلخص موضوع السورة .
تلك السورة التى اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ،
واستهتارهم بالوعيد ، واستعجالهم بالعذاب ، كما اشتملت على مصارع
المكذابين على مدار الرسالات والقرون .

أهداف سورة النمل

سورة النمل مكية وآياتها ٩٣ آية نزلت بعد سورة الشعراء .
وسميت بسورة النمل لاشتغالها على مناظرة النمل مع سليمان في
قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتِ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النمل ١٨

نظام السورة

هذه السورة مجاورة لسورة الشعراء وهي تمضي على نسقها في الأداء:
مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه ، وقصص
بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع ، ويؤكد به ، ويبرز
فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف العابرين
قبلهم من شتى الأمم ، للعبارة والتدبر في سنن الله وسنن الدهوات .

موضوع السورة

موضوع سورة النمل الرئيسي - كسائر السور المكية - هو العقيدة :
الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب
وعقاب ، والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله لا يعلمه سواه ، والإيمان
بأن الله هو الخالق الرزاق واهب النعم ، وتوجيه القلب إلى شكر نعم
الله على البشر ، والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة
إلا بالله .

القصص في سورة النمل

يأتي القصص في سورة النمل لتثبيت أهداف السورة ، وتصوير عاقبة المكذابين بها ، وعاقبة المؤمنين .

تأتي حلقة من قصة موسى - عليه السلام - تلي مقدمة السورة . حلقة رؤيته للنار ، وذهابه إليها ، وندائه من الملأ الأعلى ، وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه ، ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين ..

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ النمل ١٤

واستغرقت هذه الحلقة من قصة موسى من الآية ٧ - ١٤ .

قصة داود وبلقيس

استغرقت الآيات من ١٥ - ٤٤ في الحديث عن داود وسليمان وبلقيس وبدأت بالإشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان - ثم ذكرت قصة سليمان مع النملة ، ومع الهدهد ، ومع ملكة سبأ وقومها وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة وهي نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التي يدعو إليها كل رسول .

قصة بلقيس

تبدأ قصة بلقيس بتفقد سليمان للطير وبجسه عن الهدهد فلم يجده ثم جله الهدهد بعد ذلك وكان الهدهداً عجيباً صاحب ادراك وذكاء وإيمان ، وبراعة في عرض الأخبار فقد أخبر سليمان أنه رأى ملكة ولها رعية كبيرة في بلاد سبأ ورآهم في نعمة وغي ولكنهم يسجدون للشمس من دون الله فكتب له سليمان رسالة ليلقيها إليهم وفيها :

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ

وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ النمل ٣٠

فلما ألقاها على الملكة جمعت قومها لتستشيرهم فيها : فذكروا لها أنهم أولو قوة وبأس شديد ، وفوضوا أمر ذلك إليها ، فذكرت لهم أن عاقبة الحرب افساد الديار ، وأنها ترى مسألة سليمان بإرسال هدية إليه ، فلما جاءت الهدية لم يقبلها ، وهددهم بأن يرسل إليهم جنودا لا قبل لهم بها فلم تجد الملكة مفر من أن تدعن له وتسافر إلى مقر ملكه ، فجمع قومه وأخبرهم بأنه يريد أن يحصل على عرشها قبل حضورها ، فأخبره عفريت من الجن بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل أن يقوم من مجلسه ، وأخبره عالم من علماء قومه بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل مرور طرفة عين ، فشكر سليمان ربه أن جعل في ملكه مثل هذا الرجل المؤمن المتصل بالله سبحانه .

وأمر سليمان قومه أن يغيروا شيئا من شكل العرش ليختبر ذكاءها ، فأنتهت الملكة إلى جواب ذكي أريب :

﴿ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ النمل ٤٢

فهى لا تنفى ولا تثبت ودلت على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة ثم تعرضت بلقيس لمفاجأة أخرى ، في تصر من البلور أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه بلجة فلما قيل لها ادخلي الصرح حسبت أنها ستخوض في بلجة الماء وكشفت عن ساقها فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها وقال : إنه صرح مملس من زجاج .

ووقفت الملكة متعجبة مندهشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر ، فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره : معلنة إسلامها مع سليمان - لالسليمان - ولكن لله رب العالمين .

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾ النمل ٤٤ .

قصة صالح ولوط

وفي أعقاب قصة بلقيس نجد الآيات (٤٥ - ٥٣) تتحدث عن نبي الله صالح ومكر قومه في حقه ، ونجد الآيات (٥٤ - ٥٩) تتحدث عن نبي الله لوط وارتكاب قومه لفاحشة اللواط بالرجال . ومحاولة لوط تقديم النصيحة لهم دون جدوى ، بل هددوه بالطرد والنفي فأبجأه الله وأمطر على قومه حجارة من السماء فأهلكتم قبئس مطر الهالكين الخاطئين .

أدلة القرآن على وجود الله

في ختام سورة النمل نجد آيات قوية تتحدث عن قدرة الله ومظاهر العظمة والقدرة في هذا الوجود :

لقد استعرضت السورة في بدايتها حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط استغرقت الآيات (٧ - ٥٩) .

أما الآيات الأخيرة في السورة من (٦٠ - ٩٣) فإنها تجول جولة هادفة في تثبيت العقيدة ، جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس وأطواء الغيب ، وفي أشراط الساعة ، ومشاهد القيامة ، وأهوال الحشر ، التي يفزع لها من في السموات والأرض إلا من شاء الله .

في هذه الجولة الأخيرة يستعرض القرآن أمام الناس مشاهدات في صفحة الكون وفي أطواء النفس لا يمكن تعليها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار النفس وأقطار المشاعر ، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السموات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين

حاجزا ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم : أإله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدعوا في الدعوى ، لا يملكون أن يقولوا : أن إلهنا مع الله يفعل من هذا كله شيئا ، وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله !

وعقب هذه الإيقاعات القوية التي تقتحم القلوب ، لأنها إيقاعات كونية عملاً صفحة الوجود من حولهم ، أو إيقاعات وجدانية يحسونها في قلوبهم .. يستعرض تكذيبهم بالآخرة وتخبطهم في أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الخابرين الذين كانوا مثلهم بكنذوبون ويتمخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول . ومن فزع ويرجع بهم في ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر وكأنما يهز قلوبهم هذا ويرجها رجا ..

ونختم السورة بحمد الله الذي يستحق الحمد وحده ، وتكلمهم إلى الله يريم آياته ، ويطلع على أعمالهم ماظهر منها وما بطن :

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ) النمل ٩٣

أهداف سورة القصص

سورة القصص مكية وآياتها ٨٨ نزلت بعد سورة النمل - وقد نزلت في الفترة المكية الأخيرة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والاسراء - وقد سميت بسورة القصص لاشتغالها على القصص الذي حكاه موسى لنبى الله شعيب في قوله سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص ٢٥ .

قصة موسى

تستغرق قصة موسى حيزا كبيرا من سورة القصص فمن بداية السورة إلى الآية ٤٨ نجد حديثا مستفيضا عن موسى عليه السلام . ومن الآية (٧٥ - ٨٢) نجد حديثا عن قارون ، أى أن معظم سورة القصص يتناول قصة موسى ويتناول قصة قارون ، والحكمة في ذلك أن هذه السورة نزلت بمكة في مرحلة قاسية كان المسلمون فيها قلة مستضعفة والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان ، فنزلت هذه السورة تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم ، وتقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود ، هي قوة الله ، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان ، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى .



ومن ثم يقوم كيان سورة القصص على قصة موسى وفرعون ، وتعرض السورة من خلال هذه القصة قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ، وفي مواجهتها موسى طفلا رضيعا لاحول له ولا قوة ولا ملجأ له ولا وقاية .

وقد علا فرعون في الأرض ، واتخذ أهلها شيعة ، واستضعف بني إسرائيل ، يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، وهو على حذر منهم ، وهو قابض على أعناقهم ، لكن قوة فرعون وجبروته وحذره ويقظته ، لا تغني عنه شيئا ، بل لا يمكن له من موسى الطفل الصغير المجرد من كل قوة وحيلة ، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ، ترعاه عين العناية ، وتدفع عنه السوء ، وتعمى عنه العيون ، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا ، فتدفع به إلى حجره ، وتدخل به عليه عرينه ، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه ، مكفوف الأذى عنه ، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه .

لقد طمعت آسية أن يكون موسى وليدا لها تتبناه مع زوجها فرعون ، فقالت لفرعون :

﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص ٩ .

وهكذا دبر الله أن يربي موسى في بيت فرعون وأن يؤتى الحذر من مكمنه ، ولما حرم الله المراضع على موسى ، جاءت أمة كمرضعة له ، وأرضعته في بيت فرعون ، وصار فرعون يجرى عليها كل يوم ديناراً من الذهب ، وفي الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كأم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرتها » (١) .

(١) أي المؤمن يهد الله فيستفيد من العبادة نظافة القلب وثقة النفس وثبات اليقين وهبوط الهال وصحة الجهم والروح . ثم ينال ثواب العبادة في جنة عرضها السوات والأرض يوم القيامة . وبذلك ينال أجره مضاعفا : مرة في الدنيا ، ومرة في الآخرة .

موسى فى سن الرجولة :

بلغ موسى أشده ، واستكمل نيفا وثلاثين عاما . وقد صنع الله على عينه
فصار يتأمل فى هذا الكون ، ويبتعد عن حاشية فرعون ودخل العاصمة فى
فترة الظهيرة فرأى قبطيا يعمل طبخا فى قصر فرعون يتشاجر مع إسرائيلي
فاستغاث به الإسرائيلي فضرب موسى القبطى بجمع يده فوق جثة هامدة ،
ونام موسى على ذلك واستغفر الله وتاب إليه .

وتربص قوم فرعون بموسى ليقتلوه ، فانتدبت يد القدوة واحدا منهم
يكنم إيمانه عنهم ، وجاء لموسى وقال له :

﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

القصص ٢٠

خرج موسى هاربا مهاجرا متجها إلى أرض مدين وحيدا فريدا فأواه
الله ورعاه ، وتعرف هناك على نبي الله شعيب وتزوج بابنته ومكث هناك
عشر سنين ، ثم عاوده الحنين إلى مصر فجاء إليها عبر سيناء وعند الشجرة
المباركة نودى من قبل الله أن ياموسى انى أنا الله رب العالمين وامن الله عليه
بالرسالة وأيده بالمعجزات .

موسى مع فرعون :

عاد موسى إلى فرعون مرة أخرى يدعو إلى الإيمان بالله ويقدم له
الأدلة العقلية والمعجزات الظاهرة ولكن فرعون طغى وتجر وكذب وعصى
فأهلكه الله وأخذ نكال الآخرة والأولى ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى .

الحلقة الجديدة فى القصة :

عنيت سورة القصص بإبراز حلقة ميلاد موسى وتربيته فى بيت فرعون
وهى حلقة جديدة فى القصة تكشف عن تحدى القدوة الإلهية للطغيان والظلم ،

وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القلر المحتوم
والقضاء النافذ .

لقد ولد موسى في ظروف قاسية في ظاهرها ، فصاحبته رعاية الله
وعنايته ، في رضاعه وفي نشأته وفتوته ، وصنعه الله على عينه وهياًه
للمسألة ، وإذا أراد الله أمراً هياً له الأسباب ثم قال كن فيكون .

قارون

ذكرت سورة القصص قصة موسى في بدايتها وقصة قارون في نهايتها ،
والهدف واحد فقصة فرعون تمثل طغيان الملك ، وقصة قارون تمثل
طغيان المسال .



كان قارون من قوم موسى وكان غنيا ذا قدرة ومعرفة ، وأوتى من
المال ما إن مفاتحه لتهي العصبة من الرجال الأقوياء وخرج على قومه في زينته
وأبهته ليكسر قلوب الفقراء ، ونصحه قومه بالاعتدال وإخراج الزكاة ، والاحسان
إلى الناس والابتعاد عن الفساد .

فزادته النصيحة تيبا وعلوا ، وخرج يباهي الناس بماله وكنوزه ثم
تدخلت يد القدرة الإلهية فحسفت به وبداره الأرض ولم يغن عنه ماله
ولا علمه .

وهكذا تصير عاقبة الظالمين ، كما غرق فرعون في البحر : هلك قارون
خسفاً في الأرض ، ولا تزال بحيرة قارون تذكر الناس بنهاية الظالمين
قال تعالى :

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ
أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ العنكبوت ٣٩ ، ٤٠

اهداف السورة

له تهدف سورة القصص إلى إثبات قدرة الله ورعايته للمؤمنين فهو سبحانه
الواحد الأحد الفرد الصمد المتفرد بالحكم والقضاء قد آزر موسى وحيدا
قريدا طريدا ونجاه من بطش فرعون ، وأغرق فرعون وجنوده - كما
أهلك قارون وقومه .

وبين القصتين نجد الآيات من (٤٤ - ٧٥) تعقب على قصة موسى
وتبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة : وتجول مع المشركين الذين
يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والانكار والمعاذير ، تجول معهم جولات
شقي في مشاهد الكون ، وفي مشهد الحشر وفيما هم فيه من الأمر ، بعد
أن تعرض عليهم دلائل الصلح فيما جاءهم به رسولهم - صلى الله عليه
وسلم - وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم
يتلقونه بالكفران والجحود وهو رحمة لهم من العذاب ، لو أنهم كانوا
يتذكرون .

ختم السورة

في ختام السورة نجد الآيات (٨٥ - ٨٨) ، تعد الرسول صلى الله
عليه وسلم بالرجوع إلى مكة فاتحا منتصرا ينشر الهدى ويقم الحق والعدل
ومن العجيب أن هذا الوعد بالنصر جاءه وهو يخرج من بلده مطرد من
قومه مهاجرا إلى المدينة ولم يبلغها بعد ، فقد كان بالحجفة قريبا من مكة،
قريبا من الخطر يتعلق قلبه وبصره ببلده الذي يحبه ويقول عند فراقه مخاطبا
مكة : « والله إنك لمن أحب البلاد إلى ومن أحب البلاد إلى الله ولولا أن
قومك أخرجوني منك ماخرجت » .

ويعد الله بالرجوع إلى مكة فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ القصص ٨٥ :

ويبين سبحانه أن كل ما دون الحق فهو عرضة للفناء والزوال وأن زمام الحكم بيده تعالى . وتختتم السورة بهذه الآية إثباتا للوحدانية وجلال القدرة
الالهية :

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص ٨٨ .

أهداف سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية ، نزلت بعد سورة الروم وآياتها ٦٩ آية .
وقد نزلت سورة العنكبوت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة قبل
الهجرة ، وكانت هذه الفترة من أقسى الفترات ولذلك تعرضت السورة
لتثبيت المؤمنين على الإيمان ، وبيان أن هناك ضريبة يدفعها المؤمن ، هي
الفتنة والامتحان بالابداء أو بالإغراء أو بالوعد أو بالوعيد .

وتناولت قصص الأنبياء السابقين وجهادهم وبلاءهم ثم إهلاك الكافرين
وانتصار المؤمنين وسميت سورة العنكبوت بهذا الاسم لتكرر ذكر العنكبوت
فيها في قوله تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت ٤١

وفي المصحف المطبوع بالقاهرة والمتداول بين الناس نجد في عنوان
السورة : سورة العنكبوت مكية لإمن آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية .

وقدرجحت اللجنة المشرفة على طبع المصحف الرأي القائل بأن الاحدى
عشرة آية الأولى مدنية ، وذلك لذكر الجهاد فيها .. وذكر المنافقين .

وعند التأمل يترجح لدينا أن السورة كلها مكية ، أما تفسير الجهاد فيها
فمرجعه أنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة ، أي جهاد النفس لتصير
ولاتفن ، وهذا واضح في السياق ، وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد
تصوير حالة نموذج من الناس .

ثلاثة فصول

نخط الأسماء لسورة العنكبوت هو الحديث عن الإيمان والفتنة ، وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس ، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره والثبات في المحن .

ومع أن موضوع السورة هو تكاليف الإيمان والثبات في المحنة.. إلا أنه يمكن أن نقسم سورة العنكبوت إلى ثلاثة عناصر لهذا الموضوع أو ثلاثة فصول :

الفصل الأول : من أول السورة إلى الآية ١٣ .

ويتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الابتلاء والفتنة ، ومصير المؤمنين والكافرين ، تم فردية التبعية فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً يوم القيامة .

﴿ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ العنكبوت ١٢

الفصل الثاني : من الآية (١٤ - ٤٥)

ويتناول قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وإشارة إلى قبيلة عاد وثمود ويصور هذا القصص ما وجد من عقبات وفن في طريق كل دعوة . ويتحدث عن التهورين من شأن هذه العقبات أمام قوة الإيمان والاعتماد على قدرة الله ، والمضى في تبليغ رسالته وتحمل تبعات هذه الرسالة احقاقاً للحق وازهاقاً للباطل . قال تعالى ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ الأنبياء ١٨ .

الفصل الثالث : من الآية ٤٦ إلى آخر السورة ، ويتناول النهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ، ويتناول وحدة الدين والعقيدة والإيمان واتحاد ذلك مع الدين الأخير الذي يجحد به الكافرون ويجادل فيه المشركون ويختم بالثبوت والبشرى الطمأنينة للمجاهدين في الله المهديين إلى سبيله .

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته تميز الوجدان هذا . وتقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة

حازمة ، فلما النهوض بها ، وإما النكوص عنها ، وإلا فهو التفاق الذي يفضحه الله .

القصص في سورة العنكبوت

استغرقت الآيات من (١٤-٤٥) في الحديث عن قصص الأنبياء والتعليق عليه وبيان العظة والعبرة منه .

وبدأت بالحديث عن نوح عليه السلام ، فقد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما هي مدة الرسالة وجزء من حياته كان قبل الرسالة ، وجزء منها كان بعد الطوفان وهو عمر مديد ولكن نتيجته محدودة فلم يؤمن به إلا قليل من قومه .

ثم نثى بالحديث عن إبراهيم الخليل صاحب الرسالة الكبرى إذ دعا قومه إلى عبادة الله الخالق الرزاق ونبذ الأوثان والأصنام والتوجه إلى الله الأله الواحد :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ العنكبوت ٢٤

وفي قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة وسفورها بلا حياء ولا حرج ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ مع الاستهتار بالندير ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت عن الصادقين ﴾ العنكبوت ٢٩ .

وفي قصة شعيب مع مدين يتبلى الفساد والتمرد على الحق والعدل فاستحقوا عذاب السماء : ﴿ فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في حارهم جامعين ﴾ العنكبوت ٣٧ .

وتذكر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة كما تذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان المال واستبداد الحكم والتمرد على أمر الله .

وفي النهاية يلتقي الظالم حظه جزاء ظلمه ، وقد تكرر هذا المعنى في

سور سابقة وتؤكد هنا ليستقر في الأذهان أمام المشركين والظالمين .

قال تعالى :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّن
أَخَذْتَهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ العنكبوت ٤٠ .

وتعقب السورة على هذا القصص بمثل ضربته لهوان قوى الشرك والظلم
فالباطل مهما علا لامستقبل له ، والحق مهما امتحن مستقبله هنيء مرىء
قال تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت ٤١
ويتمى هذا القصص بهوان الشرك وعزة الإيمان وبيان قدرة الله
الذى يضرب الأمثال ليتعظ بها العقلاء وليفهمها العلماء . قال تعالى :
﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ العنكبوت ٤٢

الدروس الأخير فى سورة العنكبوت

يستغرق الدرس الأخير فى السورة ربعا كاملا من الآية ٤٦ إلى الآية
٦١ . والسورة بدأت بإعلان ثقل تكاليف الإيمان وتعرض المؤمنين للبلاء
والامتحان .

ثم ذكرت قصص الأنبياء وبلائهم من عهد نوح .
وفى هذا الدرس الأخير يبين القرآن وحدة الرسالات فى الهدف ،
فالرسالات كلها من عهد نوح والرسل من بعده إلى عهد محمد صلى الله
عليه وسلم دعوة واحدة من عند إله واحد ذات هدف واحد هو اصلاح
العميدة وتهذيب السلوك ورد البشرية الضالة إلى قوازين الله العادلة . وأن
المؤمنين بكل رسالة لآخوة للمؤمنين بسائر الرسالات : كلهم أمة واحدة

تعبد لها واحداً ، وأن البشرية في جميع أجيالها صنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله . وصنف لماشائين وهم حزب الشيطان .
ولقد ختم الجزء العشر في القرآن بآية شهيرة تدعو إلى تلاوة الكتاب وقراءة القرآن وإقامة الصلاة هي قوله تعالى :

﴿ ائْتِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

العنكبوت ٤٥

وبدأ الجزء الحادى والعشرون ، بالحديث عن هذا الكتاب والعلاقة بينه وبين الكتب السابقة ويأمر المسلمين ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة - إلا الذين ظلموا منهم وبدلوا في كتبهم وانحرفوا إلى الشرك . والشرك ظلم عظيم - ودعت الآية المؤمنين أن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلها وبالكتب جميعها ، فهي حق من عند الله يصدق مامعهم من القرآن والإسلام ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ العنكبوت ٤٦

ثم يحذر القرآن المشركين استعجالهم بعذاب الله ، ويهددهم بمجيئه بغتة ويصور لهم قربه منهم ، وإحاطة جهنم بهم ، ويصف أحلم يوم يمشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ثم يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقون الفتنة والايذاء في مكة يحضهم على الهجرة بدينهم إلى الله ليعبدوه وحده يلتفت إليهم في أسلوب عجيب ، يعالج كل هاجسة تخطر في ضمائرهم ، وكل معوق يقعد بهم ويقلب قلوبهم بن أصابع الرحمن في لمسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب ، فما يعرف مسارها ومدخلها الخفية إلا خالقها اللطيف الخبير الذي تكفل برزق كل دابة في كل مكان وزمان :

ويُنْتَقَل من هذا التعجيب من حال أولئك المشركين ، وهم يتخبطون في تصوراتهم ، فيقرّون لله سبحانه بخلق السموات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر وانزال الماء من السماء وإحياء الأرض الموات ، وإذا ركبوا في الفلك دعوا الله وحده مخلصين له الدين . ثم هم بعد ذلك يشركون بالله ويكفرون بكتابه ويؤذون رسوله ، ويفتنون المؤمنون به ، ويذكر المشركين بنعمة الله عليهم بهذا الحرم الآمن الذي يعيشون فيه ، والناس من حولهم في خوف وقلق وهم يفترون على الله الكذب ويشركون به آلهة مفتراة ، ويعلمهم على هذا جهنم وفيها مثوى للكافرين .

وتختتم السورة بوعد من الله سبحانه بهداية المجاهدين ورعايتهم فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

العنكبوت ٦٩



أهداف سورة الروم

سورة الروم مكية نزلت بعد سورة الانشقاق ، وآياتها ٦٠ آية
وقد نزلت سورة الروم في السنة التي انتصر فيها الفرس على الروم ، وكان
ذلك قبل الهجرة بسنة .

وسميت هذه السورة بسورة الروم لقوله تعالى في أولها : ﴿ ألم تغلب الروم ﴾
الروم ١ و ٢ .

سبب نزول السورة

قال المفسرون (١) : بعث كسرى جيشا إلى الروم واستعمل عليهم رجلا يسمى
شهر يران ، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم ، فقتلهم وخرّب مدائنهم
وقطع زيتونهم ، وكان قيصر قد بعث رجلا يدعى يحنس فالتقى مع شهر يران
بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب فغلبت فارس الروم ،
وبلغ ذلك النبي وأصحابه بمكة فشق عليهم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم
يكره أن يظهر الأميون من أهل الجوس على أهل الكتاب من الروم ،
وفرّح كفار مكة وشتموا ، وقالوا للمسلمين : إنكم أهل كتاب والنصارى
أهل كتاب ونحن أميون . وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم
من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم .

فأنزل الله تعالى سورة الروم . وفيها يفيد أن أهل فارس قد غلبوا الروم
في أرض الأردن وفلسطين وهي أقرب البلاد إلى جزيرة العرب . ثم وعد الله
بأن ينتصر الروم على الفرس في جولة أخرى خلال بضعة سنين . والبضع

(١) انظر تفسير الجلالين ، والطبري ، ومقاتل بن سليمان وخلال القرآن في أسباب النزول

للرازي :

هو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر . وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الالتقاء الأول وغلبت الروم فارس .
 وعن أبي سعيد الخدري قال : لما كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكة وأتى المسلمين الخبر بعد ذلك - والنبي والمؤمنون بالحديبية - بأن الروم قد غلبوا أهل فارس (١) ففرح المسلمون بذلك ، لانتصار أهل الكتاب على عباد الأوثان ، فذلك قواه تعالى ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

فصلان مترابطان

يمضى سياق سورة الروم في فصلين مترابطين
 الفصل الأول : يربط بين نصر المؤمنين والحق الذي تقوم عليه السموات والأرض وما بينهما ، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة . ويوجه إلى ستة الله فيمن مضى قبلهم من القرون ، [ويقبس عليها قضية البعث والإعادة . ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد الكون ، وآيات الله الماثورة في ثناياه ، ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلا تكشف عن سخافة فكرة الشرك ، وقيامها على الأهواء التي لا تستند إلى حق أو علم . . . وينتهي هذا الموضوع بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح ، طريق الفطرة التي فطر الناس عليها ، والتي لا تتبدل ولا تدور مع الهوى ، ولا يتفرق متبعوها أشياعا وأحزابا ، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى . ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٣٢ .

الفصل الثاني : يكشف الفصل الثاني من سورة الروم عما في طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة ، ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء . ويصور حالهم في الرحمة والنصر ، وعند بسط الرزق وقبضه ، ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتممينه، ويعود

(١) في تفسير الجلالين أن نصر الروم كان يوم بدر فإذا لاحظنا أن نزول سورة الروم كان قبل الهجرة بسنة رجحنا ماورد في تفسير مقاتل بن سليمان من أن نصر الروم على الفرس جاء خبره للمسلمين وهم في الحديبية ٦ للهجرة . وبذلك يكون بين الهزيمة والنصر بضع سنين أو سبع سنين

إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هذه الزاوية فإذا هم لا يرزقون ولا يمتنون ولا يحيون ، ويربط بين ظهور الفساد في البر والبحر وعمل الناس وكسبهم ، ويوجههم إلى السير في الأرض ؛ والنظر في عواقب المشركين من قبل ، ومن ثم يوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الاستقامة على دين الفطرة من قبل أن يأتي اليوم الذي يجزى فيه كل بما كسبت يده ، ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله في مشهد الكون ، كما عاد بهم في الفصل الأول . ويعقب على ذلك بأن الهدى هدى الله ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يملك إلا البلاغ فهو لا يهدى العسى ولا يسمع الصم ، ثم يطوف بهم في جولة جديدة في ذات أنفسهم ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها ، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة ويعرض عليهم مشهدا من مشاهد ما تم ينهي هذا الموضوع ويختم معه السورة بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على دعوته ، وما يلقاه من الناس فيها والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لا بد آت ؛ فلا يقلقه الذين لا يوقنون ، ويستغرق هذا الفصل من الآية ٣٣ إلى آخر السورة .

الأفكار العامة للسورة

الفكرة الرئيسية في سورة الروم هي الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة ، وماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها وسنن الوجود ونواميس الكون ومن خلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل حالة وكل نصر وكل هزيمة كلها مرتبطة برباط وثيق محكمة بقانون دقيق وأن مرد الأمر فيها كله لله : (لله الأمر من قبل ومن بعد) وهذه هي الحقيقة الأولى التي يؤكدتها القرآن كله بوصفها الحقيقة الموجهة في هذه المقيدة . الحقيقة التي تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقدير ، والتي بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير .

وهناك أفكار متعددة مبثوثة في ثنايا السورة منها :

ذكر أخبار القرون الماضية ، وذكر قيام الساعة ، وآيات التوحيد والحجج المترادفة الدالة على الذات والصفات ، وبيان البحث يوم القيامة

وتتمثيل حال المؤمنين والكافرين ، وتقرير المؤمنين على الإيمان ، والأمر بالمعروف والإحسان إلى ذوى القربى ، ووعد الثواب على أداء الزكاة والإخبار عن ظهور الفساد فى البر والبحر ، وعن آثار القيامة ، وذكر عجائب الصنع فى السحاب والأمطار ، وظهور آثار الرحمة فى إنبات النبات وظهور الربيع ، وذكر إصرار الكفار على الكفر ، وتخليق الله الخلق مع الضعف والمعجز وإحياء الخلق بعد الموت والحشر والنشر وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم .

عالية الدعوة الإسلامية

لم يقف القرآن فى سورة الروم عند حادث هزيمة الروم أمام الفرس ، ثم الوعد بغلبة الروم على الفرس . ولكنه انطلق من ذكر هذه الحادثة ليربط بين سنة الله فى نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذى قامت عليه السموات والأرض وما بينهما ، وليصل بين ماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها . ثم يستطرد إلى الحياة الآخرة ومشاهدتها ثم يطوف بالمسلمين فى مشاهد الكون ومشاهد النفس وأحوال البشر وعجائب الفطر ، ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات فى هذا الكون الكبير ، ويشعرون بدقة السنن التى تحكم هذا الكون وتصرف أحداث الحياة وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة .

وفى ظل ذلك التصور الواسع الشامل ، تتكشف عالية هذه الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها .

ويدرك المسلم موقفه وموقف أمته فى ذلك الخضم الهائل ، ويعرف قيمته هو وقيمة عتميدته فى حساب الناس وحساب الله ، فيؤدى حينئذ دوره على بصيرة ، وينهض بتكاليفه فى ثقة وطمأنينة واهتمام .

أهداف سورة لقمان

سورة لقمان سورة مكية وآياتها ٣٤ آية نزلت بعد سورة الصافات ،
وسورة لقمان من أواخر ما نزل بمكة فقد نزلت بعد الاسراء وقيل
الهجرة . وقد سميت بسورة لقمان لورود قصة لقمان فيها ، وكان من
الحكماء الإقدمين ، ولم يرد اسم حكيم غيره في القرآن .

وسورة لقمان رحلة هائلة بعيدة الآماد والآفاق تطوف بالقلب في جولات
متعددة لتأكيد قضية العقيدة وترسيخها في النفوس وهي القضية التي تعالجها
السور المكية في أساليب شتى ، ومن زوايا متنوعة ، تتناول القلب البشري
من جميع أقطاره وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التي تخاطب الفطرة
وتوقظها .

هذه القضية الواحدة - قضية العقيدة - تتناخص هنا في توحيد الخالق
وعبادته وحده ، وشكر آلائه ، وفي اليقين بالآخرة ، وما فيها من حساب
دقيق وجزاء عادل ، وفي اتباع ما أنزل الله والتخلي عما علاه من مألوفات
ومعتقدات .

والسورة تتولى عرض هذه القضية ثلاث مرات في ثلاث جولات ،
تطوف كل منها بالقلب البشري فتمرض عليه دعوة الهدى من جانب الوحي
ومن جانب الحكمة ، ومن جانب الكون الكبير سمائه وأرضه وشمسه
وقمره وليله ونهاره وأجوائه وبحاره وأمواجه وأمطاره ونباته وأشجاره
وأخيرا من جانب القدرة الألهية المحيطة بكل شيء ، صاحبة الملك في
الأولى والآخرة .

فقرات السورة

يمكن أن نقسم سورة لقمان إلى ثلاث فقرات أو جملات :

الجولة الاولى :

تبدأ الجولة بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة ، فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف ، هي آيات الكتاب الحكيم وهي هدى ورحمة للمحسنين ، وهؤلاء المحسنون هم :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

فتقرر قضية اليقين بالآخرة . وقضية العبادة لله ، ومعها مؤثر نفسي ملحوظ :

﴿ أَوْلَيْكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

ومن ذا الذي لا يريد أن يكون من المفلحين ؟ .. وفي الجانب الآخر فريق من الناس يشترى هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذ تلك الآيات هزوا . وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسي خفيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله :

﴿ أَوْلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

ثم يمضى في وصف حركات هذا الفريق :

﴿ وَإِذَا تُلِيَا عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ ..

ومع الوصف مؤثر نفسي منفرد من هذا الفريق :

﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾

ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم الواضح في التعبير

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

والبشارة هنا فيها ما فيها من التهكم الملحوظ .. ثم يعود إلى المؤمنين يفصل شيئا من فلاحهم الذي أجمله في أو السورة وبين جزاءهم الحسن في الآخرة . ثم يعرض صفحة الكون الكبير مجالا للبرهان القاطع

الذي يطلع الفطرة من كل جانب ، ومحاطها بكل لسان وبواجهها بالحق
المائل الذي يمر عليه الناس غافلين .. وأمام هذه الأدلة الكونية التي تحول
الحس وتنبه الشعور يأخذ بتلابيب القلوب الشاردة ، التي تجعل للشركاء وهي
ترى خلقة العظيم :

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ لقمان ١١

وتستغرق هذه الفقرة من أول السورة إلى الآية ١١ .

الجولة الثانية :

تبدأ الجولة الثانية من خلال نفوس آدمية ، وتتناول القضية ذاتها بأسلوب
جديد ومؤثرات جديدة : إنها نصيحة من رجل حكيم يعظ ابنه فيقدم له
خلاصة تجاربه وحكمته فيأمره بالتوحيد وينهاه عن الشرك ويحثه على بر
الوالدين وطاعتهما فيما يأمران به ، إلا إذا أمرا بالشرك ونحوه ، وينبه
لقمان ولده إلى إحاطة علم الله بكل شيء ، إحاطة يرتعش لها الوجدان
البشرى .

ثم يتابع لقمان وصيته لابنه فيأمره أن يقرم بتكاليف العقيدة من
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يصبر ويحتل فان الصبر من
أمهات الفضائل .

وبحث لقمان ولده على مكارم الاخلاق ، وآداب النفس والسلوك
فنهاه عن الكبر والبطر ، ويأمره أن يعتدل في مشيته وأن يخفض من
صوته ، وأن يلزم الرفق والهدوء والاعتدال .

وقد استغرقت هذه الجولة من الآية (١٢ - ١٩) .

الجولة الثالثة :

تستغرق الجولة الثالثة بقية السورة من الآية (٢٠ - ٣٤) ، وتبدأ
بعرض أدلة التوحيد في خلق السماء والأرض وفي تسخير الكون واسباغ النعم

الظاهرة والباطنة . وفي ظل هذه النعم الظاهرة والادلة الملموسة يبدو الجدل في الله مستنكر من الفطرة تمجده القلوب المستقيمة .

ثم يتابع السياق استنكار موقف الكفر والحمود وتقليد الآباء دون تبصر وروية ، ومن ثم يعرض قضية الجزاء في الآخرة مرتبطة بقضية الكفر والايمن .

ثم يقف الكافرون وجها لوجه أمام منطق الفطرة وهي تواجه هذا الكون فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير وتعرض الآيات مشهداً كونياً يهز القلب البشري مشهد الليل وهو يطول فيدخل في جسم النهار ويمتد ، والنهار وهو يطول فيدخل في جسم الليل ويمتد ، ومشهد الشمس والقمر مسخرين في فلكيهما يجريان في حدود مرسومة إلى وقت لا يعلمه إلاخالقهما . ويتخذ من هذا المشهد الكوني دليلاً إلى الفطرة على القضية المعهودة وهي قضية التوحيد ،

ثم يلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس في صورة القلق التي تجرى في البحر ، ثم يوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من فرور القدرة والعلم الذي يبعدها عن بارئها ، ويتخذ من هذا المنطق دليلاً على قضية التوحيد :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ لقمان ٣٢ .

وبمناسبة موج البحر وهوله ، يذكرهم بالهول الأكبر ، وهو يقرر قضية الآخرة الهول الذي يفر فيه الوالد من ولده ، والولد من والده :

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ لقمان ٣٣ .

وتنجم السورة بآية تقرر القضايا التي عالجتها في إيقاع قوى عميق مرهوب فتذكر أن الله قد استأثر بخمس لا يعلمهن سواه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنزِلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ،
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

هذه الجولات الثلاث بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها نموذج من
أسلوب القرآن الكريم في معالجة القلوب ، هذا الأسلوب المختار من خالق
هذه القلوب العليم بما داخلها ، الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب .

أهداف سورة السجدة

سورة السجدة مكية ، وآياتها ٣٠ نزلت بعد سورة غافر ، وقد نزلت سورة السجدة في المرحلة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، إذ كان نزولها بعد الإسراء وقبيل الهجرة .

أسماء السورة :

لسورة السجدة ثلاثة أسماء ، الاسم الأول سورة السجدة ، لاشتغالها على سجدة التلاوة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ السجدة ١٥ .

الاسم الثاني : سجدة لقمان (١) ، للتمييز عن حم السجدة وهي سورة فصلت .

الاسم الثالث : المضاجع لقوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ السجدة ١٦ .

مخاطبة القلوب

سورة السجدة نموذج متميز من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري ، بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطر ، ويركزها في القلوب عقيدة الدينونة لله الأحد ، الفرد الصمد ، خالق الكون والناس ومدبر السموات والأرض وما بينهما ، وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله ،

(١) أي سورة السجدة المجاورة لسورة لقمان

والتصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، الموحى اليه بهذا القرآن لهذا
البشر إلى الله والاعتقاد بالبعث والقيامة ، والحساب والجزاء .. هذه هي القضية التي
تعالجها السورة ، وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكية ، كل منها تعالجها
بأسلوب خاص ، وهـ مؤثرات خاصة ، « تلتقي كلها في أنها تخاطب القلب
البشري ، خطاب العليم الخبير المطلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها ،
العارف بطبيعتها وتكوينها ، وما يستكن فيها من مشاعر ، وما يعترها من
تأثرات واستجابات . في جميع الأحوال والظروف .

وسورة السجدة تعالج تلك القضية ، بأسلوب وبطريقة غير أسلوب
وطريقة سورة لقمان السابقة ، فهي تعرضها في آياتها الأولى ، ثم تمضي
بقيتها ، تقدم مؤثرات موقظة للقلب ، منيرة للروح ، مثيرة للتأمل والتدبير
كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية ، معروضة في صفحة السكون
ومشاهدته ، وفي نشأة الإنسان وأطواره ، وفي مشهد من مشاهد اليوم الآخر
حافل بالحياة والحركة ، وفي مصارع الغابرين ، وآثارهم القاطعة الناطقة
بالعبرة ، لمن يسمع لها ويتدبر منطقتها .

! « كذلك ترسم السورة صوراً للنفوس المؤمنة ، في خشوعها وتطلعها
إلى ربها ، وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها ، وتعرض صوراً للجزاء
الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء ، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان ، يشهده
كل قارئ لهذا القرآن :

وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه
ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة ، وإلى الخوف والخشية مرة ، وإلى التطلع
والرجاء مرة ، وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد ، وتارة بالأطع وتارة
بالاقتناع . ثم تدعه في النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين ،
تدعه لنفسه يختار طريقه ، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى
نور (١) :

(١) - في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٩٢/٢١

أشهر السورة ونظما

لها سورة فصحة بالمخيط عن القرون ، وزين له حق من حد الله
وزين قنوة فط وعظمه ، فهو خالق السموات والأرض ، وهو للبهيم
على الكون ، وهو الصير للأمر كنه ، وهو الخالق للآدم ، الذي وهبه
البصر والأفلاك ، والناس بعد ذلك للبلاد ما يشكرون . وبذلك
عبرت لفظة الأوجه وصفها : صفة الخلق ، وصفة التصير المذكورة في
سابق آيات الخلق والفكرين ، ونسترق هذه الصبغة ، بما لها صفة
الإحسان ، وصفة الأكل ، وصفة العلم ، وصفة الرحمة ، نسترق من
لؤلؤ السورة إلى الآية ٩ .

ثم تحدث الآيات عن تكاليف الكافرين لآيات الحساب ، ونجيبهم بأن
ليست حق ، وتعرض مشهدا من مشهد القبلة يفت به المرمون لآلاء بلعون
بينهم بالأخرة ، وبينهم بلعن لدى حاجهم به الصخرة المصنعة .

ولك جورا هنا للتهدد القاس لذكروب تعرض مشهد الآمن في
قدينا وهم يجرعون الله ، ويسجلون أصدمة ، ويترمون أهل الصلاة
والعبادة ، ثم ينزهم بحسن الجزاء :

(فَلَا تَنْكُمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيَتْ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أُنْفُسِهِمْ جَزَاءً بِمَا كَفَرُوا
بِمَتَلُونَ) السجدة ١٧

ثم تشير الآيات إلى أن معتق العقلة يأتي أن ينسوى للأمن والخلق
قد اضطروا في القس في الدنيا ، فيجب أن يحصل الجزاء في الآخرة ،
فكلمين جنات للورى ، والقلبين طلب متوج في جهنم ، ونسترق
هذه الصبغة من الآية (١٠ - ١٢) .

وفي الآيات الأخيرة من السورة نرد الإشارة إلى موسى عليه السلام ،
ووصلة رسالتك ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم والذين من قومه .

وتنخب له الإشارة جوة في مصلح الظلمين من قرون وهم يشون
في مساكنهم فظلمين ، ثم جوة في الأرض المبتة بزل عليها الماء بالحياة والحياء

لنظائر مشهد البر ومشهد الحبة في سطور ، وبما كان الكفر في السطوح
عن موعد يوم الفصل ان الصديقين ، ويجب القرآن ، بأنه إذا ألى يومون
بصنك ، فلا يتنهم إمامهم ، ولا يجهلون لبيستروكر مالانهم .

ولنظم السورة بتوجه الخطاب الذي ، أن يمرض عنهم ، وأن ينظر
عاجل بهم من جزاء دعائهم وكفرهم . قال تعالى :

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؕ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ
لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيسَاتُهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ؕ فَأَخْرَجْنَا عَنْهُمْ
إِنْتِهَاهُمْ مُنْتَظِرُونَ) السجدة ٢٨ - ٣٠ .

ولنظم السورة عن هذا الإبداع الحسن ، بعد ذلك الاتجاهات والمشاهد
والعزرات ، وخطاب قلب المهدي بنو الصور التي تأتيه من كل جانب
وتكلمت عنها كل طريق .

أهداف سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنية وآياتها ٧٣ آية نزلت بعد سورة آل عمران :
وتقع أحداث السورة فيما بين السنة الثانية والخامسة من الهجرة . وهي فترة
محرجة لم يكن عود المسلمين قد اشتد فيها ، إذا كانوا يتعرضون للساكنين
المنافقين واليهود :

وسميت هذه السورة بهذا الاسم ، لذكر غزوة الأحزاب فيها ، في
قوله تعالى :

(يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا) الأحزاب ٢٠ .

أحداث السورة

تناول سورة الأحزاب قطاعاً حقيقياً من حياة الجماعة المسلمة ، في
فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى ، إلى ما قبل صلح الحديبية ، وتصور
هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة ، تصويراً واضحاً مباشراً . وهي
مزجحة بالأحداث التي تشير إليها خلال دأه الفترة ، والتنظيمات التي
أنشأتها أو أقرتها في المجتمع الإسلامي الناشئ .

ولهذه الفترة التي تناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة
فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة
وفي حياة الدولة . ولم يتم استقرارها بعد ، ولا سيطرتها الكاملة . كالتي
أتم بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا : واستتباب الأمر للدولة
الإسلامية .

والسورة تنولى جانبا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة . وإبراز تلك

الملاحح : وتثبيتها في حياة الأسرة والجماعة . وبيان أصولها من العقيدة والتشريع . كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو ابطالها وإخضاعها في هذا كله للتصور الإسلامي الجديد . وفي ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم . يرد الحديث عن غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة . ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما ، وديانتهم في وسط الجماعة المسلمة ، وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الديانت وتلك المواقف ، كما تعرض بعدها لديانتهم وكيدهم للمسلمين في أخلاقهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الاتصال في سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث ، هي علاقة هذه وتلك بموقف الكافرين والمنافقين واليهود ، وسعى هذه الفئات لايقاع الاضطراب في صفوف الجماعة المسلمة ، سواء عن طريق الهجوم الحربي ، والارجاف في الصفوف والدعوة إلى الهزيمة ، أو عن طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية . ثم مانشأ في أعتاب الغزوات والغنائم من آثار في حياة الجماعة المسلمة ، تقتضى تعديل بعض الأوضاع الاجتماعية ، ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة ، وتماسك سياقها ، وتناسق موضوعاتها المنوعة ، وهذا وذاك إلى جانب وحدة الزمن تربط بين الأحداث والتنظيمات التي تتناولها السورة .

فصول السورة

يمكن أن نقسم سورة الأحزاب إلى خمسة فصول ، يبدأ الفصل الأول منها بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تقوى الله ، وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين ، واتباع ما يوحى إليه ربه ، والتوكل عليه وحده .

وبعد ذلك يلقى بكلمة الحق والفصل ، في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية ؛ مبتدئاً ببيان أن الإنسان لا يملك لإقلا واحداً ، ومن ثم يجب أن يتجه إلى إله واحد ، وأن يتبع نهجاً واحداً . ولذلك يأخذ في أبطال عادة الظهار ، وهو أن يحلف الرجل على امراته أنها عليه كظهر أمه ، فتحرم عليه جريمة أمه ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشئ حقيقة وراءه ، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أما بهذا الكلام ، ثم من هنا إلى أبطال النبي :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَذْغِيَاءَ كُمْ أَبْنَاءَ كُمْ ﴾

والذمى هو المتبنى يدعى الإنسان بنوته ، وهو لا يصير ابنا بمجرد القول ،
ثم يأمرهم أن يدعو المتبنى إلى أبيه ، فإن ذلك أقسط وأعدل من دعوتهم لمن
يتبنونهم .

ثم ينشئ الولاية العامة لرسول الله على المؤمنين جميعاً ، كما ينشئ
صلة الأمومة الشعورية ، بين أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ،
ويعقب على هذا التنظيم الجديد ، بالإشارة إلى أن ذلك مسطور في كتاب الله
القديم ، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين وعلى أولى العزم منهم بصفة خاصة ،
على طريقة القرآن في التعقيب على النظم والتشريعات والمبادئ والتوجيهات
لتستقر في الضمائر والنفوس ، ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٨

غزوة الأحزاب وبنى قريظة

نجد الفصل الثاني من السورة ممتدا من الآية ٩ إلى الآية ٢٧ ويتناول هذا
الفصل غزوة الأحزاب ، ويصف مشاهدتها وملابساتها ، ويصور أحوال
المسلمين فيها ، وقد جاءتهم قريش من أسفل ، الوادى ، وغطفان من أعلاه ،
وأسقط في يد المسلمين ، فالأحزاب أمام المدينة ، ويهود بنى قريظة نقضوا
عهودهم ، وأظهروا الخيانة والغدر للمسلمين ، وحفر المسلمون خندقاً لحماية
المدينة ، وكان المسلمون في غاية الإجهاد والتعب المادية ، واشتدت الفتن ،
وفي وسط هذه المحن بشر النبي المؤمنين بالنصر ، ووعدهم كنوز كسرى وقبصر
وظهر النفاق من بعض المنافقين فقالوا : ان محمدا يعدنا كنوز كسرى
وقبصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع الخروج إلى الحلاء وحده وفي ذلك يقول القرآن :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ

وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الأحزاب ١٢

واستنجد النبي ربه ، ورفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم رب الأرباب
ومسبب الأسباب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم يا رب
العالمين » . فأرسل الله ريحاً عاتية ، في ليلة شامية مظلمة ، خلعت خيام

الكافرين ، وكفأت قلوبهم ، وانسحبت قريش وأحزابها ، في ظلام الليل
يجرون أذيال الخوف والانكسار ، وسجل الله ذلك في القرآن بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *
إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ الأحزاب ٩ - ١١ .

وتصف الآيات صدق بعض المؤمنين وبلاءهم الحسن ، وإخلاصهم لله
في الجهاد حتى رؤى بعض الشهداء ، وفيه أكثر من سبعين ضربة بسيف أو
طعنة برمح أو رمية بسهم ، وفي مثل هؤلاء تقول السورة :

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ
إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الأحزاب ٢٢ - ٢٤

ثم تصف الآيات رحيل الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وحماية الله
للمسلمين في هذه الموقعة ، وهو سبحانه القوى العزيز . ولما رحلت الأحزاب
عن المدينة ، نزل جبريل من السماء وقال : يا محمد إن الملائكة لم تضع السلاح
بعد ، اذهب إلى بني قريظة فان الله ناصرك عليهم ، جزاء خيانتهم وغدرهم
فقال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين
العصر إلا في بني قريظة » . وهناك حاصر المسلمون بني قريظة ، ثم أجلوهم
عن ديارهم ، وغنم المسلمون أرضهم ودورهم وأموالهم وحصونهم المشيعة
بقدره الله وهو على كل شيء قدير . قال تعالى :

أهداف كل سورة ٣٠٥

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ
 الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
 وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ
 تَطُورْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ الأحزاب ٢٥ - ٢٧ .

زوجات الرسول

تتناول الآيات ٢٨ - ٣٦ حديثاً عن زوجات الرسول ﷺ ، وكانت
 الغنائم قد جاءت للمسلمين ، وأقبل المال بعد غزوة بني قريظة ، فطلعت
 زوجات الرسول إلى المتعة والنفقة الواسعة ، وقلن يا رسول الله نساء كسرى
 وقيصر بين الحل والحلل ، والإماء والخدم ، ونساؤك على ما ترى من
 هذه الحال .

فنزلت الآيات تخيرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله
 والدار الآخرة . وخير النبي نساءه ، وبدأ بعائشة ، فقال لها : سأعرض
 عليك أمرين ، أرجو ألا تقطعي في اختيار أحدهما ، حتى تستشيرى أبويك
 وقرأ عليها الآيتين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرُخْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا
 عَظِيمًا ﴾ الأحزاب ٢٩ ، ٢٨ .

فقال عائشة أفيك أشاور أبوي يا رسول الله؟ أختار الله ورسوله ، وقالت
 كل نساءه مثل ذلك ، فجعلهن الله أمهات المؤمنين وأشارت الآيات
 التالية إلى جرائم المضاعف في الأجر إن اتقين ، وإلى العذاب المضاعف
 إن ارتكبن فاحشة مبينة ، لأنهن في بيت النبوة والقدوة والأسوة ، فلهن ضعف

الأجر إن أحسن ، وضعف العقوبة إن أسأن ، فزلة العالم يقرع بها الطبل ،
وزلة الجاهل يخفيها الجهل ، ثم أمرت الآيات زوجات الرسول بمخض الصوت
وجعله مستقيماً بدون تكسر ، حتى لا يطمع الشباب المنافق فيهن ، وحين
على الاستقرار في البيت ، وعدم التبرج ، وتلاوة القرآن والتفقه في أحكامه
واستطردت الآيات في بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات ، وكان هذا هو
الفصل الثالث في سورة الأحزاب .

قصة زينب بنت جحش

أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، فحرر العبيد ، وعلم
الناس المساواة ، وكرم إنسانية الإنسان ، وبين أن الناس سواسية كأسنان
المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى .

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، لزيد بن حارثة
رضي الله عنه ، فاستنكفت وقالت : أنا خير منه حسباً - وكانت امرأة فيها
حدة - فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ
يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
مُبِينًا ﴾ الأحزاب ٣٦

فقالت زينب هل رضيته لي يارسول الله زوجاً ؟ قال رسول الله : نعم .
قالت إذن لا أعصى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أنكحته نفسي .

وتم هذا الزواج ، ولأمر أراده الله لم يدم طويلاً ، فقد كانت زينب
تفخر على زيد بن حارثة بأنها حرة قريشة جميلة ، وأنه عبده لا يلدائها في
نسبها وحسبها ، فلما تكررت ذلك منها عزم زيد على طلاقها ، وذكر ذلك لرسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي أمسك عليك زوجك واتق الله ،
رغبة في إبقاء هذا الزواج ، وكان النبي يعلم بوحي من السماء أن زينب ستطلق
وأنها ستكون زوجة للرسول ، ليبطل بهما الزواج آثار النبي بسابقة عملية

يختار لها رسول الله عليه وسلم بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة في البيئته العربية ، وصعوبة الخروج عليها . ولما طلقت زينب من زيد خطبها النبي لنفسه ونزل الوحي من السماء بذلك ، حتى كانت زينب تفخر على أزواج النبي فتقول زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات .

ولم تمر المسألة مهلة ، فقد فوجيء بها المجتمع الإسلامي كله ، كما انطلقت أسنة المنافقين تقول : تزوج حلياة ابنه .

وكانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد ، لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن محمد لا تحل له ، حتى بعد ابطال عادة التبنى في ذاتها ، ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأعداء ، إنما كان حادث زواج النبي بزينب هو الذي قرر القاعدة عملياً ، بعد ما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار .

وفي هذا ما يهدم كل الروايات ، التي رويت عن هذا الحادث ، والتي تشبث بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً ، وصاغوا حولها الأساطير للمفريات . إنما كان الأمر أمر الله ، تحمله النبي وواجه به المجتمع الكاره لهذا الأمر كل الكراهية ، حتى ليردد النبي في تحمله ومواجهة الناس به . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ، لِيَكُنْ لِأَيُّكُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ الأحزاب ٣٧ .

واستمرت الآيات توضح أنه لا حرج على النبي فيما فرض الله له ، فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يبطل عادة العرب في تحريم أزواج الأعداء ، وذكرت الآيات أن محمداً لم يكن أباً أحد من رجال العرب ،

حتى يحرم عليه الزواج من مطلقته ، وإنما محمد رسول الله وخاتم النبيين ،
فهو يشرع الشرائع الباقية ، لتسير عليها البشرية إلى يوم الدين ، ثم حث
الآيات على ذكر الله وطاعته .

وقد استغرق هذا الموضوع الرابع ، الآيات من ٣٦ - ٤٤ .

أدب بيت النبوة

يستغرق الموضوع الخامس الآيات من ٤٥ إلى آخر السورة ، ويبدأ
ببيان حكم المطلقات قبل الدخول ، ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي صلى
الله عليه وسلم ، فيبين من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرم عليه ،
ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي ، وزوجاته في حياته وبعد
وفاته ، وتقرير احتجاجهن لإعالي آباءهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن
أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن ، وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله
صلى الله عليه وسلم - في أزواجه وبيوته وشعوره ، وهددهم باللعن في
الدنيا والآخرة ، مما يشي بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئاً
كثيراً .

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبي وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين
عليهن من جلابيين :

﴿ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ﴾ .

وبتهديد المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفين في المدينة ،
بتسليط النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، وإخراجهم من المدينة كما خرج
بنو قينقاع من قبل وبنو النضير بعدهم ، أو القضاء عليهم كما وقع لبني
قريظة ، وكل هذا يشير إلى إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامي بوسائل
شريرة خبيثة .

ثم ذكر من شرور هؤلاء الناس أنهم كانوا يسألون النبي متى تكون
الساعة على سبيل الاستهزاء والاستخفاف ، وأجابهم بأن علم الساعة عند
الله ، ولوح بأنها قد تكون قريباً ، وأتى هذا بمشهد من مشاهد القيامة

حيث يتقلب المجرمون في جهنم ، ويتمرغون في العذاب والندامة .
ثم تعقب السورة بنبي المؤمنين عن إيداء النبي ، حتى لا يكونوا كالذين
آذوا موسى بالطعن عليه ، ثم برأه الله وجعله نزيها وجيها .

تحمل الانسان للأمانة

في آخر السورة نجد آية شهيرة تكشف عن جسامه العبء الملقى على عاتق
البشرية ، وعلى عاتق الجماعة الإسلامية بصفة خاصة ، وهي التي تهض
وحدها بعبء الأمانة الكبرى أمانة العقيدة والاستقامة عليها .

لقد عرض الله حمل الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين
حملها لخطر أمرها ، وحملها الانسان الذي خلق مزودا بالإرادة والكسب
والاختيار ، والقدرة على الطاعة والمعصية .

فالسماوات والأرض والجبال والبحار والكون كله يخضع لله خضوع القهر
والغلبة ، ولا يحتمل التكاليف ، ولا يستطيع أن يتحمل الأمانة والتكاليف
الشرعية ، فيثاب على الطاعة ويعاقب على المعصية ، إنما الانسان وحده
الذي ميزه الله بالعقل والإرادة ، وكرمه وفضله بالكسب والاختيار ، فله
قدرة على الطاعة وقدرة على الظلم والجهل ، وقد استعمر الله الانسان في
الأرض واستخلفه فيها لعلمه ، أنه وحده هو الذي يصلح خليفة عنه ، لما ركز في
غرائزه وطبائعه من حب التنافس ، والتسابق في عمارة الأرض ، فمن
أطاع الله من طائفة الانسان فله الجنة وله التوبة عند الخطأ ، ومن كفر
وتنافى فله العذاب والعقاب . قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ
أَنْ يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا *
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الأحزاب ٧٢ و ٧٣



أهداف سورة سبأ

سورة سبأ سورة مكية ، نزلت بعد سورة لقمان ، وقد نزلت سورة سبأ في الفترة ما بين السنة الحادية عشر والثانية عشر من حياة الرسول بمكة بعد البعثة ، فقد جاء الوحي إلى النبي وعمره ٤٠ سنة ، ثم مكث في مكة ١٣ عاماً ، وفي المدينة ١٠ أعوام ومات وعمرة ٦٣ سنة .
وكانت سورة سبأ ضمن مجموعة السور التي نزلت في السنوات الأخيرة من حياة المسلمين بمكة .

وعدد آيات سورة سبأ ٥٤ آية ، وسميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة سبأ ، وهي مدينة من المدن القديمة في اليمن ، وكانت عاصمة دولة قديمة به ، وقد خربت عند انهيار سد مأرب بسبب سيل العرم ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴾ سبأ ١٥ - ١٧ .

موضوعات السورة

موضوعات سورة سبأ هي موضوعات العقيدة الرئيسية : توحيد الله والإيمان بالوحي ، والاعتقاد بالبعث ، وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية ، وبيان أن الإيمان والعمل الصالح - لا الأموال ولا الأولاد - هما قوام الحكم والحزاء عند الله ،

وأته ما من قوة تعصم من بطش الله ، وما من شفاعة عنده إلا بأذنه .
والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء ، وعلى إحاطة
علم الله وشموله ، ودقته ولطفه ، وتركز الإشارة في السورة إلى هاتين
القضيتين بطرق متنوعة ، وأساليب شتى ، وتظلل جو السورة كله من البدء
إلى النهاية .

فمن قضية البعث تقول السورة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾

سبأ ٣ .

ويرد قرب ختام السورة :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ ﴾ سبأ ٤٨

وقد عرض الفيروزبادي مقصود السورة فقال :

بيان حكمة التوحيد ، وبرهان نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم -
ومعجزات داود وسليمان ووفاتهما ، وهلاك سبأ ، وشؤم الكفران ،
وهدم الشكر ، وإلزام الحججة على عباد الأصنام ، ومناظرة أهل الضلالة
وذكر معاملة الأمم الماضية مع النبيين ، ووعد المنفقين والمصدقين بالانحلاف
والعودة إلى إلزام الحججة على منكري النبوة ، وتعمي الكفار في وقت الوفاة
الرجوع إلى الدنيا .

وتلاحظ أن هذه القضايا التي تعالجها السورة ، قد عالجتها السور المكية
في صور شتى ، ولكنها تعرض في كل سورة مصحوبة بمؤثرات متنوعة
جديدة على القلب في كل مرة ، ومجال عرضها في سورة سبأ يأتي
مصحوبا بمؤثرات عدة ، ممثلة في رقعة السموات والأرض الفسيحة ،

وفي عالم الغيب المجهول المرهوب ، وفي ساحة الحشر الهائلة العظيمة ، وفي أعماق النفس المطوية اللطيفة ، وفي صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة ، وفي مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة غريبة ، وفي كل منها مؤثر موح للقلب البشري ، موقظ له من الغفلة والضيق والهمود .

فمنذ افتتاح السورة وهي تفتح العيون على هذا الكون الهائل ، وعلى صحائفه وما فيها من آيات الله ، وعلى مجال علمه اللطيف الشامل ، الدقيق الهائل .

وتستمر السورة في مناقشة المكذبين وإلزامهم بالحجة وإيقافهم أمام فطرتهم وأمام منطق قلوبهم بعيداً عن الغواشي وانؤثرات المصطنعة (١) .
قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِزُّكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُونَ
مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾
سبأ ٤٦ .

وهكذا تطوف السورة بالقلب البشري في مجالات متنوعة ، وتواجهه بالحقائق والأدلة والحجج ، حتى تنتهي بمشهد عنيف أخاذ من مشاهد القيامة .

فصول السورة

يجرى سياق السورة في عرض موضوعاتها في جولات قصيرة متلاحقة متعاقبة ، يمكن تقسيمها إلى ستة فصول :

١ - الألوهية والاثبات البعث

تحدثت الآيات التسع الأولى من السورة ، عن عظمة الخالق المالك لما في السموات والأرض ، المصمود في الآخرة وهو الحكيم الخبير ، وقررت شمول علمه الدقيق لما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما يتول من

(١) انظر في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢٢/٥٢ - ٥٦

السماء وما يعرج فيها ، ثم تطرقت للحديث عن إنكار الكافرين لحجى الساعة ، وردت عليهم بتأكيد إتيانها ، ليتم إثابة المؤمنين ، وعقوبة الكافرين ، وليستقين العلماء والمؤمنون ، أن القرآن حق وصدق ، وهداية إلى صراط العزيز الحميد ، ثم تحدثت عن عجب الكفار من قضية البعث واستبعادهم لوقوعه ، بعد أن يموتوا ويمزقوا كل ممزق ، وأجابت عن ذلك بأنه لاوجه لاستبعادهم ، وهم يرون من كمال قدرة الله ما بين أيديهم وما خلقهم من السماء والأرض ، وهددت المكذبين بنحس الأرض من تحتهم ، أو إسقاط السماء كسفا عليهم .

٢ - داود وسليمان

تتناول الآيات من (١٠-١٤) طرفاً من قصة داود وسليمان وتذكر نعمة الله عليهما وفضله ، فقد أعطى داود النبوة والزبور والصوت الحسن وإذا سبح الله سبحت معه الجبال والطيور ، وألان الله له الحديد ، وأوحى إليه أن يعمل دروعاً سابغات للحرب ، كما حثه الله على العمل الصالح ، فإنه سبحانه بصير خبير .

وقد سخر الله لسليمان الريح ذهاباً شهر ورجوعها شهر ، تحمل بساطه هو وخاصته إلى حيث يشاء ، وقد ذلل الله له الجن تعمل له أنواع المصنوعات ، فلما انقضى أجله مات واقفاً متكئاً على عصاه وما ذل الجن على موته إلا أرضية قرضت عصاه فسقط فانطلقوا بعد أن كانوا مسجونين .

٣ - قصة سبأ

ضرب الله مثلاً للشاكرين بـداود وسليمان ، وقليل من الناس من يدرك فضل الله عليه ، وعظيم نعمائه التي لا تعد ولا تحصى . ثم ضرب الله مثلاً للبطر وجحود النعمة بمملكة سبأ ، وقد سبق أن ذكرت في سورة النمل بالعظمة والقوة ، فلما آمنت بلقيس وكفر من جاء بعدها وأعرضوا عن شكر الله أصابهم الدمار .

وسبأ اعم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن ، وكانوا في أرض

مخصصة ماتزال منها بقية إلى اليوم ، وقد ارتقوا في سلم الحضارة ، حتى
تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق .
فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على فم الوادي
بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخنزوا المياه بكميات عظيمة وراء
السد وتحكّموا فيها وفق حاجتهم ، فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم ،
وقد عرف باسم : سد مأرب .

وهذه الجنان عن اليمين والشمال . رمز لذلك الحصب والوفرة والرخاء
والمتاع الجميل ، ولكنهم لم يشكروا نعمة الله ولم يذكروا آلاءه ، فسلبهم
هذا الرخاء ، وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه - وهي
الحجارة - لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ، ثم
لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت الجنان واحترقت ، وتبدلت تلك الجنان
الفيحاء صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة .

﴿ ذَلِكْ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾ سبأ ١٧

بنعمة الله

(وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ)

وقد استغرقت قصة سبأ الآيات من (١٥-٢١) .

٤ - الشرك والتوحيد

المتأمل في الآيات من (٢٢ - ٢٧) في سورة سبأ يجد ظاهرة متميزة
فقد تكرر قول : قل في أول هذه الآيات ، كما تضمنت عدداً من الأسئلة
والحقائق ، في أسلوب رائع قوى .

لقد بدأت الآيات تتحدى المشركين أن يدعو الذين يزعمون أنهم آلهة
من دون الله ، وهم لا يملكون نفعا ولا ضرا ، ولا يملكون شفاة عند
الله - ولو كانوا من الملائكة - فالملائكة يتلقون أمر الله بالخشوع الراجف
ولا يفحدثون حتى يزول منهم الفرع والارتجاف العميق . ويسألهم الله

عن يرزقهم من السموات والأرض ، والله مالك السموات والأرض ،
وهو الذي يرزقهم بلا شريك ، ثم يفوض أمر النبي وأمرهم إلى الله ،
وهو الذي يفصل فيما هم فيه مختلفون ، ويختتم هذا الفصل بالتحدي كما
بدأه ، أن يروه الذين يلحقونهم بالله شركاء .

﴿ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سبأ ٢٧ .

وهكذا تطوف الآيات بالقلب البشري في مجال الوجود كله : حاضره
وغيبه ، سمائه وأرضه دنياه وآخرته ، وتقف به أمام رزقه وكسبه
وحسابه وجزائه ، كل ذلك في فواصل قوية ، وضربات متلاحقة وآيات
تبدأ كل آية منها بفعل الأمر قل ، وكل قولة منها تدمغ بالحجة ، وتصدع
بالبرهان في قوة وسلطان .

وفي أعقاب هذه الآيات بيان لرسالة الرسول وأنها عامة للناس
أجمعين :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سبأ ٢٨ .

٥ - مشاهد القيامة والجزاء

يستغرق الفصل الخامس في السورة من الآية ٢٩-٤٢ . ويبدأ بسؤال
يوجه الكفار للنبي عن يوم القيامة ، استبعاداً لوقوعه ، والجواب أن مياده
لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد اعتر الكفار بالأموال والأولاد ، وقالوا لن
نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السابقة عليه .

وهنا يعرض القرآن موقف الظالمين أمام ربهم يتحاورون ، فيراجع
بعضهم بعضاً ، كل منهم يحاول أن يلقي التبعة على أخيه ، فيقول
الضعفاء : لسادة والكبراء ، لقد تصدتم لنا بالإغراء ، والمكر بنا ليلاً
ونهاراً ، حتى أفسدتم علينا رأينا ، وجعلتمونا تكفر بالله ، وجعل له
نظراء من الآلهة الخيالية ويحتج الكبراء ويقولون نحن منعناكم عن الهدى

بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين إذ أخذتم الكفر عنا بالتقليد .

وعص الجميع بفان الندم حين رأوا العذاب ، والأغلال في أعناقهم ،
ثم نرى المترفين يقاومون كل إصلاح ، ويكذبون كل رسالة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ ﴾ سبأ ٣٤ .

وقد احتج المترفون بكثرة أموالهم وأولادهم ، واعتقدوا أن فضلهم
في الدنيا سيمنعهم من العذاب في الآخرة ، وهنا يضع القرآن موازين الحق
والعدل ، ويقرر القيم الحقيقية التي يكون عليها الجزاء والحساب ، وهي
قيم الإيمان والعمل الصالح ، لا الأموال والأولاد .

وفي مشاهد القيامة يتضح أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا
يعبدونهم في الدنيا ، يملكون لهم في الآخرة شيئاً .

كما توضح الآيات أن بسط الرزق وقبضه أمران مجريان وفق إرادة
الله ، وليس دليل على رضى أو غضب ، ولا على قربى أو بعد . إنما
ذلك ابتلاء واختبار .

٦ - الدعوة الى التأمل والتفكير

في الآيات الأخيرة من السورة من ٤٣ - ٥٤ ، حديث عن عباد
الكافرين وجحودهم ، من غير برهان ولا دليل ، وتنبيه من القرآن بما
وقع لأمثالهم ، وعرض لمصارع الغابرين الذين أخذهم التكبر في الدنيا وهم كانوا
أقوى منهم وأعلم وأغنى .

ويعقب هذا عدة إيقاعات عنيفة ، كأنما هي مطارق متوالية ،
يدعوهم في أول إيقاع منها إلى أن يقوموا لله متجردين ، ثم يتفكروا غير
متأثرين بالحواجز التي تمنعهم من الهدى ومن النظر الصحيح . وفي الإيقاع
الثاني يدعوهم إلى التفكير في حقيقة البواعث التي تجعل الرسول صلى الله
عليه وسلم يلاحظهم بالدعوة ، وليس له من وراء ذلك نفع ، ولا هو

يطلب على ذلك أجرا ، فما لهم يتشككون في دعوته ويعرضون ؟
وتوالت الآيات تبدأ بلفظ قل .. وكل منها يهز القلب هزا ، فمحمد
لم يسألم أجرا بل أجره على الله ، ومحمد مؤيد صلى الله عليه وسلم بالحق
والحق غالب والباطل مغلوب .

ثم تلتفت في وعظهم فذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم إن ضل فضلاله
إنما يعود عليه وحده وإن اهتدى فبهدي الله له ، ثم بين سوء حالهم إذا فرغوا
يوم القيامة إلى ربهم ، فلا يكون لهم فوت منه ولا مهرب ، وذكر أنهم
يؤمنون به في ذلك الوقت فلا ينفعهم إيمانهم ، وتختتم السورة بمشهد
هؤلاء الكفار ، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان في غير
موعده ، والإفلات من العذاب والنجاة من أهوال القيامة ، كما فعل
أشباعهم من كفره الأمم التي قبلهم ، إنهم كانوا في شك موقع في الارتياب

وهكذا تختتم السورة بمشهد يثبت قضية البعث والجزاء ، وهي القضية
التي ظهرت خلال السورة من بدايتها ، قال تعالى :

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أسبأ ٥٤ .



أهداف سورة فاطر

سورة فاطر سورة مكية نزلت بعد سورة الفرقان ، وقد نزلت سورة فاطر فيما بين الهجرة إلى الحبشة والأسراء . وإذا قسمنا حياة المسلمين بمكة إلى ثلاث فترات : الفترة المبكرة للدعوة ، والفترة المتوسطة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، والفترة الأخيرة فيما بين الإسراء والهجرة إلى المدينة ، رأينا أن سورة فاطر نزلت في الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة ، ولسورة فاطر إسمان : الاسم الأول سورة فاطر ، والاسم الثاني سورة الملائكة ؛ لقوله تعالى في أول السورة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فاطر ١ .

موضوعات السورة

قال الفيروزبادهي : مقصود سورة فاطر هو : « بيان خلق الملائكة ، وفتح أبواب الرحمة ، وتذكير النعمة ؛ والتحذير من إغراء الشياطين ؛ وتسلية الرسول وصعود كلمة الشهادة إلى الله وذكر عجائب البحر ؛ واستخراج الحلية منه ؛ وسير الليل والنهار ؛ وعجز الأصنام عن الربوبية ، وفقر العباد إلى الله ، وفضل القرآن وشرف تلاوته ، وأصناف الخلق في واثية القرآن ، وخلود الجنة لأهل الإيمان ، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان ، والمنة على العباد بحفظ السماء والأرض من الخلل والاضطراب . . . » (١) .

(١) أنظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادهي ٣٨٩/١

سياق السورة

سورة فاطر لها نسق خاص في موضوعها وفي سياقها ، أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد . « فهي تلمح في إيقاعات تتوالى على القلب البشري من بلدتها إلى نهايتها ، وهي إيقاعات موحية مؤثرة تهز القلب هزا ، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هذا الكون ، وليتدبر آيات الله المبتوثة في تضاعيفه ، المتناثرة في صفحاته ، وليتذكر آلاء الله ويشعر برحمته ورعايته ، وليتصور مصارع الغابرين في الأرض ومشاهد يوم القيامة ، وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله ، وآثار يده في أطواء الكون ، وفي أغوار النفس ، وفي حياة البشر ، وفي أحداث التاريخ ، وهو يرى ويلمس في تلك البدائع وهذه الآثار وحدة الحق ووحدة الناموس ، ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القادرة . . . ذلك كله في أسلوب وفي إيقاع لا يتناسك له قلب يحس ويدرك ، ويتأثر تأثر الأحياء .

« والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات ، متتالية الإيقاعات يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات فهي كلها موضوع ، كلها إيقاعات على أوتار القلب البشري ، تستمد من ينابيع السكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث ، فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع إلى الإيمان والخشوع والإذعان .

« والسمة البارزة الملحوظة هي تجميع الخيوط كلها في يد القدرة المبدعة وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها ، وتقبضها وتبسطها ، وتشدها وترخيها فلا معقب ولا شريك ولا ظهير . » (١) .

فقرات السورة

رغم أن السورة كلها وحدة متماسكة إلا أنه يمكن تقسيمها إلى خمس موضوعات أو مجموعات :

(١) في نلال القرآن بقلم سيد قطب ١٦/٢٢

١ - رحمة الله وفضله

إذا تأملنا الآيات : ﴿من﴾ (١ - ٨) في سورة فاطر ، نجد فيضاً من أنعم الله التي لا تعد ولا تحصى على عباده ، فهو خالق السماء والأرض وجاعل الملائكة رسلاً يصلون آثار قدرته وجليل وحيه إلى عباده ، وإذا لاحظت عناية الله عبداً زالت من أمامه القيود والسود (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) فاطر / ٢ . لقد فتح الله رحمته لأنبيائه وأصفياه ، جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأنقذ يوسف من الحب ومن السجن واستجاب دعاء يونس في بطن الحوت ، وأزر موسى في طريقه إلى فرعون ، وأنزل رحمته بأصحاب الكهف وحفظهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، وشملت رحمة الله محمداً صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، وهو طريد :

﴿ ثَانِيْ اِثْنَيْنِ اِذْ هُمَا فِي الْغَارِ اِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ اِنَّ اللّٰهَ

مَعَنَا ﴾ التوبة ٤٠ .

وإذا أمسك الله رحمته عن عبد ، فلن ينفعه مال ولا رجال . وإذا استقر اليقين في القلب تنبه إلى كيد الشيطان وفنه ، فالؤمن يعلم أن الشيطان عدو لنا يزين لنا الشر ليوقعنا في المعصية ، فمن أطاع الشيطان زين له سوء عمله فرآه حسناً ، ووقع في الضلال ، ومن يضل الله فما له من هاد .

٢ - آيات الله في الكون

في الآيات من (٩ - ١٥) نلاحظ آثار القدرة الالهية ، في نفس الإنسان وفي صفحة الكون ، وفي الرياح يسوقها الله ، ثم تثير السحب فتسوقها يد القدرة مطراً يحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك البعث والحياة بعد الموت .

والله خالق الإنسان وبيده رعايته في مراحل تكوينه ، وتخليقه في بطن أمه ، ثم رعايته وليلداً وناشئاً وزوجاً ، وهو عليم بمن يموت مبكراً ، إن ذلك على الله يسير .

وتتمتع قدرة الله إلى كل مظهر من مظاهر الوجود ، فتراها في مشهد البحرين

المتميزين أحدهما حذب قرأت . والآخر منح اجحاج ، وإنما من نعم الله على
الناس ما يقتضى الشكر والعرفان .

وفي مشهد الليل والنهار يتداخلان ، ويطولان ويقصران ، دليل على
التقدير والتدبير ، وكذلك مشهد الشمس والقمر ، مسخرين بهذا النظام
البدقيق .

هذه آثار قدرة الله ، والذين يدعون من دونه لا يسمعون ولا يستجيبون
ويوم القيامة يتبرعون من عبادهم الضلال . ولا يخبر بهذه الحقائق مثل
الإله الخبير .

٣ - الله غنى عن عبادتنا

في الآيات من ١٥ - ٢٦ بيان لحقيقة أساسية ، هي أن الله غنى عن
عبادتنا ، فلا تنفعه طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، ولكننا نحن الفقراء المحتاجون
إلى رضاه وعنايته ، فمن وجد الله وجد كل شيء : وجد الهداية والسعادة
والثقة بالنفس ، والأمل في الغد ، ومن فقد الله فقد كل شيء . ولو شاء الله أن
يذهب الناس لأهلكهم ، وأتى بخلق جديد يعرفون فضله عليهم .

ويشير القرآن إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال ، وأن الاختلاف
بين طبيعتهما أصل عميق ، كأصالة الاختلاف بين العمى والبصر ، والظلمات
والنور ، والظل والحرور ، والموت والحياة ، وأن بين الهدى والبصر والنور
والظل والحياة صلة وشبه ، كما أن بين العمى والظلمة والحرور والموت صلة
وشبه ، ثم تنهى الجولة بإشارة إلى مصارع المكذبين للتنبيه والتحذير .

٤ - كتابان الهيان

عند قراءة الآيات من ٢٧ - ٣٨ يتضح أمامنا أن الله عز وجل كتابين
يملآن عليه ، أحدهما كتاب الكون والثاني الكتاب المنزل ، والمؤمن يقرأ
دلائل القدرة في كتاب الكون : في صحائفه العجيبة الرائعة ، المتنوعة الألوان
والأنواع والأجناس ، والأمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعب ، والناس

والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة . . هذا اللفظة العجيبة إلى تلك
الصحائف الرائعة في كتاب الكون المفتوح .

والمؤمن يقرأ في الكتاب المنزل ويستيقن بما فيه من الحق المصدق لما بين
يديه من الكتب المنزلة : وتورث هذا الكتاب للأمة المسلمة . ودرجات الوارثين
وما ينتظرهم جميعاً من نعم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين ، ومشهدهم
في دار النعيم ، ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم ، وتختم الجولة العجيبة
المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور .

٥ - دلائل الايمان

تشمّل الآيات من (٣٩ - ٤٥) على الفقرة الأخيرة من السورة وفيها
دلائل يقدمها القرآن ليحرك القلوب نحو الإيمان . وتجوّل الآيات جولات
واسعة المدى تشتمل على إجماعات شتى : جولة مع البشرية في أجيالها المتعاقبة
يخلف بعضها بعضاً ، وجولة في الأرض والسموات للبحث عن أى أثر
للشركاء ، الذين يدعونهم من دون الله ، وجولة في السموات والأرض كذلك
لرؤية يد الله القوية تمسك بالسموات والأرض أن تزولا ، وجولة مع هؤلاء
المكذّبين بتلك الدلائل والآيات كلها ، وهم قد عاهدوا الله من قبل لأن
جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه
فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا ، وجولة في مصارع المكذّبين من قبلهم
وهم يشهدون آثارهم الدائرة ، ولا ينحشون أن تدور عليهم الدائرة : وأن
تمضى فيهم سنة الله الجارية (١) . ثم الختام الموحى الموقظ للقلب ،
المبيّن فضل الله العظيم في إمهال العصاة : فان تابوا قبل توبتهم ، وإن أصروا
على المعصية عاقبهم وحاسبهم قال تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ ،
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ
بَصِيرًا ﴾ فاطر ٤٥ .

(١) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ١٣٦/٢٢ .

أهداف سورة يس

سورة يس - مكية ، نزلت في الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة ،
أى فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، وآياتها ٨٣ آية نزلت بعد سورة
الجن .

وللسورة إسمان : سورة يس لافتتاحها بها ، وسورة حبيب النجار
لاشتغالها على قصته ، فقد جاء في تفسير قوله تعالى :

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾

أن هذا الرجل يسمى حبيب النجار .

مقصود السورة

قال الفيروزبادى : ﴿ معظم مقصود سورة يس - تأكيد أمر القرآن
والرسالة ، وإلزام الحجّة على أهل الضلالة ، وضرب المثل بأهل قرية
أنطاكية ، في قوله تعالى : ﴿

﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ يس ١٣

وذكر قصة حبيب النجار الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وبيان
البراهين المختلفة في إحياء الأرض الميتة ، وإبداء الليل والنهار ، وسير الكواكب
ودوران الأفلاك ، وجرى الجوارى المنشآت في البحار ، وذلة الكفار عند
الموت ، وحيرتهم ساعة البعث ، وسعادة المؤمنين المطيعين ، وشغلهم في الجنة ،
وتمييز المؤمن من الكافر في القيامة ، وشهادة الجوارح على أهل المعاصي بمعاصيهم ،
والمنة على الرسول صلى الله عليه وسلم بصيانيته من لشعر ونظمه ، وإقامة

البرهان على البعث ، ونفاذ أمر الحق في كنفه فيكون ، وكمال ملك
ذو الجلال على كل حال « (١) في قوله سبحانه .

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس ٨٣

ملاحح السورة

سورة يس لها وقع خاص في نفوس المسلمين ، يرددون قراءتها في الصباح
والمساء ، وتقرأ على المريض للشفاء ، وعلى المختصر لتيسير خروج الروح ، وعلى
المقابر لتنزل الرحمة على الموتى ، وقد أخرج ابن حبان في صحيحه مرفوعا :
« من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له » (٢) .

وتتميز سورة يس بقصر الآيات ، وسهولة القراءة ، وتتابع المشاهد وتنوعها ،
من بدء السورة إلى نهايتها .

والموضوعات الرئيسية في السورة ، هي موضوعات السور المكية ، وهدفها
الأول هو بناء أسس العقيدة ، فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة ،
وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب
بالوحي والرسالة ، وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام
القصص لتدعيم قضاياه ، وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته فتوضح
أن ما يوحى إلى محمد ليس شعرا ولكنه ذكر وقرآن مبين .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية ، فيجى استنكار
الشرك على لسان الرجل المؤمن ، الذي جاء من أقصى المدينة ليعلن إيمانه بالمرسلين ،
وهو يقول :

﴿ وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. ﴾ يس ٢٢

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة ، هي قضية البعث والنشور ، وهي
تردد في مواضع كثيرة من السورة ، وتحكى السورة قصة أبي بن خلف ،

(١) بصائر ذوي التمييز ١ / ٣١٠ بصرف .

(٢) أنظر بصائر ذوي التمييز ١ / ٣٩٤

حين جاء بعظم قدرم وبلى وصار ترابا ، ثم ضغط عليه بيديه ، ونفخ فيه فطار في الفضاء ، ثم قال : يا محمد تزعم أن ربك يبعث هذا بعد ما رم وبلى وصار ترابا ، فقال له النبي نعم ويبعثك ويدخلك النار ، قال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ يس ٧٨ ، ٨٩ .

« والقضايا المتعلقة ببناء العقيدة ، تتكرر في السور المكية ، ولكنها تعرض كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها .

« وهذه المؤثرات متترعة في هذه السورة من مشاهد القيامة - بصفة خاصة - ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها ، ومن مصارع الغابرين على مدار القرون ، ثم من المشاهد الكونية الكثيرة ، المتفرعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة ، ومشهد الليل يسليخ منه النهار فإذا هو ظلام ، ومشهد الشمس تجري لمستقرها ، ومشهد القمر يتدرج في منازل حتى يعود كالعرجون القديم ، ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين ، ومشهد النطفة وتحولها في النهاية إلى إنسان فإذا هو خصيم مبین ، ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون» (١) :

فصول السورة

يجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة فصول :

١ - رسالة ورسول

يستغرق الفصل الأول من السورة الآيات من (١ - ٢٩) ، ويبدأ بالقسم بالحرفين « يا . سين » وبالقرآن الحكيم على صديق رسالة النبي صلى الله

(١) في ظلال القرآن ٧/٢٢

عليه وسلام ، وأنه على صراط مستقيم ، ثم يبين أن القرآن منزل من عند الله ، لإندار العرب الذين لم ينذر آباؤهم من قبل : فوقعوا فيما وقعوا من الغفلة ، وحق العذاب على أكثرهم بسببها ، وقد جرت سنة الله ألا يعذب قوما إلا بعد أن يرسل إليهم من ينذرهم ، ثم وصف حرمانهم من الهداية وإمعانهم في الغواية ، كأنما وضعت أغلال في أعناقهم بلغت إلى أذقانهم ، ووضعت سدود بين أيديهم ومن خلفهم فصاروا لا يبصرون ، وبين أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب ، فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى ، وموحيات الإيمان . ثم يوجه النبي إلى أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية .

قصة اصحاب القرية

ضرب الله لأهل مكة مثلا قصة أهل أنطاكية بالشام ، أرسل الله إليهم رسولين ، هما يوحنا وبولس من حواربي عيسى ، فكلنهما أهل القرية ، فأرسل الله ثالثا على درجة من الذكاء في توجيه الدعوة ، واستمر التكذيب من الكافرين ، وبيان الحججة وأدلة الإيمان من المرسلين . ثم جاء رجل مؤمن يسمى حبيب النجار فدعا قومه إلى الإيمان بالرسول ، فاتهموه بأنه مؤمن ، فأهلن إيمانه في ظروف حرجة ، وتعرض الرجل للإيذاء والقتل ، فحظى بالشهادة والجنة ، وتمنى لو أن قومه يعلمون منزلته الآن عند الله . أما القرية الظالمة فقد صاح بها ملك صيحة أهلكتها ، أفلا يعتبر أهل مكة بهذه القرية ، وبالقرن التي هلكت جزاء كفرها ؟ وسيجتمع الجميع أمام الله يوم القيامة ، ويتميز المؤمنون بحسن الثواب ، ويحل بالكافرين سوء العقاب .

٢ - أدلة الإيمان

بعد الحديث في الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب ، والمثل الذي ضربه الله لهم في قصة أصحاب القرية المكذبين ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بصيحة الملاك فإذا هم خامدون ، تحدث الآيات من (٣٠ - ٦٨) عن موقف المكذبين بكل ملة ودين ، وعرضت صور البشرية الضلالة على مدار القرون ، ثم أخذت في استعراض الآيات الكونية ، التي يمرن عليها معرضين خافلين ، وهي مبثوثة في أنفسهم وفيما حولهم .

فالماء الذى يحيى الأرض بأنواع الجنان والنخيل والأعشاب ، والليل والنهار
والشمس والقمر ، والنبات والإنسان ، وكل ما فى الكون قد أبدع بنظام دقيق ،
فلشمس مدارها ، وللقمر مساره ، ولليل وقته ، ولنهار أوانه : لا يتأخر
كوكب عن مواعده ، ولا يختل نظام ، ولا تضطرب حركات الكون :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يس ٤٠

ثم تحدثت الآيات عن عناد المشركين ، واستعجالهم بالعذاب غير

مصدقين :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يس ٤٨

وبمناسبة ذلك يستعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، يرون فيه مصيرهم
الذى به يستعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون .

٣ - وحى لا شعر

يشتمل الدرس الثالث على الآيات من ٦٩ الى آخر السورة ، ويكاد هذا
الفصل يلخص موضوعات السورة كلها ، فينبى فى أوله أن ماجاء به
محمد صلى الله عليه وسلم شعر ، وينبى عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلا ،
ثم يعرض بعض المشاهد والمسامات الدالة على الألوهية المنفردة ، وينبى
عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر ، وهم الذين يقومون
بحماية تلك الآلهة المدعاة ، ويتناول قضية البعث والنشور ، فيذكرهم
بالنشأة الأولى من نطفة ، ليروا أن إحياء العظام وهى رميم كتلك النشأة
ولا غرابة ، ويذكرهم بالشجر الأخضر الذى تكون فيه النار ، وهما
فى الظاهر بعيدان ، ويخلق السموات والأرض وهذا الخلق شاهد
بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر فى الأولى والآخرة ، وفى ختام
السورة نجد برهان القدرة الإلهية والإرادة الربانية ، فالله مالك كل شئ
فى الدنيا والآخرة ، واليه المآب والمرجع قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ فَسُبْحَانَ الَّذِي

بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس ٨٢ و ٨٣



أهداف سورة الصافات

سورة الصافات مكية وآياتها (١٨٢) آية نزلت بعد سورة الأنعام في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، فقد نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة إلى المدينة .
وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم بالصافات والمراد بها الملائكة التي تقف صفوفًا للعبادة ، أو تصف أجنحتها في الهواء أمثالًا للطاعة ، وانتظارًا لوصول أمر الله اليها .

ملصود السورة

قال الفيروزبادي : معظم مقصود السورة هو : الإخبار عن صف الملائكة والمصلين للعبادة ، ودلائل الوحدانية ، ورجم الشياطين ، وذل الظالمين ، وعز المطيعين في الجنان ، وقهر المجرمين في النيران ، ومعجزة نوح وحديث إبراهيم وفداء إسماعيل في جزاء الانقياد ، وبشارة إبراهيم بإسحاق ، والمنة على موسى وهارون بإيتاء الكتاب ، وحكاية الناس في حال الدعوة ، وهلاك قوم لوط ، وحبس يونس في بطن الحوت ، وبيان فساد عقيدة المشركين في إثبات النسبة (١) ، ودرجات الملائكة في مقام العبادة ، وما منح الله الأنبياء من النصر والتأييد ، وتنزيه حضرة الجلال عن الأنداد والأضداد في قوله سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الصافات ١٨٠

(١) أي في اعتقاد نسب بينه سبحانه وبين الجنة والملائكة ، في قولهم الملائكة ينسب الله ، وهو إشارة إلى قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا » والمراد بالجنة الملائكة قار الجن .

سياق السورة

تميزت سورة الصافات بقصر الآيات ، وسرعة الإيقاع ، وكثرة المشاهد والمواقف ، وتنوع الصور والمؤثرات .

وهي تستهدف - كسائر السور المكية - بناء العقيدة في النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله ، ولكنها بصفة خاصة تعالج صورة معينة من صور الشرك ، التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى ، وتقف أمام هذه الصورة طويلا ، وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . تلك هي الصورة التي كانت جاهلية العرب تستسيخها ، وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن ، وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله - سبحانه - والجنه ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله ! هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة ، تكشف عن تفاهتها وسخفها ، ونظرا لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة ، فانها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾

ويتلوها حديث عن الشياطين المردة ، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة ، كي لا يقربوا من الملأ الأعلى ، ولا يتسمعوا لما يدور فيه ، ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة :

وبمناسبة ضلال الكافرين وتكذيبهم ، تعرض السورة سلسلة من قصص الرسل : نوح وإبراهيم وابنه ، وموسى وهارون ، وإلياس ولوط ويونس ، تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل ، ويمكننا أن نقسم سورة الصافات إلى ثلاثة موضوعات رئيسية .

١ - وصف الملائكة ومشاهد الآخرة

يستغرق الموضوع الأول من السورة الآيات من (١ - ٧٠) ويتضمن افتتاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملائكة :
﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾
على وحدانية الله رب المشارق ، مزين السماء بالكواكب ، ثم تجيء مسالة الشياطين ، وتسمعهم للملأ الأعلى ، ورجمهم بالشهب الثاقبة ، يتلوها سؤال لهم :

﴿ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ؟ ﴾

من الملائكة والكواكب والشياطين والشهب ؟ ، للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث ، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستنزثون بوقوعه ، ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب ، وهو مشهد فريد ، حافل بالصورة والحركة ، والمقابلة بينه ومنازل الأبرار ، وآلام الفجار .

قصص الأنبياء

تعرض الآيات من ٧١ - ١٤٨ لبيان أن هؤلاء الضالين لهم نظائر في السابقين ، الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين ، ويستطرد في قصص أولئك المنذرين ، من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ، وكيف كانت عاقبة المنذرين وعاقبة المؤمنين .

ومن الظواهر المؤثرة في هذا القصص تجرد الأنبياء لربهم ، وإخلاصهم له ، فيونس يسبح بحمد ربه ويناجيه في بطن الحوت ، وإبراهيم يطبع الله ويستسلم لأمره ، في قصة الذبح والفداء ، وشاهد من الذابح والذبيح التجرد والامثال لأمر الله ، في أعظم صورة وأروعها وأرفعها .

وقد كانت الإشارة إلى قصص الأنبياء لمحات سريعة في آيات قصيرة ، تحتوي على عبرة القصة ، والتذكير بمضمونها .

٣ - أسطورة تعقبها الحقيقة

تناولت الآيات من ١٤٩ إلى الآية ١٨٢ حيث آخِر السورة ،
الحديث عن الأسطورة الكاذبة ، أسطورة نسبة الجن والملائكة إلى
الله ثم فندت هذه الأسطورة ونزهت الله عنها وبينت أن الملائكة خلق من
خلق الله ملتزم بطاعته .

﴿ وما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ، وَإِنَّا لَنَخْنُ الصَّافُونَ ، وَإِنَّا لَنَخْنُ

المُسَبِّحُونَ ﴾ الصفات ١٦٤ - ١٦٦

وقررت الآيات وعد الله لرسله بالظفر والغلبه :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ،

وَإِنَّا جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ الصفات ١٧١ - ١٧٣ .

وتنتهى السورة بتتزيه الله سبحانه ، والتسليم على رسله ، والاعتراف
بربوبيته ، وهى القضايا التى تناولتها السورة فى الصميم .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ،

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الصفات ١٨٠ - ١٨٢

أهداف سورة ص

سورة ص - سورة مكية نزلت في الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة، فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، وآياتها ٨٨ آية، وسميت سورة ص لابتدائها بهذا الحرف.

مقاصد السورة

قال الفيروز آبادي « معظم مقصود سورة ص : بيان تعجب الكفار من نبوة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ووصف الكافرين لرسول الله بالاختلاق والافتراء ، واختصاص الحق تعالى بملك الأرض والسماء ، وظهور أحوال يوم القضاء ، وعجائب حديث داود وأوريا ، وقصة سليمان : وذكر أيوب في الابتلاء والشفاء وذكر إبراهيم وأولاده من الأنبياء ، وحكاية أحوال ساكني جنة المأوى ، وعجز حال الأشقياء في سقر ، ولظى وواقعة إبليس مع آدم وحواء وتهديد الكفار على تكذيبهم للمجتبي » (١) قال تعالى :

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ص ٨٧ ، ٨٨

قضايا السورة

أثارت سورة ص - عددا من القضايا أهمها قضية التوحيد ، وقضية الوحي ، وقضية الحساب في الآخرة ، وقد عرضت هذه القضايا الثلاث في مطلعها ، الذي يمثل الدهشة والاستغراب من كبار المشركين في مكة ،

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز تأليف محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ تحقيق الأستاذ محمد هل النجار ج ١ ص ٤٠٠ .

حين جاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم إلى التوحيد ، وسأقت
السورة شبهات الكافرين حول قضية الوحي ؛
فقد استكثروا أن يختار الله سبحانه رجلا منهم لينزل عليه الذكر من
بينهم ، وأن هذا الرجل هو محمد بن عبد الله الذي لم تسبق له رئاسة فيهم
ولا إمارة فقالوا :

﴿ أَنْزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ؟ ص ٨ .

وبيئت السورة لهم أن رحمة الله لا يمسكها شيء ، إذا أراد أن يفتحها
على من يشاء ، وأنه ليس للبشر شيء من ملك السموات والأرض ، وإنما
يفتح الله رزقه ورحمته على من يشاء . . وأنه يختار من عباده من يعلم
استحقاقهم للخير ، وينعم عليهم بشئ الإنعامات ، بلا قيد ولا حد
ولا حساب . . وفي هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ، وما أغدق
الله عليهما من النبوة والملك ، ومن تسخير الجبال والطير ، وتسخير الجن
والريح ، فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع ، وجاء مع القصتين
توجيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين :

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكَرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص ١٧

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده
بالضراء ، وصبر أيوب . . مثل في الصبر رفيع ، وتصور السورة حسن
العاقبة للصابرين .

ونلاحظ أن السياق يجري في سورة ص - فيربط بين أربعة موضوعات
رئيسية : هي شبه الكافرين ، وقصص الأنبياء ، والمقابلة بين نعيم المتقين
وعذاب الكافرين ، ثم قصة خلق آدم وسجود الملائكة له وإبلاء إبليس .

١ - شبهات الكافرين

تشمطل الآيات (من ١ - ١٦)

على شبه الكافرين حول بشرية الرسول ، واختصاصه بالوحي ، وإنكار
توحيد الألهة في إله واحد ، والرد على هذه المفتريات ، وبيان جزاء المكذبين ،

من قوم نوح وعاد وفرعون وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة

﴿ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴾ ص ١٤

٢ - قصص الأنبياء

تشتمل الآيات من (١٧ - ٤٨) على قصص وأمثال من حياة الرسل صلوات الله عليهم .

وفي هذا القصص بيان لآثار رحمة الله بالرسل من قبل ، وتذكير بما أغدق الله عليهم من نعمة وفضل ، وبما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام ، وذلك ردا على عجب الكافرين من اختيار الله لمحمد رسولا من بينهم ، وما هو ببدع من الرسل ، وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ، وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ، وفيهم من سخر الله له الريح والشياطين ، كداود وسليمان . . فما وجه العجب أن يختار الله محمدا الصادق ، لينزل عليه الذكر من بين قريش في آخر الزمان . كذلك يصور هذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه فقد كانوا بشرا - كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم بشر - وكان فيهم ضعف البشر ، وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ، إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمههم ، وفي هذا ما يطمئن قلب الرسول إلى رعاية ربه له ، وحمايته له من أذى المشركين ، وفي تلك القصص سلوك ومواساة لما لقيه النبي من تكذيب وإتهام وتعجيب وإفراء ، وفيه دعوة إلى الصبر حتى ينال رضوان الله ، كما ناله السابقون من الأنبياء .

٣ - النعيم والجحيم

تعرض الآيات من (٤٩ - ٦٤) مشهد المؤمنين في الجنة ، وقد فتحت أبوابها ، وجرت أنهارها ، وكثر حورها وولدانها ، وتنوع أزواقها :

﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ ص ٥٤

كما تعرض مشهد الطاغين في النار ، وقد اشتد لهيبها ، وتنوع عذابها ، واختصم الأتباع والرؤساء فيها ، وأخذوا يبغضون عن ضعفاء

المؤمنين بينهم فلا يجلدونهم في النار ، لأن هؤلاء الضعفاء في الجنة والرضوان .

سجود الملائكة لآدم

تشتمل الآيات من ٦٥ إلى آخر السورة ، على تأكيد وحدانية الله ، وشمول قدرته وملكه لما في السموات والأرض .

وتستعرض قصة آدم وسجود الملائكة له ، كدليل على أن هؤلاء الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كما تتضمن القصة لونا من الحسد في نفس الشيطان ، هو الذي أبعده وطرده من رحمة الله ، حينما استكثروا على آدم فضل الله الذي أعطاه ، وفي هذا إيجاء لهم ألا يستكثروا على محمد فضل الرسالة وتبليغ وحى السماء ، كذلك تصور الآيات المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم ، والتي لا يهدأ أوارها ، ولا تضع أوزارها ، والتي يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر هدد منهم في حباته ، لإيرادهم النار معه ، انتقاما من أبيهم آدم ، وقد كان طرد إبليس من الجنة بسبب امتناعه من السجود له ، فالمعركة بين إبليس وذرية آدم معروفة الأهداف ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم .

وتحتم السورة بتوكيد قضية الوحي ، وإخلاص الرسول في تبليغ الرسالة ، لا يبتغي أجرا ولا يتكلف قولا ، وإنما يبلغ القرآن ، وسيكون لهذا القرآن أبلغ الأثر في حياة البشرية .

أهداف سورة الزمر

سورة الزمر مكية نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ،
بعد الإسراء وقبيل الهجرة وآياتها ٧٥ آية .

نزلت بعد سورة سبأ ، وقد سميت سورة الزمر بذلك الاسم لقوله تعالى
في آخرها :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۗ ﴾ الزمر ٧١

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۗ ﴾ الزمر ٧٣ .

وللسورة امان : سورة الزمر ، وسورة الغفر ، لقوله تعالى :

﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ ۗ ﴾ الزمر ٢٠ .

أدلة التوحيد

سورة الزمر تهز القلب هزا ، وتسكب فيه مؤثرات الإيمان بالله ،
يستعرض أمامه أدلة القدرة الإلهية ، والجزاء العادل في الدنيا والآخرة ،
وتفتح باب الرجاء الآمل في رحمة الله ورضوانه ، ومن آياتها الشهيرة
قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۗ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۗ ﴾ الزمر ٥٣ .

ومنذ افتتاح السورة إلى نهايتها وهي تؤكد على قضية التوحيد الخالص

في مطلع السورة :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۗ ﴾ الزمر ٣ .

وفي خلال السورة نجد لمسات متوالية للقلوب والأفئدة ، تعرض عليها
أدلة القدرة ومشاهد الكون ، ونخاق الليل والنهار ، وإنزال المطر وإنبات
النبات ، وبلد الخليقة ، ومراحل نخاق الجنين ، وطبيعة النفس في اللجوء
إلى الله في الضراء ، والإعراض عنه في السراء ، مع أن الموت قائم على
رموس العباد .

ظل الآخرة

مشاهد الآخرة تظال السورة وتسيطر على ختامها ، حيث نجد الملائكة
حافين من حول العرش ، ونرى المؤمنين يساقون إلى الجنة ، أفواجا
وجامعات في تكريم إلهي ، وسلام ونعيم في الخاود ، ونرى الكفار يساقون
إلى جهنم زمرا في مهانة وإذلال .

« وظل الآخرة في السورة يتناسق مع جوها ، وأهداف اللامسات التي
تأخذ القلب البشري بها ، فهذه اللامسات أقرب إلى جو الخشية والخوف والفرع
والارتعاش ، ومن ثم نجد الحالات التي ترسمها للقلب البشري هي حالات
ارتعاش وانتفاضة وخشية ، نجد دينا في صورة القانت آناء الليل ساجدا
ودائما يجذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وفي صورة النذير يخشون ربهم ،
حيث تقشع جلودهم لهذا القرآن ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ،
كما نجد في التوجيه إلى التقوى ، والخوف من العذاب والتخفيف منه ،
ثم نجد في مشاهد القيامة ، وما فيها من فرع ومن خشية ، وما فيها كذلك
من إفاة وخشوع » (١) .

فقرات السورة

في الآيات الأولى من السورة بحث على إخلاص العبادة لله ثم نهي عن
التخاذ الأتلهاد والأولياء ، ثم نجد القرآن يلمس القلوب فيبين قدرة الله في
خلق الناس من نفس واحدة ، وتزويجها من جنسها ، وخلق الأنعام
أزواجا كذلك ، ونخاقهم في بطون أمهاتهم في ظلمات ثلاث ، ومنحهم

(١) في خلال القرآن ٨/٢٤

خصائص جنسهم البشرى أول مرة ، ثم منحهم خصائص البقاء والارتقاء . وقد استغرقت هذه الفقرة الآيات من (١ - ٧) .

٢ - أنواع الانسان وحالته

في الفقرة الثمانية نجد أن الآيات من (٨ - ٢٠)

قد لمست القلوب لمسة أخرى ، وهي تعرض على الناس صورتهم في الضراء وصورتهم في البأساء ، وتريهم تقلبهم وضعفهم وقاة ثباتهم على نهج إلا حين يتصلون بربهم ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة ويتفعلون بما ودبهم الله من خصائص الإنسان .

ثم وجهت الآيات النبي صلى الله عليه وسلم إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ، وإعلان خوفه من معصية الله وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم ، وبيان عاقبة هذا الطريق وذلك يوم يكون الحساب .

٣ - مظاهر القدرة

في الآيات من (٢١ - ٣٥)

لفتت إلى حياة النبات في الأرض عقب إنزال الماء من السماء ، ثم نهاية النبات في فترة وجيزة ، وكذلك شأن الدنيا ، ثم تشير الآيات إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور مع تصوير لعاقبة المستجيبين لذكر الله ، والقاسية قلوبهم من ذكر الله .

ثم تضرب الآيات مثالا لمن يعبد إلهًا واحدًا ، ومن يعبد آلهة متعددة ، وهما لا يستويان مثلاً ، ولا يتفان حالاً ، كما لا يستوى العبد الذي يملكه سادة متنازعون ، والعبد الذي يعبد لسيد واحد لا يتنازعه أحد فيه .

ثم تضع حقيقة واقعة ، وهي تعرض الناس جميعاً الموت والقضاء ، الرسول والمرسل إليهم ، وسينوع الجزاء يوم القيامة ، فيجازى الكافرون في جهنم ، ويجازى الصادقون المصدقون جزاء الحسين .

٤ - نقاش متنوع

في الآيات من (٣٦ - ٦١) .

نلمس قدرة القرآن الفائقة على إقامة الحجة واقناع الإنسان ، وأخذ السبيل على النفس البشرية حتى لا تجد بدا من الإذعان والانقياد ، وقد تناولت هذه الفقرة التوحيد من جوانب متعددة في لمسات متنوعة ، تبدأ بتصوير حقيقة القاب المؤمن ، وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتماده بالقوة والوحيدة ، واعتماده عليها هون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة ، ومن ثم ينفذ يده من هذه القوى الوهمية ، ويكل أمره وأمر المجادلين لله إلى يوم القيامة ، ويمضي في طريقه ثابتاً وثقاً مستقيماً بالمصير .

يتلو هذا بيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأنه ليس وكيلاً على العباد في دعواتهم وضلالهم ، إنما الله هو المسيطر عليهم ، الأخذ بناصيتهم في كل حالة من حالاتهم ، وليس لهم من دونه شفيع فإن الشفاعة لله جميعاً وإليه ملك السموات والأرض وإليه المرجع والمصير .

ثم تتعرض الآيات لوصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد ، وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك ، وتعقب على هذا بدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة وترك أمور المشركين لله ، وتصورهم يوم القيامة يودون لو يفتدون بملء الأرض ومثله معه ، وقد تكشف لهم من الله ما يذهل ويخيف !

وتعرض الآيات حال الإنسان في حال الهلع والجزع ، ثم في حال النعمة والرخاء فهو إذا أصابه الضر دعا الله وحده ، فإذا وهبه الله النعم والرخاء ادعى دعاوى عريضة ، وقال : إنما أوتيته على علم عندي ، هذه الكلمة التي قلها من سبق من المتبطلين والمتكبرين فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وهو قادر على أن يبطش بكل جبار عنيد ، وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله تجري وفق حكمته وتقديره ، وهو وحده الباسط القابض بيده الخلق والأمر .

ثم فتح الله أبواب رحمته على مصاريحها بالتوبة ، ودعا العصاة إلى
الإنيابة والاستقامة ، واتباع منهج الحق والعدل من قبل أن يأتي يوم الحساب
فتندم كل نفس ظالمة ، وتتمنى أن تعود إلى الدنيا لتستدرك ما فاتها ، وفي
هذا اليوم تظهر الكآبة في وجوه الكافرين ، ويظهر الفوز والسرور في
وجوه المؤمنين .

٥ - الله مستحق للعبادة دون سواه

تعرض الآيات الأخيرة في السورة من (٦٢ - ٧٥)

ألوان قدرة الله وجلاله وتفرد بالملك والتصرف في كل شيء ، وإذا
تبين لنا آثار هذه القدرة ظهرت أمامنا دعوة المشركين للنبي إلى مشاركتهم
عبادة آلهتهم في مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ، مستغربة مستنكرة ، فكيف
يعبد معه سبحانه غيره ؟ وله وحده مقاليد السموات والأرض .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر .

﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

فهى في تصرفه وملكه كما يتصرف الإنسان فيما هو داخل قبضته .

﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾

وستطوى هذه السموات وتبدل بقدرة الله ، وبمناسبة تصوير هذه
الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهداً فريداً من مشاهد القيامة ،
ينتهى بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الزمر ٧٥

أهداف سورة غافر

سورة غافر سورة مكية ، نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة . وآياتها ٨٥ آية نزلت بعد سورة الزمر .

أربعة أسماء : تسمى هذه السورة سورة غافر لقوله تعالى في أولها .

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ غافر ٣
وتسمى سورة المؤمن لاشتغالها على حديث مؤمن آل فرعون - واسمه خرييل - في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ غافر ٢٨

وسورة الطول ، لقوله تعالى :

﴿ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ غافر ٣

وتسمى حم الأولى لأنها أول سورة في الحواميم (١) .

روح السورة

الروح الساري في سورة غافر هو الصراع الدائر بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والدعوة والتكذيب ، وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذي يأخذ المتجبرين ، وفي ثنايا أهداف السورة الأصلية نجد أنها تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ، ونصر الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة الله لدعائهم ، وما ينتظرهم في الآخرة من نعم .



(١) أنظر بصائر نفوس التمييز ١/٣٠٩

وجو السورة كله - من ثم - كأنه جو معركة ، وهي المعركة بين الإيمان والطغيان ، وبين الهدى والضلال ، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض ، وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل ، وتنسم خلال هذا الجو سمات الرحمة والرضوان حين يحيى ذكر المؤمنين .

* * *

ويتمثل روح السورة في عرض مصارع الغابرين ، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة - وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر - وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة ، ومنذ بداية السورة إلى نهايتها نجد آيات تلمس القاب وتهز الوجدان وتعصف بكيان المكذبين وقد ترق آيات السورة فتنحول إلى لمسات وإيقاعات تمس القلب برفق ، وهي تعرض صفات الله غافر الذنب وقابل التوب ، ثم تصف حملة العرش ، وهم يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين ، ثم تعرض الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية .

موضوعات السورة

يمكننا أن نقسم سورة غافر بحسب موضوعاتها إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : صفات الله

تبدأ الآيات من (٤ - ٢٠) بعرض افتتاحية السورة وبيان أن الكتاب منزل من عند الله .

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾

للمؤمنين التائبين ، وهو .

﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾

للعصاة المذنبين .

ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله ، وأنه لا يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا . فيشنون عن سائر الوجود بهذا الجدل ، ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهما تقلبوا في

الخير والمتاع ، فلإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم
وقد أخذهم الله أخذاً ، بعقاب يستحق العجب والإعجاب ومع الأخذ في
الدنيا ، فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك . . . ذلك بينما حملة العرش
ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم ، ويتوجهون إليه بالعبادة ، ويستغفرون
للذين آمنوا من أهل الأرض ، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح . . .

وفي الوقت ذاته تعرض مشهد الكافرين وهم ينادون :

﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ غافر ١٠

وهم في موقف المذلة والانكسار يقرون بذنبهم ، ويعترفون بربهم ،
فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار ، ومن هذا الموقف بين يدي الله في الآخرة
يعود السياق ليعرض أمام الناس مظاهر أنعم الله عليهم ، ليأخذ بأيديهم إلى
طريق الإيمان بالله .

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ رَفِيعُ
الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ غافر ١٤ ، ١٥ .

ويعرض السياق مشهد ذلك اليوم في صورة حية مؤثرة ، فقد برز
الجميع أمام الله ، العالم بالظواهر والبواطن ، وفي هذا المشهد تبلغ الروح
الحلقوم ، وتذهب صولة الظالمين والطغاة ، فلا يجدون حمية ولا شفيعاً يطاع
في شفاعته ، لقد أصبح الملك والأمر والقضاء ، لله الواحد القهار .

الفصل الثاني : رجل مؤمن يجاهد بالكلمة

يستغرق الفصل الثاني الآيات من (٢١ - ٥٥)

ويبدأ بلفت أنظار المشركين إلى ما أصاب المكذبين قبلهم ، ثم يعرض
جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون ،
يقتل موثف الطغاة من دعوة الحق ، ويعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض
في قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا في هذه السورة وهي حلقة ظهور

رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، يدافع عن موسى ، ويصدع بكامة الحق والإيمان في تاطف وحذر في أول الأمر ، ثم في صراحة ووضوح في النهاية ، ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينة قوية ناصحة ، ويحذرهم يوم القيامة ، ويمثل لهم بعض مشاهدته في أساليب مؤثر ، ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف عليه السلام ورسالته ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة فإذا هم هناك ، وإذا هم يتحاجون في النار ، وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا ، وحوار لهم جميعاً مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص ، ولات حين خلاص ، وفي ظل هذا المشهد يوضح الحق سبحانه أن العقوبة للمرسلين في الدنيا ويوم القيامة ، فقد نصر الله موسى رغم جبروت فرعون ، ثم يدعو الرسول الأمين إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق ، والتوجه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار .

الفصل الثالث : الترغيب والترهيب

يستغرق الفصل الثالث من الآية (٥٦ - ٧٧) ويبدأ بتقرير أن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعونهم إلى هذا كبر في نفوسهم عن الحق ، ودم أصغر وأضال من هذا الكبر ، ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذي خلقه الله ، وهو أكبر من الناس جميعاً ، لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خالق الله ، وتفتح بصيرتهم فلا يكونون عمياً :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ غافر ٥٨ .

ويذكرهم بمجيء الساعة ، ثم يفتح الباب أمامهم إلى دعاء الله والاستجابة لأمره ، فأما الذين يستكبرون فسدخلون جهنم أذلاء صاغرين ويعرض في هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التي يحسون عليها غافلين ، يعرض عليهم الليل وقد جمعه الله سكناً ، والنهار مبصراً ، والأرض قراراً ، والسماء بناء ، ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم ، ويوجههم إلى

دعوة الله مخلصين له الدين ، ويلقن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من عبادتهم ، وأن يعلن إسلامه لرب العالمين ثم يلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة .. وهو الذى يحيى ويميت ، ثم يعود فيعجب رسوله - صلى الله عليه وسلم - من أمرالذين يجادلون فى الله وينذرهم عذاب يوم القيامة فى مشهد عنيف ، تعلق فيه الأغلال فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ويحرقون فى النار جزاء كفرهم وشركهم بالله وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر والثقة بأن وعد الله حق ، سواء أبقاه حتى يشهد مايعدهم ، أو توفاه قبل أن يراه فسيتم الوعد هناك .

الفصل الرابع : نهاية الظالمين

يشتمل الفصل الرابع على الآيات الأخيرة فى السورة من (٧٨ - ٧٥) ويذكر أن الله أرسل رسلا وأنبياء كثيرين لهداية الناس ، منهم من ذكر فى القرآن ومنهم من لم يذكر :

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾

وأن يقدم معجزة لقومه :

﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

على أن فى الكون آيات قائمة وبين أيديهم آيات قريبة ، ولكنهم يغفلون عن تدبيرها .. هذه الأنعام المسخرة لهم من سخرها ؟ وهذه الفلك التى تحملهم أليست آية يرونها ! ومصارع الغابرين ألا تثير فى قلوبهم العظة والتقوى وتختتم السورة بإيقاع قوى على مصرع من مصارع المكابرين وهم يرون بأس الله فيؤمنون ، حيث لا ينفعهم الإيمان :

﴿ قَلَّمَ بِكَ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ

خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ غافر ٨٥

أهداف سورة فصلت

سورة فصلت مكية نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة وآياتها (٥٤) آية نزلت بعد سورة غافر .

أماؤها : تسمى سورة فصلت لقوله تعالى في أوائلها :

﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فصلت ٣

وتسمى سورة حم السجدة لاشتمالها على السجدة ، وسورة المصايح لقوله تعالى :

﴿ وَزَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَائِحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

فصلت ١٢ .

روح السورة

الروح السارى بين آيات سورة فصلت هو عرض أهداف الدعوة الحديدية وأركانها وحقائقها الأساسية ، وهذه الحقائق هي : الإيمان بالله وحده ، وبالحياة الآخرة ، وبالوحي والرسالة ، ويضاف إلى ذلك طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية .

وكل ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها ، وعرض لآيات الله في الأنفس والآفاق ، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين في الأجيال السابقة ، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة ، وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ، ولا يستسلمون لله وحده ، بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة ... كلهم يسجلون لله ويخضعون لأمره ويسلمون ويستسلمون .

موضوعا السورة

تتقسم سورة فصات إلى موضوعين اثنين :

الموضوع الأول

يشمل نصف السورة الأول من الآية (١ - ٣٦)

ويبدأ بالآيات التي تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته ، وموقف
المشركين منه ، وتليها قصة خلق السماء والأرض ، فقصة عاد وثمود ،
فمشهدهم في الآخرة تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود ، ومن هنا يرتد
إلى الحديث عنهم في الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال ، فيذكر أن الله قبض
لهم قرناء سوء من الجن والإنس ، يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ومن
آثار هذا قولهم :

(لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) فصلت ٢٦

ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعواهم من قرناء
الجن والإنس ! وفي الجهة الأخرى نجد الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ،
وهؤلاء تنزل عليهم الملائكة - لاقراءء السوء - يطمثونهم ويشرونهم
ويعلنون ولايتهم لهم في الدنيا والآخرة ، ويلى هذا ماجاء عن الدعوة
والداعية ، وبذلك ينتهي الموضوع الأول .

الموضوع الثاني

تتحدث الآيات من (٣٧ - ٥٤) عن آيات الله من الليل والنهار ،
والشمس والقمر ، والملائكة العابدة ، والأرض الخاشعة ، والحياة التي
تهتز فيها وتربو بعد الموات ، ويلى هذا الحديث عن الذين يلحدون في آيات
الله وفي كتابه ، وهنا يجيء ذلك الحديث عن هذا الكتاب ، ويشار إلى كتاب
مومن واختلاف قومه فيه ، وأنه لو لا سبق حكمه بآيها لم لعجل بفضله
بينهم .

وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها ، وعلمه بما تكنه
الأكمام من ثمرات ، وماتكنه الأرحام من أنسال ، ويعرض مشهد الكافرين
وهم يسألون عن الشركاء ، يلي هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من
أستارها ، ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها ، فيكذب
ويكفر ، غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتنجم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته في الآفاق وفي أنفسهم .
وقد صدق الله وعده فكشف لهم عن آياته في الآفاق خلال الأربعة
عشر قرنا التي تلت هذا الوعد .

فعرفوا كثيرا عن مادة هذا الكون ، وعرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو
الذرة ، وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع و عرفوا أن الكون كله من إشعاع .
و عرفوا الكثير عن كروية الأرض وحركتها حول نفسها وحول الشمس ،
و عرفوا الكثير عن المحيطات والأنهار والخبوء في جوف الأرض من
الأرزاق .

وفي آفاق النفس امتدى الإنسان إلى معرفة الكثير عن خصائص
الجسم البشري وأسمراره ، ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثله ، وأسرار
عمله وحركته ثم عن تطور المعرفة حول ذكاء الإنسان ونفسية الأفراد
والجماعات وقياس السلوك ، وما يزال الإنسان في الطريق إلى اكتشاف
نفسه ، واكتشاف الكون من حوله ، حتى يحق وعد الله بأن كلماته
حق ، وآياته صادق ، وكتابه منزل ، وهو على كل شيء شهيد .. قال تعالى :
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ
الْحَقَّ ، أَوْلَمَ يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ فصلت ٥٣ ، ٥٤ .

أهداف سورة الشورى

- سورة الشورى مكية نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة .
- وآياتها ٥٣ آية نزلت بعد سورة فصلت .
- ولها اسمان : عسق لافتتاحها بها ، وسورة الشورى لقوله سبحانه : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ الشورى ٣٨ .

روح السورة

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السورة المكية ، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، حتى ليصح أن يقال إن هذه الحقيقة هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها . وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوجدانية ، وتعرضها من جوانب متعددة ، كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ، ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدتها في مواضع متعددة منها ، وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها ، كما تلم بقضية الرزق ، بسطه وقبضه ، وصفة الإنسان في السراء والضراء . ولكن حقيقة الوحي والرسالة وما يتصل بها ، تظل - مع ذلك هي الحقيقة البارزة في محيط السورة ، والتي تطبعها وتظللها ، وكان سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة ، « فهي تعرض من جوانب متعددة ، يفرق بعضها عن بعض بوضع آيات تتحدث عن وجدانية

الخالق ، أو وحدانية الرازق، أو وحدانية المتصرف في القلوب ، أو وحدانية المتصرف في المصير.. ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحى - سبحانه - ووحدانية الوحي ، ووحدانية العقيدة ، ووحدانية المنهج والطريق . وأخيراً وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .
ومن ثم يرتسم في النفس خط الوحدانية بارزاً واضحاً ، بشتى معانيه وشتى إيجاءاته من وراء موضوعات السورة جميعاً » . (١)

موضوع السورة

يمكن أن نقسم سورة الشورى إلى فصلين رئيسيين .
يتناول الفصل الأول وحدة الأهداف الرئيسية للرسالات السماوية ، ويتناول الفصل الثاني بعض صفات المؤمنين ودلائل الإيمان .

الفصل الأول : وحدة أهداف الرسالات

يتناول النصف الأول من السورة الآيات من (١ - ٢٤) ، ويبدأ عن الوحي ، ثم يعالج قصة الوحي منذ النبوات الأولى ، ليقرر وحدة الدين ووحدانية المنهج ، ووحدانية الطريق ، وليعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي العصبة المؤمنة بهذ الرسالة .



وتشير السورة إلى هذه الوحدة في مطالعها :

﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

الشورى ٣ .

لتقرر أن الله هو الموحى بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هي امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتى الإشارة الثانية بعد قليل :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

الشورى ٧ .

(١) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢٤ / ٧

لتقرر مركز القيادة الجديدة ، فقد اختار الله بلاد العرب لتكون مقر
الرسالة الأخيرة التي جاءت للبشرية جميعاً ، والتي تنضح عالميتها منذ أيامها
الأولى .

كانت الأرض المعمورة — عند مولد الرسالة الأخيرة — تكاد تنقسمها
إمبراطوريات أربعة هي :

الإمبراطورية الرومانية ، والفارسية ، والهندية ، والصينية .

وفي هذا الوقت جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها، مما انتهت إليه من انحلال
وفساد وإضطهاد ، وجاهلية عمياء في كل مكان من المعمورة .

جاء ليهيمن على حياة البشرية ، ويقودها في الطريق إلى الله على هدى
ونور .

ولم يكن هنالك بد من أن يبدأ الإسلام رحلته من أرض حرة ، لاساطان
فيها لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات ، وكانت الجزيرة العربية وأم
القرى وما حولها بالذات ، هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام
يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية .

لم تكن في بلاد العرب حكومات منظمة ، ولا ديانة ثابتة واضحة المعالم ،
وكان خلخلة النظام السياسي للجزيرة ، إلى جانب خلخلة النظام الديني ، أفضل
ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحررا من كل سلطان عليه في نشأته .

وهكذا جاء القرآن عربيا لينذر أم القرى ومن حولها ، فلما خرجت
الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ،
وقدمت الرسالة للبشرية جميعها ، وكان الذين حملوها هم أصالح خلق الله
حملها ، وقد خرجوا بها من أصالح مكان في الأرض لميلادها ، وهكذا
تباو سلسلة طوية من الموافقات المختارة لهذه الرسالة :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ . الأنعام ١٢٤

وفي آية مشهورة من سورة الشورى ، تطالعنا وحدة الرسالات جميعها ،
ووحدة الرسل ، ووحدة الدين ، ووحدة الهدف للجميع ، وهو توحيد

الله وتدعيم القيم والأخلاق ، ومحاربة الرذائل والانحراف . قال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ الشورى ١٣

وتقرر الآيات بعد ذلك أن التفرق قد وقع مخالفا لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم ، وقع بغيا وحسداً :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ الشورى ١٤
وتصف أتباع الأديان وحملة الكتب السماوية بأنهم في حيرة وشك لاضطراب أحوال الديانات ، وخروجها عن الهدف الذي جاءت له :

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾
وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتباب ، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم . . . ومن ثم يعلن القرآن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها - صلى الله عليه وسلم - لهذه القيادة :
﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَأُحْجِجَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ الشورى ١٥

الفصل الثاني : صفات الجماعة المسلمة

يشتمل النصف الثاني من السورة على الآيات من (٢٥ - ٥٣) .
ويتحدث عن صفات الجماعة المسلمة ، التي انتدبها الله لحمل هذه الرسالة ، ويبدأ هذا الفصل باستعراض آيات الله في بسط الرزق وقبضه ، وفي تنزيل الغيث برحمته ، وفي خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ، وفي الفلك الجوارى في البحر كالأعلام ، ويستطرد من هذه

الآيات إلى صفة المؤمنين التي تميز جماعهم ، ومع أن سورة الشورى مكية ،
نزلت قبل قيام الدولة الإسلامية في المدينة ، إلا أنها تذكر أن الشورى من
صفات المؤمنين فتقول :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ الشورى ٣٨

كما يوحى بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن يكون
نظاما سياسيا للدولة ، فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم على أمرها
كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها ممثلة للجماعة .

والتأمل في صفات المؤمنين يوحى بأن الإسلام دين القيم ، دين يتم
بالجوهر لا بالعرض ، ويتكوّن النفس البشرية لا بالقيم الزائلة :

فما قيم الجماعة المؤمنة ؟

لأنها الإيمان . والتوكل ، واجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والمغفرة
عند الغضب ، والاستجابة لله ، وإقامة الصلاة ، والشورى الشاملة ،
والإنفاق مما رزق الله ، والانتصار من البغي . والعفو والإصلاح والصبر .
وبهذه القيم تحول العرب من أشقات مختلفين إلى أمة متماسكة ، متراحمة
مؤمنة بالله مستقيمة على هدى الله وتعاليمه ، فوطأ الله لهم أكناف الأرض ،
وصاروا خير أمة أخرجت للناس .

وبعد تقرير صفة المؤمنين وما ينتظرهم من عون وإنعام ، تعرض الآيات
في الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران
في يوم القيامة :

﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ، وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ
مِنَ اللَّذِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ الشورى ٤٤ ، ٤٥ .

وفي ظل هذا المشهد نجد القرآن يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل
هذا الموقف قبل فوات الأوان :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾

الشورى ٤٧

ويعضى سياق السورة حتى ختامها ، يدور حول محور الوحي والرسالة ،
وأثرهما في صفات المؤمنين ، مع بعض الاستطراد إلى وصف الكافرين .
وبيان صفات الله الخالق الوهاب ، القابض الباسط ، قال تعالى :

﴿ لِلّٰهِ مُدْكِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَخْلُقْ مَا يَشَآءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَآءُ
اِنَاثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَآءُ الذُّكُوْرَ ، اَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَاِنَاثًا وَيَجْعَلُ
مَنْ يَشَآءُ عَقِيْمًا اِنَّهٗ عَلِيْمٌ قَدِيْرٌ ﴾ الشورى ٥٩ ، ٥٠

ويعود السياق في نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته ،
وهناك ارتباط ظاهر بين الحديث عن الوحي في القسم الأول من السورة ،
وبين الحديث عن صفات المؤمنين ، ودلائل الإيمان في القسم الثاني منها ، فإن
الهداية والإيمان من آثار الوحي وبركات الرسالة ، أى أن القسم الثاني وهو
السلوك مترتب عن القسم الأول وهو العقيدة والوحي .

أهداف سورة الزخرف

سورة الزخرف مكية نزلت بعد سورة الشورى ، وقد نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة بعد الإبراء وقبيل الهجرة ، وقد سميت بسورة الزخرف لقوله تعالى فيها :

﴿ وَزَخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف ٣٥ .

افكار السورة

تعرض هذه السورة جانبا من مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقه من مصاعب وعقبات ، ومن جدال واعتراضات ، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس ، وكيف يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلة الزائفة ، التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائما في النفوس في كل زمان ومكان ، وقال الفيروزبادي : معظم مقصود سورة الشورى هو : « بيان إثبات القرآن في اللوح المحفوظ ، وإثبات الحجج والبرهان على وجود الصانع ، والرد على عباد الأصنام الذين قالوا الملائكة بنات الله ، والمثة على الخليل إبراهيم بإبقاء كلمة التوحيد في عقبه ، وبيان قسمة الأرزاق ، والإنذار عن حسرة الكفار وتلذذاتهم يوم القيامة ، ومناظرة فرعون وموسى ، ومجادلة عبد الله بن الزبيرى للمؤمنين بحديث عيسى ، وإدعاؤه أن الملائكة أحق بالعبادة من عيسى ، ثم بيان شرف الموحدين في القيامة ، وعجز الكفار

في جهنم ، وإثبات ألوهية الحق سبحانه في السماء والأرض ، وأمر الرسول بالإعراض عن مكافأة الكفار (١) في قوله :

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف ٨٩ .

فصول السورة

إذا تأملنا سورة الزخرف وجدنا أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ - شبهات الكافرين

يشمل الفصل الأول الآيات من (١ - ٢٥) . ويبدأ بالتنويه بشأن القرآن والوحي ، وبيان أن من سنة الله إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم ، ولكن البشرية قابلت الرسل بالاستهزاء والسخرية ، فأهلك الله المكذبين .

والعجيب أن كفار مكة كانوا يعترفون بوجود الله ، ثم لا يرتبون على هذا الاعتراف نتائجها الطبيعية ، من توحيد الله وإخلاص التوجه إليه ، فكانوا يجعلون له شركاء يخصصونهم ببعض ما خلق من الأنعام .

وفي هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ، ورد التنميس إلى الفطرة ، وإلى الحقائق الأولى ، فالأنعام من خلق الله ، وهي طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السموات والأرض جميعاً ، وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ، لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم في الأنعام ما لم يأمر به الله ، بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ، ثم هم ينحرفون عن هذه الحقيقة ، ويتبعون خرافات وأساطير :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ... ﴾

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٢١ ، مع تعديل يسير .

وكانت الوثنية الجاهلية تقول ، إن الملائكة بنات الله ، ومع أنهم يكرهون مولد البنات لهم فانهم كانوا يختارون لله البنات ويعبدونهن من دونه ، ويقولون إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم !! وكانت مجرد أسطورة ناشئة عن انحراف العقيدة :

وفي هذه السورة يناقشهم بمنطقهم هم ، ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح حول هذه الأسطورة التي لاتستند إلى شيء على الإطلاق :

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتِ كَتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .. ﴾ الزخرف ١٥-١٩

ثم يكشف القرآن عن سندهم الوحيد في اعتقاد هذه الأسطورة ، وهو المحاكاة والتقليد ، وهي صورة زرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق بدون تفكير :

ثم يبين القرآن أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم مكرورة بدون تدبير لما يلتي إليهم ولو كان أهدي وأجلى ، ومن ثم لا يكون عاقبتهم إلا التدمير والتفكيك ، انتقاماً منهم وعقاباً لهم :

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ، قَالَ أُولَئِكَ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ، فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴾ الزخرف ٢٣ - ٢٥ .

٢ - مناقشة ومطاجة

تشتمل الآيات من (٢٦ - ٥٦) على القسم الثاني من السورة ، وهو استمرار لمناقشة قريش في دعاويها فقد كانت قريش تقول : إنها من ذرية إبراهيم - وهذا حق - وأنها على ملة إبراهيم - وهذا إدعاء باطل - فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ومن أجلها هجر أباه وقومه بعد أن تعرض للقتل والتحريق ، وعلى التوحيد قامت شريعة إبراهيم ، ثم أوصى بها ذريته وعقبه ، فلم يكن للشرك فيها أى خيط رفيع .

وفي هذا القسم من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التي يدعون . ثم يحكى اعتراضهم على رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - وقولهم ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴾ الزخرف ٣١ ، ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوى عليه من خطأ في تفسير القيم الأصيلة التي أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التي تراعى لهم ، وتصدهم عن الحق والهدى . وعقب تقرير الحقيقة في هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله ، بعد أن يطلعهم على علة دناء العمى ، وهو من وسوسة الشيطان . .

ويلتفت في نهاية هذا المرس إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسليه ويواسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادى العمى أو مسمع الصم وسيلقون جزاءهم ، سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم ، ويوجهه إلى الاستمسك بما أوحى إليه فانه الحق ، الذى جاء به الرسل أجمعون ، فكلمهم جاءوا بكلمة التوحيد ، ثم يعرض من قصة موسى - عليه السلام - حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم ، وكأنما هي نسخة مكررة تحوى ذات الاعتراضات التي يعترضونها ، وتحكى اعتزاز فرعون وملته بنات القيم ، التي يعتز بها المشركون : المال ، الملك ، الجاه ، السلطان ، مظاهر البأسخ ، وقد بين القرآن فيما سبق أنها لا تزول عند الله جنتاح بعوضه ، ولو

شاء الله لأعطي هذه الأموال للكافر في الدنيا لهُوانها على الله من جهة ،
ولأن هنا الكافر لاحظ له في نعيم الآخرة من جهة أخرى ، ولكن الله
لم يفعل ذلك خشية أن يفتن الناس ، وهو العليم بضعفهم ، ولولا خوف
الفتنة لجعل للكافر بيوتا سقفها من فضة ، وسلالمتها من ذهب ، بيوتا ذات
أبواب كثيرة ، وقصورا فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة . : رمزا
لهُوان هذه الفضة والذهب ، والزخرف والمتاع ، بحيث تبدل هكذا رخيصة
لمن يكفر بالرحمن .

وهذا المتاع الزائل لا يتجاوز حدود الدنيا ، ولكن الله يدخر نعيم
الآخرة للمتقين

٣ - من أساطير المشركين

تشمل الآيات من (٥٧-٨٩) على الدرس الأخير من سورة الزخرف
وفيها يستطرد السياق إلى حكاية أساطير المشركين حول عبادة الملائكة ،
ويحكى حادثا من حوادث الجدل الذي كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن
عقائدهم الواهية ، لا بقصد الوصول إلى الحق ، ولكن مرأ ومحالا .

فلما قيل : إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم ، وكان القصد
هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة ، ثم عبدوها بذاتها ، وقيل لهم
إن كل عابد وماتعبد من دون الله في النار . . لما قيل لهم هذا ضرب
بعضهم المثل بعيسى بن مريم - وقد عبده المنحرفون من قومه - أهو في
النار ؟ وكان ذلك مجرد جدل ، ومجرد مرأ .

ثم قالوا : إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر ، فنحن
أهلئ منهم إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ، وكان هذا باطلا يقوم على
باطل .

وجهه المناسبة يذكر السياق طرفا من قصة عيسى بن مريم ، يكشف
حقيقته وحقيقة دعوته ، واختلاف قومه من قبله ومن بعده .

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة ، وهنا يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين ، و صفحة من العذاب الأليم للمجرمين . ثم بين إحاطة الله بجميع ما يصدر منهم ، وتسجيل ذلك عليهم .

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُبُونَ ﴾ الزخرف ٨٠ .

ثم تلتطف القرآن في تنزيه الله عما يصفون ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أنه لو كان للرحمن ولد لكان النبي أول العابدين له ، ولكن الله منزّه عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه له الملكية المطلقة للسماء والأرض والدينيا والآخرة .

ثم يواجههم القرآن بمنطق فطرتهم ، فهم يؤمنون بالله فكيف يصرفون عن الحق الذي تشهد به فطرتهم ، ويحيدون عن مقتضاه :

﴿ وَكَأَيِّن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤْفَكُونَ ﴾ الزخرف ٨٧

وفي ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - لربه ، يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم :

﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الزخرف ٨٨

ويجيب عليه في رعاية ، فيدعوه إلى الصفح والإعراض ، فيسألون جزاءهم المحتوم :

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف ٨٩ .

أهداف سورة الدخان

سورة الدخان مكية نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء . وقبيل الهجرة ، وآياتها ٥٩ آية ، نزلت بعد سورة الزخرف ، وقد سميت سورة الدخان لقوله تعالى فيها :

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ الدخان ١٠

افكار السورة

قال الفيروز آبادي : معظم مقصود سورة الدخان هو : نزول القرآن في ليلة القدر ، وآيات التوحيد ، والشكاية من الكفار ، وحديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون ، والرد على منكرى البعث ، وذل الكفار في العقوبة ، وعز المؤمنين في الجنة ، والمنة على الرسول بتيسير القرآن على لسانه في قوله :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الدخان ٥٨

فضل السورة

سورة الدخان سورة يكثر المسلمون قراءتها ، خصوصا ليلة النصف من شعبان ، وليلة القدر في رمضان ، وليلة الجمعة ، وهي تبدأ ببيان أن القرآن أنزل من السماء في ليلة مباركة ، يحمل الرحمة والهدى من رب العالمين ، ثم تنار المشركين بالعذاب وتذكر طرفا من قصة موسى مع فرعون ، يعقبه مشاهد القيامة ، وفيها نعيم المتقين ، وعقاب المشركين .
ومن السنة قراءة سورة الدخان ليلة الجمعة لتثبيت الإيمان وتقوية اليقين

بقدره الله رب العالمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حم السجدة يذكر فيها الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له » (١) .

سياق السورة

سورة الدخان مريجة الإيقاع ، تصيرة الفواصل ، لها ميمات السور الملكية ، إذ تشتمل على صور عنيفة متقاربة ، ونذر متكررة ، تشبه المطارق التي تقع على أوتار القلب البشري . « ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ، ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعا ، سواء في ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والمشهد الكوني ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة ، فكاهها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري ، واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حبة نابضة ، كما يبينها هذا القرآن في القلوب (٢) » .

تبدأ السورة بهذه الآيات القصيرة المتلاحقة ، المتعلقة بالكتاب والإنذار والرسالة والهداية :

﴿ حَمِّ ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ .
ثم تعريف للناس برحمتهم : رب السموات والأرض وما بينهما ، وإثبات الوجدانية لله المحيي المميت ، رب الأولين والآخرين .
ثم يضرب السياق عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم :

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب :

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ

الِيمٌ ﴾ الدخان ٩ ، ١٠

(١) في حاشية الشهاب على تفسير الفيضاني ٤٨ ، هذا الحديث أخرجه الترمذي في موضوعاته

(٢) في ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب ٤٤ / ١٠٥

ثم ذكر ما يكون من دعائهم لله أن يكشف عنهم العذاب ، وإعلانهم الاستعداد للإيمان في وقت لا يقبل منهم فيه إيمان .

وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف قليلاً ، الفرصة ، قبل أن يعودوا إلى ربهم فيكون ذلك العذاب الخفيف :
(يَوْمَ نَبِّطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ) الدخان ١٦

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ، ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ، ينتقل بهم إلى مصرع فرعون ومائه ، يوم جاءهم رسول كريم ، يدعوهم إلى الإيمان بالله ، فأبوا أن يستجيبوا لدعوته ، وهموا بالانتقام من موسى فأغرقهم الله ، وتركوا وراءهم الجنات والزروع ، والفاكهة والمقام الكريم ، يستمتع بها سواهم ، ويأنقون هم عذاب السعير .
وفي غمرة هذا المشهد الموحى يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة وإنكارهم للبعث وقولهم :

(إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ، فَأَتُوا بِآبَائِنَا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) الدخان ٣٥ ، ٣٦

ليذكرهم بأنهم ليسوا أقوى من قوم تبع الذين هلكوا لإجرامهم ، ويربط السياق بين البعث ، وحكمة الله في خلق السموات والأرض فلم يخلقهما عبثاً وإنما لحكمة سامية هي أن تكون الدنيا للعمل والابتلاء ، والآخرة للبعث والجزاء .

ثم نجدهم عن يوم الفصل « ميقاتهم أجمعين » ، وهنا يعرض مشهداً عنيماً لعذاب المكذبين ، إنهم يأكلون من شجرة مؤلمة طعامها مثل درى الزيت المغلى - وهو المهل - يغلى في البطون كغلى الجحيم ، ويشد المحرم شداً في جفوة وإهانة ، ويصب فوق رأسه من الحمم الذي يكوى ويشوى ، ومع الشد والجذب ، والدفع والعتل والكنى ، التأنيب والإهانة ، جراء الشك والتكذيب بالبعث والجزاء :

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الدخان ٤٩

وفي الجانب الآخر من ساحة القيامة نجد المتقين في مقام أمين ، يلبسون
الحرير الرقيق وهو السندس ، والحرير السميك وهو الاستبرق ، ويجلسون
مقابلين يسمرون ويتمتعون بالخور العين ، وبالخلود في دار النعيم .

﴿ فَضَلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ ﴾ الدخان ٥٧

ثم يأتي الختام يذكرهم بنعمة الله في تيسير هذا القرآن على لسان الرسول
العربي ، الذي يفهمون كلامه ويدركون معانيه ، ويخوفهم العاقبة والمصير ،
في تعبير ملفوف ولكنه مخيف .

﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ الدخان ٥٩ .



أهداف سورة الجاثية

سورة الجاثية مكية نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ،
بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٣٧ آية نزلت بعد سورة النحل ،
والسورة لها اسمان : سورة الجاثية ، لقوله تعالى :

(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً) الجاثية ٣٨ ،

وسورة الشريعة لقوله :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ

لَا يَعْلَمُونَ) الجاثية ١٨ .

الغرض من السورة

تحمل سورة الجاثية الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، والرد على الدهرية
الذين لا يؤمنون به ، وينكرون البعث بعد الموت ، وقد دعت السورة
إلى هذا تارة بالدليل ، وتارة بالترهيب والترغيب ، وشأنها في ذلك
شأن السورة السابقة ، وشأن السورة التي ذكرت قبلها ووافقتها في هذا
الغرض ، كما وافقتها في الحروف التي ابتدأت بها ، ولهذا ذكرت هذه
السورة معها ، وسميت مجموعة هذه السور بالحواميم ، نسبة إلى بدايتها
بقوله تعالى : حم :

وقال الفيروزبادي : معظم مقصود سورة الجاثية هو : بيان حجة
التوحيد ، والشكاية من الكفار والمنكرين ، وبيان النفع والضرر والإساءة
والإحسان(١) ، وبيان شريعة الإسلام والإيمان ، وتهديد العصاة والظالمين.

(١) عليه يقصد الإشارة إلى آيات الله الكونية في نفع العباد في الدنيا ثم في عقوبة الكفار

من أهل الإيمان ، و ذم متابعي الهوى ، و ذل الناس في المحشر ، و نسخ
كتب الأعمال من اللوح المحفوظ ، و تأييد الكفار في النار ، و تحميد الرب
المتعال بأوجز لفظ و أفصح مقال (١) ... في قوله :

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

سمات السورة

لاحظنا أن سورة الدخان تتميز بقصر الآيات ، و عنف الإيقاع كأنه
مطارق تقرع القلوب ، و سورة الجاثية يجوارها تسير في بسر و هوادة ،
و إيضاح هادئ ، و بيان دقيق عميق .

والله سبحانه خالق القلوب ، و منزل هذا القرآن ، يأخذ القلوب تارة
بالقرع و الطرق ، و تارة بالنغم الرفيق و تارة بالبيان الهادي الرقيق ،
حسب تنوعها هي و اختلافها . فمن الناس من ينفع معه الزجر و الوعيد ،
و منهم من يأسره التوجيه الهادي الرشيد ، و القلب الواحد يتقلب على حالات
متعددة ، و الله يختار له ما يناسبها ، و هو سبحانه اللطيف الخبير ، السميع
البصير ، و قد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم يامقلب القلوب
و الأبصار ثبت قلبي على دينك ، فقالت عائشة : يا رسول الله أراك تكثر من
هذا الدعاء ... فقال النبي : يا عائشة إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع
الرحمن يقلبها كيف يشاء .

منهج السورة

سورة الجاثية تصور جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ،
و طريقتهم في مواجهة حججها و آياتها ، و تعنتهم في مواجهة حقائقها و تضارباتها
و اتباعهم للهوى اتباعاً كاملاً ، في غير ما تخرج من حق واضح أو برهان
ظاهر ، كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجاحجة ، الشاردة
مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ، و هو يواجهها بآيات الله القاطعة ، العميقة
التأثير و الدلالة ، و يذكرهم عذابه ، و يصور لهم ثوابه ، و يقرر لهم سننه ،
و يعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود .

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٢٦ .

درسان في السورة

سورة الجاثية وحدة في علاج موضوعها ، وهذه الوحدة تشمل على
حوسين :

الدرس الأول : يتناول أدلة الشرك بالتنفيذ ، وأدلة الإيمان بالتوضيح
والتأييد .

والدرس الثاني : يعرض عناد الكافرين في الدنيا ثم يذكر أحوالهم في مشاهة
القيامة .

١ - شبهات الكفر وادلة الايمان

تبدأ سورة الجاثية بهذين الحرفين حم ، والملاحظ أن هذه الأحرف
يتبعها عادة الحديث عن القرآن ، مما يشير الى أنها نزلت لتنوه بهذا القرآن ،
وتستلفت الأنظار إلى خصائصه المتميزة وتبرهن بذلك على أنه ليس من
صنع بشر وإنما هو من عند الله :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ الجاثية ٢ .

وتعرض أدلة الإيمان والتوحيد ، وتستلفت الأنظار إلى جلال الله ،
ودلائل قدرته في السماء والأرض ، وخلق الدواب ، والليل والنهار ،
والمطر والزرع والرياح ، حتى تأخذ على النفس أقطارها ، وتواجهها بالحجج
والبراهين ساطعة واضحة فتقول :

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ
وَمَا يَبْدُ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ
الرِّيَاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ،
فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ الجاثية ٣ - ٦ .

ومن خلال الآيات التالية ، نرى فريقا من الناس مصرا على الضلالة
مكابرا في الحق ، شديد العناد ، سيئ الأدب في حق الله وحتى كلامه

﴿ وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرَةً بِعَذَابِ أَلِيمٍ . ﴾ الجاثية ٧ ، ٨

ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب ، سيئ التصور
والتقدير ، لا يقيمون وزنا لحقيقة الإيمان الخالصة ، ولا يحسون بالفارق
الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات ، وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات
والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقاً أصيلاً في ميزان الله بين الفريقين :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الجاثية ٢١

ونرى فريقا من الناس لا يعرف حكما يرجع إليه إلا هواه فهو إله الذي
يعبده ، ويطيع كل ما يراه ، نرى هنا الفريق مصورا تصويرا فلنا في
هذه الآية التي تعجب من أمره ، وتشهر بفقلته وعماه

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ
سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية ٢٣ .

أرايت كيف تناولت هذه السورة المائدة ، أصناف المشركين وفرقتهم
المناوثة للدعوة ، ويجوز أن يكون هؤلاء جميعا فريقا واحدا من الناس
يصدر منه هنا وذاك ، ويصفه القرآن في السورة هنا وهناك ، كما يجوز
أن يكونوا قبا متعددة .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ،
وتحدث عنهم في هذه السورة ذلك الحديث ، كذلك واجههم الله بآياته
في الآفاق وفي أنفسهم ، وفي الهر والبحر حيث يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ الجاثية ١٢ و ١٣ ﴾
ويستغرق الدرس الأول من السورة الآيات من (٢٣ - ١) .

٢ - عناد الكافرين وعقابهم يوم الدين

يشمل الدرس الثاني من السورة الآيات من (٢٤ - ٣٧) .
ويبدأ بعرض أقوال المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب ، ودعواهم أن الأيام تمضي ، والدهر ينطوي ، فإذا هم أموات ، والدهر في ظنهم هو الذي ينهى آجالهم ، ويأحق بأجسامهم الموت فيموتون ، وقد فند القرآن هذه الدعوى وبين أنها لا تستند إلى حقيقة أويقين ، وإذا قرعتم الآيات الدالة على ثبوت البعث لم يجدوا لهم حجة إلا أن يقولوا :

﴿ ائْتُوا بِآبَاتِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الجاثية ٢٥ .

والله سبحانه له حكمة في خلق الناس ، فقد خلقهم للاختبار والابتلاء في الدنيا ، ثم يجازيهم في الآخرة ولا يرجعهم إلى الدنيا قبل الموعد الذي قدره وفق حكمته العليا .

والله هو الذي يحيي وهو الذي يميت ، فلا عجب إذن في أن يحيي الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، وهو سبحانه مالك السموات والأرض ، وهو القادر على الإنشاء والإعادة .

مشاهد القيامة

تعرض الآيات الأخيرة من سورة الجاثية ، مشاهد الآخرة ظاهرة ملموسة للعين ، ومن خلال الآيات ترى المشركين وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة في ارتقاب الحساب المرهوب .

ثم يأخذون كتبهم وقد سجل كل شيء فيه ، ونسخت فيه كل أعمالهم

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الجاثية ٢٨ .

ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة على مدى الأجيال إلى فريقين
اثنين ، الذين آمنوا ، وهؤلاء يدخلهم ربهم في رحمته ، والذين كفروا ،
وهؤلاء يلقون التشهير والتوبيخ جزاء عنادهم ، وعندئذ يظهر أمامهم سينات
ماعموا ، ويحقيق بهم المهانة والعذاب ، ويسدل الستار عليهم ، وقد أوصدت
عليهم أبواب النار :

﴿ ذَلِكُمْ بِإِنَّكُمْ أَتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ الجاثية ٣٥ .

وهنا ينطلق صوت التحميد يعان وحدة الربوبية في هذا الكون ،
سمائه وأرضه ، وإنسه وجننه ، وطيره ووحشه ، وسائر ما فيه ومن فيه ،
فكلهم في رعاية رب واحد ، له الكبرياء المطلقة في دلتا الوجود ،
وله العزة القادرة والحكمة المدبرة :

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ •
وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الجاثية ٣٦ ، ٣٧

خاتمة

أتمت بفضل الله أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم من أول القرآن إلى نهاية الجزء الخامس والعشرين .

أما الاجزاء الخمسة الأخيرة فلها كتاب خاص بها إن شاء الله ، تكون فيه السورة القرآنية مكتوبة بجوار هدفها ومقاصدها . ليساعد ذلك الفتيان والفتيات على قراءة القرآن والإحاطة بأهدافه .

ولا أستطيع أن أتذكر القلم قبل أن أقرر أنني أفدت فائدة كبرى من جهود السيد الأستاذ سيد قطب طيب الله ثراه ، لقد كان تفسيره « في ظلال القرآن » منهلاً عذباً ، وقطوفاً دانية ، وطريقاً مذكلاً ، فقد أفاض الله عليه بفتوحاته ، وكان رحمه الله يدرك ما بين الآيات من تجانس ، ويلمس ما بين السطور ، ويرشد إلى الروابط الخفية بين آيات السورة وقد تقات من كتابه ، واقتبست منه ، وكتابتى هذا مدين له ، وللسابقين في هذا المضمار ، جزاهم الله عنا خير الجزاء ، وحشرهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات - وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس

٣	مقدمة
١١	دروس من سورة البقرة
٢٠	دروس من سورة آل عمران
٤٥	دروس من سورة النساء
٥٩	دروس من سورة المائدة
٧٤	دروس من سورة الأنعام
٩١	دروس من سورة الأعراف
١٠١	دروس من سورة الأنفال
١٠٩	دروس من سورة التوبة
١١٩	دروس من سورة يونس
١٢٧	دروس من سورة هود
١٣٩	نظرات في سورة يوسف
١٥٠	نظرات في سورة الرعد
١٦١	نظرات في سورة إبراهيم
١٦٩	نظرات في سورة الحجر
١٧٨	دروس من سورة النحل
١٩١	الأهداف العامة لسورة الإسراء
٢٠٠	دروس من سورة الكهف
٢٠٧	أهداف سورة الكهف
٢١٣	دروس من سورة مريم
٢٢٤	أهداف سورة طه
٢٣٦	أهداف سورة الأنبياء
٢٤٣	أهداف سورة الحج

تصويبات

يرجى إجراؤها قبل البدء في القراءة

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٢٧٣	٨	وَعَلُوا	٣٥	٩	وَأَنْفُسِكُمْ
٢٩٨	٩	وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ	٤٩	١	فَوَاحِشَةً
٣٠٦	٣	فَرِيقًا	١٠٣	٢٣	أَمَنَةً
٣٠٦	٥	تَطَوُّوْهَا	١١٠	٢١	مَرَدُوا
٣٠٨	١٧	أَمْسِكْ	١٣٢	١٦	افْتَرَاهُ
٣١٣	١١	أَعْظُكُمْ	١٣٢	١٦	قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ
٣١٣	١٢	بِصَاحِبِكُمْ	١٣٧	١٨	بِنَاصِيَتِهَا
٣١٨	١٥	مُرِيبٌ	١٦٤	٢٠	ذُنُوبِكُمْ
٣٢٦	٥	يُخَيِّبُهَا	١٨٢	٢٠	تَلْبَسُونَهَا
٣٣٧	١٥	أَنْفُسِهِمْ	١٨٥	٢٣	يَتَفَكَّرُونَ
٣٤٦	١٤	يَأْتِي	٢٠٣	١٢	أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
٣٤٦	٢٢	بِأَسْنَا	٢٠٧	٢٣	أَنْمًا إِلَهُكُمْ
٣٥٣	١٦	وَأَسْتَقِيمُ كَمَا أَمَرْتَ	٢٢٨	١٨	إِلَّا أَنَا
٣٥٣	١٨	لِأَعْدِلَ	٢٤٥	١	فَكَالَيْنِ
٣٥٣	١٨	رَبِّنَا	٢٤٥	١٢	الْمُخْفِيَتَيْنِ
٣٥٦	٥	كُلُّ	٢٥١	١٥	اعْبُدُوا
٣٦٦	٥	جَائِئِيَّةٌ	٢٥٢	٢٢	مَا آتَوْا
٣٦٧	٤	وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّنَا	٢٦٢	٧	فَلَا تُطِيعُ

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤٩٠٥
ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ١٥٦ ٥

